

تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة في المشرق

تأليف
محمد عبد الله عنان



تاريخ الجمعيات السريّة والحركات الهدائيّة في الشرق

تأليف
محمد عبد الله عنان



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تاريخ الجمعيات السّرية
والحركات الهدامة في الشرق

مقدمة

ان آثار الاهواء والقوى الخفية ، التي تعمل منذ القرون الغابرة فيما وراء العالم الظاهر في تكوين المجتمع وسيره وتطوره ، قوية عميقة . وقد وجدت الجمعيات السرية منذ أقدم العصور ، ولما كانت أقدم المدينيات قد نشأت وأزهرت في المشرق فان الشرق كان أول مهد لهذه الجمعيات والقوى الخفية ، بل سنرى أن الشرق هو الذي قدم الى الغرب أرقى المثل وانظم السرية ، وان أديان الشرق وفلسفته وأساطيره كانت مستقى خصيصاً لحدث الجمعيات السرية الغربية في صوغ تعاليمها وتقاليدها ورموزها . وإذا فني مصر وبابل وقارس أقدم أمم الشرق ، ومبعث أقدم المدينيات ، نستطيع أن نرجع الى أصول هذه الجمعيات والقوى الخفية التي نفذ فيما بعد - أعمق جنبات المجتمع ، وآثرت في عقله وروحه ، واستطاعت أن تسير أهواء الجماعات طوع ارادتها تحقيقاً لمثلها العليا

هذه الجمعيات التي آثرت الظلام على الضياء كانت تعمل لاحدى غايتين جوهريتين ، الاولى روحية ، كمحاولة الوقوف على أسرار السكون الخفية واستقصاء أسرار الروح والحياة والموت ، والاتصال بعالم الغيب ، والثانية هدامة سياسية يراد بها ابدال مجتمع بمجتمع أو سلطان بسلطان -

فأما الغاية الاولى فكانت قبة معظم الجمعيات السرية القديمة التي قامت في الأكم الغابرة ، وكانت أيضاً غاية لبعض الطوائف الخفية التي ظهرت في العصور الوسطى سواء في الشرق أو الغرب ، وسنرى أن هذا الشغف بالخفاء الروحي قد يرفع صاحبه الى أرفع وأنتهى المثل أو يهوي به الى أسفل دركات الأمم . على أن النزعة الغالبة في الجمعيات القديمة كانت دائماً محاولة الاتصال بالآلهة ، وتوثيق الروابط معهم ، في الغالب لغايات انسانية خالصة ، ولمثل هذه الغاية تعمل بعض الجماعات الدينية في التباثل الهمجية ، فتحاول أن تنال عطف الآلهة أو تنفذ الى أسرار الروح ، وتمزج نظمها ورسومها بكثير من التعاليم الدينية والاخلاقية

وقد كانت معظم هذه الجمعيات السرية الدينية رغم استتارها ونمساها بأذيال الخفاء والتعجب جماعات سامية تعمل في دائرة الشرائع والنظم ، بل كانت منها جماعات تعمل في الخفاء لتأييد التماثون والنظام ، وتستخدم في ذلك هيبتها ونفوذها الذي كان يستند في الغالب الى ما يحوطها من أسباب الخفاء والتعجب . وكانت تلجأ الى استخدام الاقنعة والرموز والرسوم والمواد المقدسة لتتصل بالآلهة أو الارواح أو تستنزلها من عالم الغيب لتحل بين صفوفها وتسبغ عليها المعارف والحكمة

ويلحق بهذه الجماعات الدينية ، جماعات المتنورة والحكماء وقد وجدت ايضاً منذ اقدم العصور وفي جميع المدينيات القديمة . وملخص دعواها ان هناك تعاليم خفية سامية ليس السكافة اهلًا لتلقها ، فلا تكشف إلا للخاصة ، وقد كانت هذه التعاليم تدور في جميع العصور حول أصل الانسان وآخرته ، والحياة والروح ، وأهل الخليفة ، وطبيعة الخالق وهي نفس المسائل التي عانيت بالخوض فيها معظم الاديان ، بيد أنه يجب أن نلاحظ أن دعاة الدين كانوا يحملون تعاليمهم وحلولهم الروحية الى السكافة في حين أن الحكماء والمتنورة كانوا يقتصرونها على أنفسهم ويحرصون على كتمانها غاية الحرص . وقد كانت هذه الخفايا المقدسة واحدة تقريباً في معظم الامم والمدينيات القديمة ، إذ يظهر أن القول بوجود آله قوي قادر خلق كل الاحياء والاشياء فكرة اشتركت فيها كل الامم القديمة التي بلغت غاية رفيعة من الحضارة كمصر وأشور وكالديا ، والصين والمهند وبيرو . والتاريخ واضح في هذه النقطة ، على الاقل فيما يختص بمصر ، فقد كان للسكنة المصريين تعاليم روحية خفية يتناقلونها مدى الاجيال شفاهاً ولا يكشفون للناس منها الا المظاهر الخارجية ، وكان لاديان اليونان ورومة أسرارها ايضاً . على أن اليونان كانت مهبطاً لضرب آخر من الخفاء هو الفلسفة ، فكانت للفلاسفة اليونانيين جمعياتهم السرية لا يلتحق بها سوى تلاميذهم القلائل ممن آنسوا فيهم الحزم والحكمة . وكانت تعاليمهم نوعين احدهما للسكافة وهو الظاهر والعرض ، والآخر قاصر على أنفسهم وعلى تلاميذهم وهو الجوهر العميق . وقد يحدث أحياناً أن تعنى هذه الجماعات الفلسفية بالشؤون العامة فتقطعن في النظم القائمة من سياسية ودينية وحينئذ تتخذ صبغة الجمعيات السرية السياسية

والظاهر أن فيثاغورس كان أول من أسس الجمعيات السرية في اليونان على هذا النحو ، وقد ولد في صاموس في أواخر القرن السادس قبل الميلاد ، ونجول في مصر حيناً وتلقى خفياً ايزيس ، فلما عاد الى اليونان حاول أن ينشئ جمعية سرية في صاموس ، ولكنه أخفق وسافر الى كروتونا في إيطاليا ، وجمع حوله نفرآ من التلاميذ وأسس طائفته المعروفة ، وقسمها الى قسمين : الاول عام لا يتلقى أعضاؤه تعاليم الاستاذ الخفية ولا يتمتعون بالاتصال به والمناقشة معه الا بعد تجربة تطول الى خمسة أعوام ، والثاني خاص يتكون من التلاميذ الحقيقيين الذين تكشف لهم كل تعاليم الاستاذ الخفية . وقد بدأ فيثاغورس دعوته بواسطة الصور والرموز والتعاليم الهندسية التي تلقاها في مصر ، ثم انتهى الى البحث في أصل الروح وطبيعة الاله الذي يمثل في تعاليمه بفكرة عقل كوني ينتشر في جميع الاشياء . وعلى مثل فيثاغورس وطائفته أنشئت بعض النظم السرية الغربية مثل جمعيات «البناء الحر» الاولى اذ يقال ان نظريات فيثاغورس الهندسية كانت تبرز بأصولها وتعاليمها وأما الغاية الثانية أعني غاية الهدم وتحقيق أهواء السياسة فكانت البرعة الغالبة في الجمعيات السرية في القرون الوسطى والعصر الحديث ، ولتحقيقها قامت اعظم واغوى الجمعيات السرية ، واحتشدت جيوش الدعاة ، واضطربت أروع المعارك الخفية . ولما كان هذا النوع من الجمعيات السرية هو الذي يؤثر حقاً في سير الحوادث ومصائر المجتمعات والاعم فقد آثرنا به بالناية والبحث . وسنرى فيما يلي من صف هذا الكتاب مدى الادوار واثورات السياسية والاجتماعية التي قامت بها الجمعيات السرية المحدثه ، وهي أدوار واثورات كثيراً ما تقصر عن أدائها وإحداثها الجيوش الجرارة والدول الشائخة

الكتاب الاول

الثورة على الاسلام

والحركات الثورية ، والجمعيات السرية التي قامت لخدمه

مقدمة

عانى الاسلام عصف المبادئ والحركات الثورية منذ نشأته الاولى ، وتسربت هذه النزعة الثورية الى المجتمع الاسلامي منذ طفولته ، فما كاد يبلغ أشده حتى دعمته ربيع عاتية من الثورات والاهواء المتباينة مزقت وحدته باسم تاويلات جديدة ، ومبادئ مستحدثة ، وتشعبت المذاهب والتعاليم الروحية تبعاً لتشعب الاطماع والغايات السياسية ودعاوي الفرق والاسر المختلفة

وقد كان لهذه الرياح الثورية أثر عميق في مصائر الاسلام ومصائر الدول الاسلامية معاً ، ذلك لان النظم الروحية والسلطة الزمنية نشأتا في المجتمع الاسلامي ممتزجتين مجتمعين فكان من أثر ذلك ان الخروج على احدهما كان دافعاً يستلزم الخروج على الاخرى ، وهدم احدهما يضر بطبيعته عن هدم الاخرى ، بل ان معظم الدول الاسلامية لم يقم الا وراء دعوة دينية يدعو اليها المتغلب باديء بدء ، أو مزاعم يستند اليها دعواه ، ترجع في معظمها الى حجج دينية ، ثم يوطد أسس دولته السياسية على أسس الحجج والمزاعم الروحية . وعلى هذا النحو قامت الدولتان الاموية والعباسية في المشرق ، وقامت دول الشيعة في افريقية ومصر ، ودول الادارسة والموحدين في المغرب . ولعل التاريخ الاسلامي لا يعرف مذهباً ثورياً لا يستند الى مذهب روحي ، أو حركة ثورية عامة لا ترجع الى الدين . كانت المذاهب والحركات الثورية محارب السلطة السياسية وما تستند اليه من التعاليم والمبادئ الروحية معاً ، وكان لمعظمها خطط البناء تضعها الى جانب خطط الهدم ، بيد ان منها ، كما سيبنى ، حركات لم تكن الا بهدم المجتمع الاسلامي وتعاليمه الدينية والاخلاقية الاولى ، واستبدالها بتعاليم اباحية في الغالب ، وهذه الحركات الثورية الهادمة التي بلغت ذروتها بانفجار الفرامطة في القرن العاشر الميلادي هي التي هزت أسس المجتمع الاسلامي الى الاعماق ، وصعدت من سلطانه السياسي ، وأصابته في عقليته وخلاله ، وعجلت في النهاية بتفككه واضمحلاله . كذلك قلما نجد في المجتمع الاسلامي مذهباً أو دعوة الى تغيير النظم ، دينية كانت أو سياسية أو اجتماعية ، الا استندت الى القوة والعنف وقامت بحمد السيف ، فمذاهب الهدم الاسلامية كلها ثورية محضه كالاشتراكية الثورية والشيوعية واللاحكومية وغيرها من مذاهب الهدم الحديثة التي لا ترى الوصول الى غاياتها الهدامة بالتطور ولا تعرف سوى العنف وسيلة لذلك

وترجع معظم الحركات الثورية الإسلامية الى أصل تاريخي واحد ، وتجتمع حول مبدأ سياسي واحد ، هو ديني في نفس الوقت . فأما وحدة الأصل التاريخي فهو أنها نشأت في معترك الخلاف الذي اضطرم بين زعماء الإسلام الأولين حول مسألة السلطان والحكم ، وترعرعت في مهاد الحوادث الدموية التي أثارها النزاع بين علي بن أبي طالب الخليفة الرابع ، ومنافسه القوي معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية بالشرق . وقد ظهرت بوادر هذا الخلاف أثناء حياة النبي العربي ذاته ، ولم يحل دون انفجارها وقتئذ إلا بأس قريش ومنعتها . ولما توفي النبي انفجر بركان الخلاف من كل ناحية ، واضطر أبو بكر الخليفة الأول أن يتخلى شطراً من عهد خلافته القصير في محاربة الخارجين والمرتدين . واستطاع الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بحزمه وعزمه أن يتقي انفجار العاصفة حيناً ، بيد أنه ذهب فحمة الأهواء والاطماع التي تضطرم من حوله . كذلك قتل خلفه عثمان ، ولعله كان أشد الخلفاء الراشدين استئثاراً بالحكم ، وأحرصهم على توزيع السيادة بين عصبته وأنصاره ، وأقلهم عناية باتقاء عوامل الشقاق والغيرة . فلما كانت خلافة علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين تمخضت عناصر الخلاف والتنافس التي لبثت منذ وفاة النبي بحيش في صدور التامنين والطامعين عن أول حركة ثورية في الإسلام ، فكانت منشأ كل الحركات الثورية التي اجتاحت المجتمع الإسلامي في مختلف العصور والاقطار .

وأما وحدة المبدأ الذي تجتمع حوله هذه الحركات الثورية فترجع الى أن معظمها قام حول مسألة الإمامة أو الخلافة ، أو بعبارة أخرى حول المبدأ الذي يستند اليه السلطان أو الحاكم السياسي في تولي الرياسة والملك والاستئثار بالسلطين الروحية والزمنية . وقد كانت الوجهة الدينية لهذا المبدأ مصدر الجدل المستفيض والتأويلات الجمة التي كانت تنتحلها وترجع إليها الطوائف الثورية الإسلامية في مختلف العصور ، تأييداً لخروجها على المملطة أو الأسرة القائمة وعلى ما تستند اليه من تعاليم ومبادئ . وقد عرف المجتمع الإسلامي حركتين ثوريتين عظيمتين في دعوة الخوارج ودعوة الشيعة ، وكان انفجار هاتين الدعوتين فائحة لسلسلة طويلة من الحركات الثورية ، ومهداً لطائفة كبيرة من الفرق السرية التي قامت بأدوار هامة في التاريخ الإسلامي .

بيد أننا لن نغني هنا بتاريخ هذه الحركات والفرق وتحليل مبادئها إلا من حيث أنها ثورية أو سرية

الفصل الأول

ثورة الخوارج

(١) أصل الخوارج . مقتل عثمان حجة الخصومة . خروج معاوية بن أبي سفيان . خدعة صغيث والاتفاق على التحكيم . غدر ابن العاص . الخوارج على علي (٢) اثلاث الخوارج للثورة . موقعة النهراوان وهزيمة الخوارج (٣) فترات الخوارج . تقريرهم . مقتل الزعماء . مقتل علي ونجاة معاوية ومرو . نزول الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية (٤) محاربة الخوارج لقوات معاوية . مطاردة عمال معاوية لهم . الخوارج وابن الزبير . انقسامهم الى عدة فرق (٥) الحرب بين الازارقة وابن الزبير . مطاردة المهلب للخوارج . الخوارج النجدية . عودة المهلب الى حرب الخوارج . ثورة الخوارج في الموصل وأذربيجان . مسير الحجاج الى قتالهم . هزيمتهم في الانبار . شبيب زعيم الخوارج (٦) فترات الخوارج في عهد بني العباس . الخوارج في المغرب (٧) مبادئ الخوارج الدينية والسياسية . رسالة الخوارج . أثر ثورتهم في مصائر الاسلام

١ - قلما يعرض تاريخ الحركات الثورية طائفة تضارع في الغيرة على الدعوة ، والاخلاص للمبدأ ، والتفاني في تحقيق الغاية ، كطائفة الخوارج الإسلامية . كن الخوارج فرقة سرية بل نشأوا في وضح النهار وعملوا في الضياء ، ودعوا الى تعاليمهم في علانية . وقد نشأت حركتهم منذ مقتل عثمان ثالث الخلفاء ، وهو حادث ما زال يحوطه كثير من الغموض والريب . والظاهر ان الخوارج وان لم يجاهرُوا وقتئذ بمبذمهم السياسي قد اشتركوا في تدبير هذه الجريمة ، أو على الأقل حرضوا على ارتكابها ، ثم كانوا بعد ذلك عوناً لعلي بن أبي طالب في تولي الخلافة . وهذا ما يفسره وقوفهم منذ البداية الى جانب علي في محاربة انصار الخليفة المقتول والمطالبين بثأره ، ثم خروجهم عليه بعد ذلك حينما رضي بمهادنة خصومه ، وقبل فكرة التحكيم حسبما للخلاف بينه وبينهم . وهنا اتخذت حركة الخوارج صبغتها الثورية

وأصل هذا الخلاف يرجع الى أنه لما قتل عثمان وتولى علي الخلافة ثار عليه فريق من خصومه وعلى رأسهم بعض الزعماء المشهورين مثل طلحة ابن عبيد الله والزبير ابن العوام ومعهم السيدة عائشة زوج النبي ، وقد نهضوا في الحقيقة لاسقاط علي ولكنهم انتهلوا لخروجهم مسألة المطالبة بدم عثمان ومعاوية قاتليه . وقد كان هذا إخراجاً لعلي وتحدياً له في الواقع لأنه نال الخلافة بتوازية الجناة وأنصارهم ، بيد أنه حاول ان يهدى الخارجين بانثريه من دم عثمان ولعن قاتليه في خطبه وأحاديثه ،

فلم يفتح الثوار منه بذلك واستعدوا لمحاربته ، والتقى الفريقان بجوار البصرة ، ونشبت بينهما موقعة تعرف بموقعة الجمل (سنة ٣٦ هـ) هزم فيها الثوار وقتل طلحة والزبير وكان معاوية بن أبي سفيان والياً على الشام منذ خلافة ابن عمه عثمان . وكان علي حينما ولي الخلافة قد أراد ان ينزع كل ولاية عثمان من الحكم وأن يولي مكانهم نفعاً من صحبه ، فبعث الى الشام عاملاً سبل بن حنيف فردده أهلها ، وأظهر معاوية الخلف ، ووجد في المطالبة بدم عثمان حجة يستبرها مطالعته في الخلافة والملك ، فاستأنف دعوة طلحة والزبير ، وحاول علي أن يحسم الخلاف بينه وبين خصمه القوي بالتفاوض والمساكنة ، فلم يجبه معاوية الى السلم ، بل تجهز للحرب ، وتلاقيا بصفين ، ونشبت بينهما معركة هائلة كادت تسحق فيها جيوش الشام لولا ان لجأ حليف معاوية عمرو بن العاص الى حيلته المشهورة في الاشارة على أهل الشام برفع المصاحف فوق الرماح ، ودعوة أهل العراق الى حقن الدماء وتحكيم القرآن في حسم الخلاف . وكانت هذه حيلة صائبة أوقعت التفرق بين انصار علي إذ رأى بعضهم قبول الدعوة وعارض البعض الآخر . وكان علي يؤثر رفضها لأنه أدرك أنها خدعة دبرها خصومه لاجتناب الهزيمة واغتنام الوقت ، ولكنه اضطر الى قبولها خشية التمرد ، ولأن القبول كان رأي الاغلبية . وكان أشد الخارجين عليه عندئذ وأكثرهم إلحافاً في قبول التحكيم جماعة من الزعماء منهم الاشعث بن قيس ، ومسعود بن فدي التميمي ، وزيد بن حصين الطائي^(١) حين قالوا : القوم يدعوننا الى كتاب الله وأنت تدعوننا الى السيف ، وأولئك هم الفريق الاول من الخوارج . ثم اختار أهل العراق أبا موسى الاشعري حكماً لهم ، واختار أهل الشام عمرو ابن العاص ، وكتب الفريقان وثيقة بالتحكيم نص فيها على تفويض الحكيم بتطبيق نصوص القرآن والسنة وعلى وقف الحرب والقتال حتى يتم التحكيم في ظرف أشهر من عقد الهدنة . وكان ذلك في صفر سنة ٣٧ هـ

وفي رمضان سنة ٣٧ هـ اجتمع الحكمان بحصن دومة الجندل باحدى قرى الشام ومع كل منهما اربعمئة رجل من الفريق الذي يمثل . وهنا لجأ عمرو الى الدهاء والخديعة مرة أخرى ، فاتفق مع أبي موسى على أن يخلعا علياً ومعاوية وأن يكون الأمر بعد خلعهما للمسلمين فيختاروا للخلافة من شاءوا ، ودفع أبا موسى الى البدء

(١) هكذا وردت اسماؤهم في الملل والنحل للشهرستاني ، ولكن ابن خلدون يسميهم هكذا : - يزيد بن الحصين وأحياناً زيد بن الحصين ، ومسر بن فديك

بإعلان هذا الفرار ، ثم نهض في أثره ووافقه على خلع علي ولكنه نادى بولاية معاوية « لانه ولي ابن عفان وأحق الناس بمقامه » فبويع معاوية بالخلافة على اثر ذلك واشتد الاضطراب والتفرق بين أنصار علي

وكان نهر من اهل العراق ممن انضموا لفكرة التحكيم قد طلبوا الى علي أن يرجع عن خطئه وأن يمضي في الحرب ، وأوفدوا اليه من زعمائهم رجلين هما زرعة بن البرج الطائي وحر قوص بن زهير السعدي فهدداه بالخروج والحرب اذا أصر على قبول التحكيم فاحتج علي بالعهد الذي أبرمه وعندئذ أعلن المعارضون خروجهم عليه . واولئك هم الفريق الثاني من الخوارج

٢ - ثم اجتمع الخوارج سواء من قبل التحكيم منهم بادىء بدء ومن لم يقبله واختاروا لزعامتهم عبد الله بن وهب الراسي فكان اول رؤسائهم . واستقر امرهم على مغادرة الكوفة وإعلان الثورة في بعض الانحاء انكاراً لهذه « البدعة المضلة والاحكام الجائرة » . وكتبوا الى أنصارهم في البصرة يستحثونهم على الالتحاق بهم . ثم اتجهوا نحو الشمال اجنباً لقتال عامل علي على المدائن واستقروا بظاهر قرية على دجلة تعرف « بالنهراوان » وتبعهم خوارج البصرة بقيادة مسعود بن فدي بعد ان نشبت بينهم وبين قوة من اصحاب علي موقعة صغيرة . وخشي علي عواقب ذلك الانقسام الجديد في صفوفه فحاول ان يلاطف الخارجين وان يقنعهم بخطئهم وارسل ابن عمه عبد الله بن عباس الى مفاوضتهم ومناظرتهم ثم ذهب الى لقائهم بنفسه في حروراء قبل ان يسيروا نحو الشمال واستطاع ان يقنع نفراً منهم بالعدول عن ثورتهم . وسار الباقيون الى النهراوان كما ذكرنا واخذوا في تنظيم جموعهم والاستعداد للحرب . فعاد علي الى الكوفة معزماً قتال الخوارج منكرأ شأن الحكمين وخطب الناس : « ألا ان هذين الحكمين نبذا حكم القرآن واتبع كل واحد هواه واختلفا في الحكم وكلاهما لم يرشد » . غير انه رأى ان ينتهي من قتال منافسه بادىء بدء وبذل لدى الخوارج مجهوداً اخيراً واستحثهم على ان يعودوا الى صفوفه لمقاتلة اهل الشام ولكنهم أصرروا على الخلاف والثورة . فاخذ عندئذ في الالهبة لمحاربة معاوية وحشد كل قواته فبلغت نحو سبعين الف مقاتل . وبينما هو يعزم السير الى الشام اذ بلغه ان خوارج البصرة قتلوا واحداً من صحابة النبي هو عبد الله بن جناب وزوجه ، وانهم يعيشون فساداً في تلك الانحاء ويقتلون النساء والاطفال فبعث اليهم رسولا ينهاهم وينذرهم فقتلوه ، فعندئذ استقر رأيه ورأى اصحابه على مقاتلة الخوارج اولاً فصار نحو الشمال ولقيهم وانذرهم بسوء العاقبة في

خطاب لخص فيه أوجه الخلاف بينه وبين خصومه في قولهم: « ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة وأخبرتكم أن طلب القوم لها مكيدة وأنبأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن وأنني أعرف بهم منكم ، قد عرفتهم أطفالاً وعرفتهم رجالاً فهم شر رجال وشر أطفال وهم أهل المكر والغدر وانكم ان فارقتهموني ورأيي جانبهم الخير والحزم فعصيتهموني وأكرهتهموني حتى حكمت ، فلما ان فعلت شرطت واستوثقت وأخذت على الحكمين أن يحيا ما أحيا القرآن منه فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة وعملا بالهوى فنفذنا أمرهما » فلم يصغ الثائرون الى نصحه . واشتبك القتال بين الفريقين ونادت الخوارج « لا حكم الا الله . الروح الروح الى الجنة » وكانت قواتهم لا تتجاوز اربعة آلاف ، انشق منها بدء القتال نحو النصف ، واقتتل الباقيون قتالاً رائعاً فمزقوا في الحال شر ممزق وقتل من زعمائهم عبد الله بن وهب وزيد بن حصن وحر قوص بن زهير ، ولم يبق منهم إلا أفراد قلائل فروا الى مختلف الأنحاء (سنة ٣٨ هـ)

وعاد علي الى الكوفة ليم اهتبه لقتال معاوية ، ولكنه لقي من جنده إعراضاً ونفوراً وانفض عنه وجوه اصحابه وقواده فسكت على مضض ولبث يرقب الحوادث ٣ - لم تكن موقعة النهراوان قبرا للخوارج ، فان أعراض الثورة ما لبثت أن شملت معظم النواحي ، وخرج كثير من الزعماء الذين اعتنقوا دعوة الخوارج في جموع صغيرة واشتدت بينهم وبين قوات علي عدة معارك . وكان من أخطر هذه الثورات المحلية قيام زعيم من تميم يدعى ابو مريم السعدي خرج في قوة صغيرة من اصحابه وزحف بها على الكوفة ذاتها ودعا عليها الى بيعته فبعث اليه علي بالجند فهزم ابو مريم ومزق اصحابه بعد قتال رائع ، وقيام زعيم الخريت بن راشد سار من الكوفة معلناً الثورة وأخذ يبحث في الأنحاء المجاورة لها فساداً فأرسل اليه علي جنده واشتدت بينهما موقعة ارتحل خريت على اثرها الى الاهواز وأعلن دعوته هناك

وفي ذلك الحين دبر الخوارج أول مؤامرة منظمة لقتل الرؤساء المخالفين لهم في الرأي . فاجتمع بعضهم سرا في مكة أثناء الحج ، وقرروا قتل أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص . وتعهد عبد الرحمن ابن ملجم المرادي بقتل علي ، والحجاج بن عبد الله الصريمي بقتل معاوية ، وعمرو بن بكر التميمي بقتل عمرو علي ان يكون التنفيذ في وقت واحد هو يوم ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ . فسار ابن ملجم الى الكوفة خفية وتأهب هنالك لتنفيذ الجريمة بمعاونة حسناء من الخوارج هام بها وتزوج منها ، واثنين من شيعته يدعيان شبيب ووردان . وفي

ليلة التنفيذ سار مع صاحبيه الى المسجد ، فلما خرج علي ونادى للصلاة انقضوا عليه وضربه شبيب بسيفه فأخطأه ، وضربه ابن ملجم بسيفه على مقدمة رأسه صانحاً « الحكم لله لا لك يا علي ولا لأصحابك » فخرجه جرحاً بالغا توفي بعده يومين . وقتل ابن ملجم بعد أن عذب وقطعت أطرافه ، وفقد الاسلام بمقتل علي زعيماً من أكبر زعمائه ، وطويت صفحة من أمجد صحف الفروسية

أما الحجاج بن الصرمي وعمرو بن بكر فسار أولهما الى الشام وكمن معاوية في الليلة المتفق عليها وطعنه بسيفه فأصابه في أعلى الساق بجرح يسير برى منه . وسار ثانيهما الى مصر وكان عمرو قد دخلها منذ بيعة معاوية ، وكمن له ليلة التنفيذ ، ولكن عمرأ لم يخرج الى الصلاة في تلك الليلة لمرض أصابه فقتل ابن بكر رسوله خارجة الذي أنابه للصلاة عنه معتقداً أنه عمرو ، ولما مثل أمام عمرو قال : « أردت عمرأ وأراد الله خارجة »

ولما قتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بايع أصحابه ابنه الحسن بالخلافة وبويع بها في نفس الوقت معاوية بن أبي سفيان ولقب بأمر المؤمنين وكان قد بويع بها كما قدمنا منذ اجتماع الحكمين . ثم زحف في اهل الشام لقتال الحسن . وسار الحسن الى لفائه في اهل العراق غير أنه ما كاد يبلغ المدائن حتى ثار عليه الجند وانقض معظمهم عنه فاضطر الى مفاوضة معاوية في الصلح ونزل اليه عن الخلافة على أن يعطيه ما في بيت المال بالكوفة ومبلغاً آخر وخراج دارا مجرد من فارس ومروط أخرى . ثم ارتحل الى المدينة واستتب الامر لمعاوية واتفق الجماعة على بيعته ما عدا الخوارج ، ثم الشيعة الذين اجتمعوا في مكة حول الحسين بن علي . وسنغنى بأخبار الشيعة وتحليل مبادئهم بعد أن ننهي من اخبار الخوارج ودرس تعاليمهم

٤ - خرج معاوية ظافراً من المعركة ، وتبوأ عرش الخلافة في دمشق ، فوضع أسس تلك الدولة الزاهرة التي حملت لواء الاسلام الى معظم أمم المشرق ، وسواد أقطار الدولة الرومانية ، وافتتحت مملكة القوط (اسبانيا) وتوغلت في فرنسا حتى نهر اللوار

بيد أن الثورة الداخلية لبثت تضطرم في العراق واعتزم الخوارج حرب معاوية بعد علي ، ففي سنة ٤١ خرج زعيمهم فروة بن نوفل الاشجعي في شهرزور وزحف على الكوفة ودخلها بعد قتال رائع ، واستمرت الحرب بين الخوارج وأهل الكوفة أشهراً حتى قدم عامل معاوية على الكوفة وهو المغيرة بن شعبة ، وكان صارماً شديداً

الوطاة فطارده الخوارج حتى شهرزور وقتل زعيمهم فروة ، وكان كلما انتهى من أمر جماعة منهم خرجت عليه أخرى بقيادة زعيم آخر ، غير انه جد في مطاردتهم واستعمل الغدر والدس في قتالهم والقبض على زعمائهم . ثم خلفه زياد في حكومة العراق فاشتد أيضاً في مطاردة الخوارج وبث جنده لقتالهم في كل ناحية ، وشدد على القبائل بمطاردتهم وتوعد بالويل والدمار كل من يعاونهم أو يأويهم . وفي عهد خلفه عبد الرحمن ابن عبد الله خرج جماعة من الزعماء الذين كان المغيرة قد قبض عليهم وسجنهم وساروا الى أنقيا فبعث اليهم بالجند وقتلهم حتى هزموا . ثم جاء عبد الله بن زياد فنشط الى مطاردتهم وتشريدهم ، والتقى معظم زعمائهم في غياصة السجن ، وخرج عليه مرداس ابن أدية ، وهو من عظماء الخوارج وثقات فقهاهم في الاهواز ، فبعث لقتاله الذي رجل فهزمهم الخوارج ، فارسل اليهم قوة كبيرة لحقت بهم بتوج ودعمتهم أثناء الصلاة ، فيقال ان الخوارج لبثوا على حالهم من الركوع والسجود حتى قتلهم جند العراق أجمعين واستمرت ثورة الخوارج في أمحاء البصرة والكوفة حيناً حتى خرج عبد الله ابن الزبير في مكة على يزيد بن معاوية ثانياً خلفاء بني أمية ، فاعزم الخوارج السير الى مكة لنصرة ابن الزبير وقتلوا معه جند يزيد حيناً ، فلما توفي يزيد اختلف الخوارج مع ابن الزبير على بعض الاصول الكلامية ، وجاهر ابن الزبير بأنه ولي عثمان وعلي فانفض الخوارج عنه ، ثم افترقوا هم فيما بين أنفسهم الى عدة فرق ، الازارقة أصحاب نافع بن الازرق ، والنجدية أصحاب نجدة بن عامر ، والاباضية أصحاب عبد الله بن اباض المري ، والصفرية أصحاب عبد الله بن صفار السعدي . ووثبت من هذه شعب أخرى أفاض في ذكرها علماء الكلام ، بيد أنها لم تكن ذات شأن يذكر . وسنعنى بمبادئ هذه الفرق عند كلامنا على مبادئ الخوارج

٥ - وكان الازارقة يمنع الفرق الجديدة وأشدّها بأساً ، وكان أنصارهم في اقليم البصرة فساروا الى الاهواز عقب خلافهم مع ابن الزبير ، وكان ابن الزبير قد تغلب على العراق وبعث اليه بعماله ، فنشبت الحرب بين عمال ابن الزبير والازارقة (سنة ٦٥ هـ) ونشبت بين الفريقين عدة معارك قتل فيها ابن الازرق زعيم الخوارج ، وقائد العراقيين ، فاختر الخوارج عبد الله ابن الماخور فقاتل حتى قتل أيضاً ، فولوا امارتهم ابنه عبيد الله فقاتل حتى هزم العراقيين ثم زحف في قواته على البصرة ، فعهد ابن الزبير عندئذ الى المهلب بن أبي صفرة ، بقتال الخوارج وكان في طريقه الى خراسان التي عينه ابن الزبير لولايتها ، فوقف بالبصرة وحشد الجند ، وكان حازماً صارماً

فاشتبك مع الخوارج في عدة معارك طاحنة وهزمت جموعه في المبدأ ولكنه ثابر على القتال حتى عاوده النصر ، فارتد الخوارج بقلوبهم الى كرمان واصفهان وتغلبوا على هاتيك الأنحاء ، ولبنوا حيناً يقاتلون عمال فارس ويغيرون على شمال العراق ويعيشون فساداً في مدنه

فلما كانت اماره زعيمهم قطري بن الفجاءة عادوا الى الاهواز ، وعاد المهلب الى قتالهم ، ونشبت بينهما في سواقي معارك شديدة مدي ثمانية أشهر أبدى الفريقان فيها كثيراً من ضروب الشجاعة والجلد (سنة ٦٨ هـ) ، وكان عبد الملك بن مروان قد استعاد العراق وبعث عامله عليها حينئذ لقتال الخوارج فهزموه على حدود فارس ، فبعث المهلب بن أبي صفرة - وكان قد دخل في خدمته - مع عامله الى قتالهم فانهزم الخوارج في الاهواز شر هزيمة وطاردتهم جنود عبد الملك قتلاً وأسراً ففرقت قلوبهم فيما وراء العراق (سنة ٧٢ هـ)

وأما الخوارج النجدية فساروا الى اليمامة واتخذوها قاعدة للاغارة على احياء اليمن والحجاز والبحرين ، ثم قاوض عبد الملك زعيمهم نجدة بن عامر في الطاعة على أن يوليه حكم اليمامة وجرت بينهما مكاتبات أسهه انصاره على أثرها بالمروق والخيانة فوثب عليه أحد عمه وهو أبو قديك فقتله وولاه الخوارج الامارة مكانه ، ثم سار الى البحرين فامتلكها ، فارسل اليهم عبد الملك حينئذ كتيفاً لقتالهم فانهزم الخوارج وقتل زعيمهم وتفرقوا في كل ناحية

ولما ولي الحجاج العراق بعث المهلب لمطاردة الخوارج في فارس فخاربهم في عدة معارك كانت سجالات بينهما ، ولبت الحجاج طول ولايته يبعث البعث الى قتال الخوارج الذين لم تقطع فوراتهم لحظة عن فارس والعراق ، وكانت اخطر حركاتهم في ذلك الحين خروج زعيمين منهما صالح بن مسرح ، وشيب بن يزيد ، خرجا بالموصل واستوليا على كثير من نواحيها وهزما عدة حملات جردها الحجاج عليهما فقتل ابن مسرح في احداها ، وسار شيب الى اذربيجان ونحصر بالخيال حيناً ، ثم عاد الى الجنوب فسارت اليه جنود الحجاج بعثة بعد أخرى وهو يهزمها تباعاً حتى اضطر الحجاج أن يسير اليه بنفسه في جنود الشام واقتل الفريقان في الانبار فهزم الخوارج وارتدوا الى كرمان وغرق أميرهم شيب وهم يعبرون أحد الأنهر فدب الخلاف الى صفوفهم وتفرقوا في مختلف الأنحاء

وكان شيب بن يزيد من أعظم قواد الخوارج وأوفرهم اقداً وأجراً وأشدهم

فروسية ونجدة ، وكان يدعو الى دعوته أولاً بالحسنى ويمتنع في كثير من الاحيان عن مطاردة خصومه عقب الهزيمة ، ويتعفف عن دماءهم وهو الذي قال فيه الشاعر :

ان صاح يوماً حسبت الصخر منحدرأ . والريح عاصفة والموج يلتطم

٦ - وكانت هذه آخر حركة ثورية كبيرة قام بها الخوارج في القرن الاول . ثم ركبت ربحهم حتى سقطت الدولة الاموية وقامت دولة بني العباس ، فقاموا في عهد هذه الدولة بعدة ثورات صغيرة متقطعة ، أهمها خروجهم في عمان في زمن المنصور بقيادة أميرهم شيبان بن عبد العزيز وقد وجه المنصور اليهم جيشاً هزمهم وفرقهم . ثم خروجهم في منتصف القرن الثالث الهجري في ولاية الموصل بقيادة مساور بن عبد الله وكان زعيماً شديداً البأس كثير الاطماع اجتمع اليه جمع كثيف من الاكراد والاعراب فرفع لواء الثورة وعاث في ولاية الموصل فساداً ثم دخل مدينة الموصل سنة ٢٥٥ هـ واستولى على كثير من أنحاء العراق واشتدت شوكته واستفحل امره ، ثم زحف على مدينة بغداد ذاتها فسير اليه الخليفة العباسي المعتمد جيشاً ضخماً ونشبت بين الفريقين عدة معارك هائلة ارتد على أثرها مساور نحو الشمال ، بيد انه ظل قابضاً على اعمال الموصل حتى اغتاله احد خصومه في سنة ٢٥٨ هـ فتفرق الخوارج وخذت ثورتهم ، ولم يظهروا بعد ذلك الا في سنة ٢٧٠ هـ حيث قاموا بعدة مناوشات محلية في ولاية الموصل وطاردهم حكامها فشردهم ومزقوهم شراً ممزق

ولا يذكر التاريخ الاسلامي بعد ذلك أية حركة ثورية خطيرة قام بها الخوارج في المشرق . بيد أن الدعوة الخارجية انتشرت في قبائل البربر بالمغرب في أوائل القرن الثاني وفشت فيها دعوة الاباضية والصفورية ، وقامت منهم دولة صغيرة في تاهرت وخرج زعيم منهم علي العبيدين أمراء القيروان وكانت بينهما حروب ثم اضمحلت جماعاتهم في المغرب أيضاً . غير أن الدعوة الخارجية لم تنقطع من جميع الاقطار الاسلامية وأن اتخذت من بعد ذلك صبغة كلامية لا نجد من القوة أو العنف ما تستند اليه ، ولا يعتقها مجتمع سياسي منظم

مذهب الخوارج

٧ - مذهب الخوارج سياسي في الاصل نشأ كما رأينا من الخلاف على مسألة الامامة والخلافة غير أنه لما كانت السلطان الزمنية والروحية ممزجتين في الاسلام وهما معاً عنصرا الامامة فان لمذهب الخوارج وجهته الدينية ايضاً

وخلاصة هذا المذهب قبل أن يفترق الخوارج الى أزارقة وغيرهم هو أن الإمامة قد تكون في غير قریش ، ويجب ألا ينظر في اختيار الإمام إلا لتوافر الكفاية والعدل واجتناب الجور ، فكل من آنس فيه المسلمون هذه الخلال فلمهم أن يولوه الإمامة ، ومن خرج عليه وجب اعتباره عاصياً ووجب قتاله . وإن غير الإمام السيرة وعدل عن الحق وجب عزله أو قتله ، كما أنه يجوز أن يكون الإمام عبداً أو حراً ، قرشياً أو غيره . بل يجوز ألا يكون في العالم امام أصلاً إذا لم يدع الأمر الى اختياره . وقد خطأ الخوارج علماً في التحكيم كما رأينا وقالوا : لا حكم الا لله ، ولعنوا علماً لأنه ترك حكم الله وحكم الرجال ، ولأنه « قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين وما اغتتم أموالهم ولا سبي ذراريهم ونساءهم » ولعنوا عثمان للاحداث التي أخذوها عليه وأشدّها أنه أتلف نسخ القرآن المختلفة . ولما انقسم الخوارج كما قدمنا توسعت الفرق المختلفة في تفسير المذهب فرأى نافع بن الأزرق مؤسس فرقة الأزارقة البراءة من سائر المسلمين وتكفيرهم وتخليدهم في النار ، وقتل أطفال المخالفين والنساء ، واسقاط الرجم عن الزاني ، واسقاط حق القذف عمن قذف المحصنين من الرجال مع اثباته على قاذف المحصنات من النساء ، وتكفير من يرتكب إحدى الكبائر . وقال النجديّة : ليس على الناس أن يتخذوا اماماً إنما عليهم أن يتعاطوا الحق بينهم ، ومن زنى وشرب وسرق غير مصر فهو غير مشرك . وقال غيرهم من الفرق الخارجة بأحكام وقياسات أخرى وهي كلامية محضة لا تدخل في موضوعنا

هذه هي أهم مبادئ الخوارج السياسية والدينية بل الاجتماعية . وأنا لندهش في الواقع لطرافة الناحية السياسية لهذه المبادئ وعراقبتها في الحرية والديموقراطية ، يبحث الخوارج عن امام له من الخلال ما يستطيع معه أن يدير شؤون المسلمين بانصاف ونزاهة ، ويحولون للمسلمين أن يبحثوا عنه في أية قبيلة أو بيعة ، ولا يقصرون هذا الاختيار على أسرة أو بيت معين مهما سما أصله وحسبه . والخوارج أشد الفرق الإسلامية الثورية معارضة لقيام الاسر والحكم الموروث ، وأشدّها مقاومة للملك الجائر ، وهذا هو عماد النظرية الخارجية وفيه تجتمع كل فرق المذهب . وقد لاقت الشعوب الإسلامية في جميع أدوار تاريخها من بطش الاسر وعسف الحكم الموروث ما يدل على أن الخوارج كانوا في صوغ مذهبهم السياسي ابعد الفرق الإسلامية نظراً في ادراك مطامع الاسر والمتغلبين من أصحاب العهد الموروث ، وأحسنها تقديراً للنزعات والاهواء البشرية ، وأوفرها احتراماً لرغبات الافراد

وحرّياتهم . بل انا لندعش حقاً متى تأملنا رأي الخوارج النجدية في قولهم بان ليس على الناس أن يتخذوا اماماً انما عليهم أن يتعاطوا الحق بينهم ، أليست هذه هي احدث النظريات الثورية المتطرفة في شكل الحكومة السياسية ؟ انها « اللاحكومية » (الفوضوية) بذاتها ، التي يرفعها دعاة المعاصرون فوق النظم البرلمانية والاشتراكية والشيوعية ، أفليس من الطرافة الحقة والابتكار المدهش أن يدعو الخوارج المسلمون منذ ثلاثة عشر قرناً الى نظام هو أحدث ما يدعى اليه اليوم من أساليب تنظيم المجتمع ؟

كان الخوارج دعاة هذه المثل السياسية ، يخلصون لها أشد الاخلاص ، ويذهبون في تأييدها الى أقصى حدود التطرف ، ويشهرون الحرب على كل حكومة لا تحقق مثلهم العليا في الحكم والزهد والورع ، وقلمما يذكر التاريخ حركة ثورية استطال عنفها وجهادها في سبيل دعوتها كما استطالت حركة الخوارج ، فقد لبث الخوارج يحاربون الحكومات الاسلامية القائمة زهاء قرنين ، وكانوا في كل حروبهم مثل الاقدام والجرأة والمخاطرة ، ولسنا نبالي اذا قلنا ان الخوارج أشجع جند عرفهم تاريخ الاسلام ، وأشدهم جلاً وبسالة ، وهذا ما شهد به أعداء الخوارج أنفسهم في مواطن كثيرة . من ذلك قول أحدهم لعلي بن أبي طالب حينما جرد عليهم حملته الاولى : « انما كان ينبغي أن يكون مع من يطلب هؤلاء القوم (الخوارج) مكان كل رجل منهم عشرة » ، وقول أحدهم للمهلب « ما رأيت قط اصبر ولا أياأس من القوم الذين يقاتلونك . . . رأيت قوماً والله ما يعينك عليهم الا الله » وقد وصفهم المهلب نفسه بأنهم « سباع العرب » وقال في بعض أحاديثه عنهم « كيف نقاتل قوماً هذا طعنهم » وكان الخوارج دائماً على قلة جيوشهم وأهبتهم رعب جيوش العراق والشام ، وكثيراً ما لاقوا أعداء يفوقونهم اضعافاً في العدد . مثال ذلك ما يروى من أن شيب ابن يزيد لاقى في ثلاثين رجلاً فقط حبيب بن عبد الرحمن احد قواد الحجاج وهو في ثلاثة آلاف فقال أحد أصحاب حبيب : « لو كان هؤلاء الخوارج يزيدون على مائة لاهلكونا » بيد ان الخوارج قد دفعوا غلوهم الى حدود ممقوتة ، وارتكبوا باسم مبادئهم شنيع السفك مثل قتل النساء والاطفال والشيوخ وقتل المسلمين والعزل من خصومهم واستباحة أموالهم ، وهذه وصيات تشوه حركتهم ، وتثير ظلاماً فوق مثلهم العليا ، وان كان التطرف الممقوت والسفك الاثيم دائماً من ظواهر الحركات الثورية الكبرى

ونلاحظ أخيراً ما كان لثورة الخوارج من أثر عميق في مصائر الإسلام والدولة الإسلامية ، فقد استغرقت حروب الخوارج نشاط علي بن أبي طالب ، ومكنت منافسه معاوية بن أبي سفيان من الامتاع والتأهب ، ثم كان قتل ابن ملجم لعلي فصل الخطاب في تنافس الزعيمين وفي قيام الدولة الأموية ، وكان من جهة أخرى عاملاً حاسماً في انفجار ثورة الشيعة

الفصل الثاني

ثورة الشيعة

(١) أصل الشيعة . معنى الاصطلاح . مذهب الشيعة في الامامة . فرقهم (٢) اختلافهم في مساق الخلافة . الزيدية والاسماعيلية والاثني عشرية (٣) تنازل الحسن ومقتل الحسين . خروج المختار بن أبي عبيد . خروج بعض أئمة الشيعة ومقتلهم (٤) ظهور دعوة بني العباس . غدر بني العباس بالشيعة

١ - لما توفي النبي العربي ثار الخلاف واختلفت كلمة القبائل على مسألة الحكم ، وهدأت ثورة هذا الخلاف حيناً في عهد أبي بكر أول الخلفاء وخلفه عمر ، ولكنها تفأقمت في عهد عثمان ثالث الخلفاء وانتهت بمقتله وخلافة علي بن أبي طالب . وكان لعلي حزب ينادي بخلافته عقب النبي مباشرة ويرى أنه هو وبنوه أحق الناس بها ، بيد أنه لم يكن في المبدأ من القوة بحيث يحول دون خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ، فلما اشتد ساعده تحققت غايته بتولية علي ثم نهض معاوية يسعى الى نيل الخلافة مستتراً بالنار لعثمان فاجتمع حول علي كل انصار الشورى ليقاوموا أطماع معاوية وأخذوا يتلمسون من النصوص والوثائق الدينية ما يؤيدون به حق علي وأسرته

هذا الحزب الذي التف حول علي منذ وفاة النبي وساعده على نيل الخلافة وأيده ضد معاوية الى النهاية ثم التف حول بنيه من بعد مقتله هو حزب الشيعة أي الاتباع والصحاب . والشيعة في عرف علماء الكلام هم اتباع علي وبنيه . ويقال لهم شيعة اهل البيت . ومن الخطأ ان يقال ان الشيعة انما ظهرت لأول مرة عند انشقاق الخوارج وانهم سموا كذلك لبقائهم الى جانب علي ، فشيعة علي ظهروا منذ وفاة النبي كما قدمنا ولبثوا يرقبون الحوادث والفرص حتى ولي الخلافة علي ، ومذهبهم جميعاً هو ان الامامة ليست من المصالح العامة التي تفوض الى نظر الامة ويختار القام بها بتعيينهم بل هي ركن من أركان الدين لا يجوز لنبي اغفاله ولا تفويضه الى الامة بل يجب عليه تعيين الامام لهم ، وأن يكون هذا الامام معصوماً من الكبائر والصغائر ، وان علياً هو الذي عينه النبي للخلافة من بعده . ويؤيدون ذلك بآيات من القرآن يفسرونها طبقاً لرأيهم وأحاديث ينسبونها الى النبي ، ليس من موضوعنا أن تعرض لبحثها ومناقشتها

والشيعة فرق عدة أهمها الامامية وهم الذين يتبرأون من أبي بكر وعمر ويطعنون في امامتهما لانهما لم يقدموا علياً ويبايعاه طبقاً للنصوص التي يقولون بها. ويسمون كذلك لقولهم باشرائط معرفة الامام وتعيينه في الايمان. والزيدية وهم لا يتبرأون من أبي بكر وعمر ولا يطعنون في حقهما مع قولهم بأن علياً أفضل منهما لكنهم يعيزون امامة المفضل مع وجود الافضل وهم أتباع زيد بن علي بن الحسين

ومن الشيعة طوائف يسبون الغلاة قالوا بالوهمية هؤلاء الأئمة إما على أنهم بشر انصفوا بصفات الالوهية أو أن الاله حل في ذواتهم البشرية وهو قول بالحلول يوافق مذهب النصاري. ومنهم من قال ان كمال الامام لا يكون لغيره فاذا مات انتقلت روحه الى امام آخر ليكون فيه ذلك الكمال وهو قول بالتناسخ. ومن هؤلاء من يقف عند واحد من الأئمة لا يتجاوزه الى غيره ويقول انه حي لم يميت الا أنه غائب عن الاعين. ومن ذلك قول الاثنى عشرية - نسبة الى الثاني عشر من أئمة الامامية وهو محمد بن الحسن العسكري - أنه لم يميت بل احتفى وانه يخرج آخر الزمان فيملا الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ويلقبونه المهدي المنتظر الى غير ذلك من النظريات والمزاعم

٢ - وقد اختلف الشيعة فيما بينهم في مساق الخلافة بعد علي فمنهم من ساقها في ولد فاطمة (بنت النبي وزوج علي) بالنص عليهم واحداً بعد واحد وهم الامامية. ومنهم من ساقها في ولد فاطمة بالاختيار واشتروطوا أن يكون الامام منهم علماً زاهداً جواداً شجاعاً وأن يخرج داعياً الى امامته وهم الزيدية، ومنهم من ساقها بعد علي وابنيه الحسن والحسين (ابنا فاطمة) الى أخيهما محمد بن الحنفية وهم الكيسانية نسبة الى كيسان مولاة

فأما الكيسانية فساقوا الامامة من بعد محمد بن الحنفية الى ابنه هاشم ثم افترقوا فساقها بعضهم الى اخيه علي ثم الى ابنه الحسن وزعم آخرون ان أبا هاشم أوصى بالامامة الى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وأوصى محمد بها الى ابنه ابراهيم المعروف بالامام، وأوصى ابراهيم الى أخيه عبد الله الملقب بالسفاح، وهو اول خلفاء بني العباس، وأوصى السفاح الى أخيه أبي جعفر المنصور ثم انتقلت في ولده بالنص والعهد. وأما الزيدية فساقوا الامامة على مذهبهم فيها باعتبار انها تقوم باختيار الامة لا بالنص فقالوا بامامة علي فابنه الحسن فأخيه الحسين فابنه علي زين العابدين فابنه زيد وهو امام المذهب. وقد خرج زيد بالكوفة داعياً الى الامامة فقتل فقال الزيدية بامامة ابنه يحيى، وسار يحيى الى خراسان داعياً فقتل ايضاً بعد ان أوصى بالامامة

الى محمد بن عبد الله من ولد الحسن وهو المعروف بالنفس الزكية الذي خرج بالحجاز وتلقب بالمهدي وحاربه عساكر المنصور فقتل ، فقال بعض الزيدية ان الامام من بعده هو أخوه ادريس الذي فر الى المغرب الاقصى واختط مدينة فاس وأسس دولة الادارة وخالفهم آخرون منهم وتشعبت آراؤهم في ذلك . وأما الامامية فقالوا بامامة علي ثم ابنه الحسن بالوصية ثم اخيه الحسين فابنه زين العابدين فابنه محمد الباقر فابنه جعفر الصادق ومن هنا اختلفوا الى فرقتين قالت الاولى بامامة ابنه اسماعيل وهم الاسماعيليه ولقبوه بالامام ، وقالت الاخرى بامامة ابنه موسى الكاظم فابنه علي الرضا فابنه ابو جعفر محمد فابنه علي فابنه محمد الحسن العسكري فابنه محمد المهدي وهو الثاني عشر من هؤلاء الائمة . ولذا سميت هذه الفرقة بالاثني عشرية . والى هنا تقف بأمتها وتقول ان خاتمهم وهو محمد المهدي لم يمت وانما اختفى وتغيب حين اعتقل مع أمه ولا يزال مختفياً الى آخر الزمان ثم يخرج فيسلا الارض عدلاً كما ملئت جوراً ويسمونه بالمهدي المنتظر

وأما الاسماعيليه فقالوا بامامة اسماعيل الامام . ثم ابنه محمد المكنوم وهو أول الائمة المستورين لان الامام عندهم قد لا يكون ذا شوكة فيستتر ، فاذا كانت له شوكة ظهر واظهر دعوته ، ثم من بعده الى ابنه جعفر الصادق ثم ابنه محمد الحبيب وهو آخر المستورين ثم ابنه عبد الله المهدي الذي فر الى افريقية وقام بدعوته هناك وملك القيروان وأسس دولة العبيديين ، وأسس بنوه دولة الفاطميين في مصر ، ويسمى هؤلاء الاسماعيليه أيضاً بالباطنية نسبة الى قولهم بالامام المستور أي الباطن وقد عينا بذكر ما تقدم من فرق الشيعة ، وترتيب أئمتهم ، وأنسابهم تمهيداً لما سنذكره من تاريخ هذه الفرق ، بيد اننا لن نعني كما قدمنا بهذا التاريخ الا من حيث ان الفرق ثورية أو سرية

٣ - لما قتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بايع الشيعة ابنه الحسن بوصية منه ، غير ان بيعة الحسن لم تكن الا صورة وكان مقتل علي نذيراً للأحلال في صفوف العراقيين فانقض الجند عن الحسن واضطر ان ينزل عن الخلافة لمعاوية كما رأينا فنقم الشيعة منه ذلك والتفوا حول أخيه الحسين الذي لحق بمكة أولاً ثم سار الى الكوفة بتحريض أشرافها في نفر قليل من شيعته فلاقاه جند ابن زياد عامل الامويين في كربلاء واقتل الفريقان فقتل الحسين ومثل بجثته وحمل رأسه الى يزيد بن معاوية وكان ذلك في المحرم سنة ٦١ هـ

ومن ذلك الحين انفى الطامعون من الزعماء في ثورة الشيعة سلاحاً يشهرونه وقت الحاجة ، وفي نظرياتهم وتعاليمهم وسيلة لاستهواء الناقمين والبسطاء ، وكان أول من اشتهر بالدعوة الشيعية المختار بن ابي عبيد الثقفي كان خارجياً ثم صار شيعياً ، وقد خرج بالكوفة سنة ٦٦ هـ مطالباً بثار الحسين وقتال الظلمة واستولى عليها وطارد قتلة الحسين وقتلهم ونادى بإمامة محمد بن الحنفية وحرف تعاليم الشيعة الى ما يوافق خططه ومشاريعه وزعم انه يعرف اخفى من العلوم والاسرار وكان يحصل في حروبه كرسيّاً قديماً غشاه بالديباج وزينه بأنواع الزينة وزعم انه من ذخائر علي ابن أبي طالب وانه كالتابوت عند بني اسرائيل . وقويت شوكته بالكوفة حتى سار اليه مصعب بن الزبير سنة ٦٧ هـ فقتله ومزق جموعه

ثم تشعبت مبادئ الشيعة ، واختلفت طوائفهم فيمن هو أحق بالامر من أهل البيت وبايعت كل طائفة لصاحبها سرّاً ، واجتاح سلطان بني أمية كل الاقطار الاسلامية فلاذ الشيعة بالاختفاء ولبنوا يرقبون الفرص للخروج وتأيد دعوتهم بالسيف . فلما أن اعتور الوهن سلطان بني أمية وبدت عليه علامات الانحلال وضعف أمر الولاية في الاقطار البعيدة عن الحكومة المركزية عاد الشيعة الى التحرك فخرج زيد بن علي بن الحسين في الكوفة سنة ١٢١ هـ وهو امام فرقة الزيدية كما قدمنا والتف حوله الشيعة فقاتله والى العراق وقتله وفر ابنه يحيى الى خراسان ورفع بها لواء الثورة سنة ١٢٥ هـ فبعث اليه حاكم الولاية بالجند فقتلوه أيضاً وانقرض شأن الزيدية . وكانت شيعة محمد بن الحنفية اكثر شيعة اهل البيت وكانوا يرون كما قدمنا ان الامامة من بعده لابنه أبي هشام عبد الله وان أبا هشام أوصى بها الى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وكان من أكبر علماء الشيعة بالعراق وخراسان ، ثم من بعده الى ابنه ابراهيم الملقب بالامام الذي ظهر في خراسان فقبض عليه مروان الثاني وسجنه حتى مات

٤ - في ذلك الحين أي حوالي سنة ١٢٩ هـ ظهرت دعوة بني العباس بخراسان وبنو العباس هم أبناء عمومة النبي وقد لبثوا زمناً يتطلعون الى الملك ولما لم تكن لهم عصبية كافية اندمجوا في الحركة الشيعية ووجدوا في التذرع بها وسيلة ناجعة لاستهواء الجموع ، وكانت أول بادرة خطيرة لحركتهم قيام أبي مسلم الخراساني في خراسان بالدعوة الى ابراهيم الامام . فلما توفي ابراهيم زعم بنو العباس انه أوصى بالامامة الى أخيه عبد الله أبي العباس المعروف بالسفاح . واشتدت دعوة أبي مسلم في خراسان وقوي أمره وحارب عمال بني أمية في تلك الأنحاء واستولى عليها ، وفي نفس الوقت سار أبو العباس

السفاح الى الكوفة داعياً الى نفسه بعهد من أخيه ابراهيم ، ودخلها وبايعه انصاره بالخلافة ، ثم انبت بنو العباس في نواحي العراق وزعوها من أيدي عمال بني أمية ، ثم كانت واقعة الزاب المشهورة التي هزمت فيها جيوش السفاح مروان الثاني آخر خلفاء بني أمية في سنة ١٣٢ هـ وكانت قبراً لملك بني أمية في المشرق وهكذا استعمل بنو العباس حركة الشيعة في شق طريقهم الى الملك ، وقامت الدولة العباسية أزهر دول الاسلام في المشرق

والواقع أن الشيعة لم تكن في نظر بني العباس الا وسيلة ، فلما ظفروا بغايتهم قلبوا للشيعة ظهر المجن ، وأخذوا في مطاردتهم فزج المنصور الى السجن جماعة من أسرة الحسن بن علي ، وفي سنة ١٤٥ هـ خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين المعروف بالنفس الزكية في المدينة واستولى عليها فأرسل اليه المنصور جنده فقتلوه وشتوا انصاره ، وخرج ابراهيم أخو النفس الزكية في البصرة واستولى عليها ، ودعا بالبيعة الى أخيه قبل أن يصل اليه خبر مقتله وبث انصاره في تلك النواحي ، فلما قتل أخوه بالمدينة سار الى الكوفة وسير المنصور جيوشه اليه فهزم اصحابه وقتل . وفي عهد موسى الهادي ظهر في المدينة الحسين بن علي من ولد علي بن أبي طالب ودعا بالامامة لنفسه ، فقاتله جند الهادي وقتلوه ايضاً

وفي عهد الرشيد خرج يحيى بن عبد الله من ولد علي كذلك فسير اليه الرشيد جيشاً كثيفاً ثم قبض عليه وسجنه حتى مات

ونحن نقف عند هذا الحد من ذكر أخبار الخارجين من آل البيت أبناء علي بن أبي طالب على دولة بني العباس ، وإن استمر دعائهم من بعد ذلك في الخروج من وقت لآخر ومقاتلة عمال بني العباس بالنواحي . وقد أوردنا هذه الامثلة لنرى كيف أن بني العباس لم يروا في الدعوة الشيعية الا سلباً لارتقاء الملك . كذلك سوف نوضح كيف أسفر نضال الشيعة الخفي لقلب الدولة العباسية عن انفجار ثوري هائل هز تعاليم الاسلام الى الاعماق ، ودفع الى قبضة الشيعة بمعظم أقطار الدولة العباسية

الفصل الثالث

الحركات الهدامة التي قامت لهدم الاسلام

(١) الاسماعيلية مهد الحركات الهدامة . ميمون بن ديسان وولده عبد الله . برنامج ابن ميمون وجمعيته السرية (٢) انتشار دعوة ابن ميمون . دعوة ذكرويه في العراق . بدء القرامطة . كتابهم ومبادئهم (٣) ثورة القرامطة . الحرب بينهم وبين عامل السكوفة . زحفهم على دمشق وحصارهم اياها . غزوهم لمدينة الشام . هزيمتهم وانصرافهم الى اليمن . عودتهم الى الحرب . مقتل ذكرويه (٤) دولة القرامطة في البحرين . زحف الجنابي على البصرة . ابنه ابو طاهر . غزوه البصرة وبنائه الاحساء . غزوه مكة واقتحامه البيت الحرام ونقله الحجر الاسود . اشتداد بأس القرامطة (٥) خلاف القرامطة مع المعز لدين الله الفاطمي . استيلائهم على دمشق . غزوهم مصر وهزيمتهم على يد جوهر . عودتهم الى مصر وهزيمتهم ثانية . الحرب الاهلية بين القرامطة . انحلالهم وذهاب دولتهم (٦) تحليل وتأملات

١ - كانت مبادئ الغلاة من الشيعة مهدياً لدعوة ثورية تمنح في الهدم وترمي الى سحق تعاليم الاسلام كلها سعياً الى تخطيم السلطة السياسية التي تقوم على هذه التعاليم . وكان الاسماعيلية أنشط طوائف الشيعة في بث مبادئ الخروج والهدم ، واليهم ينتمي اعظم الدعاة الثوريين والمتأمرين . وقد كانت الحركة الشيعية حتى منتصف القرن الثالث تميل الى الاصطباغ بالصبغة الدينية ، ولا تقصد بالهدم من المبادئ الا ما ترى انه يخالف مبادئها ويتعارض مع غاياتها السياسية ، غير انها تحولت بعد ذلك الى أداة رائعة لهدم جميع المعتقدات الدينية والنظم السياسية وسحق جميع المبادئ الاجتماعية والاخلاقية اسلامية او غيرها

وكان أول من أشهر معول الهدم على هذا النحو الشامل رجل لعنه أعظم هدام وأذكي متأمر عرفه التاريخ . ذلك الرجل هو عبد الله بن ميمون القداح ، وهو ابن فقيه ملحد من جنوب فارس هو ميمون بن ديسان . وكان ابن ديسان امام جماعة من الملاحدة يزيفون الاحاديث وينشرون في العامة مبادئ الانكار والهدم والاباحة ، ويظهرون في نفس الوقت تشيعاً لآل البيت حججاً لحقيقة مقاصدهم ، وتعلم دعائهم الشعوذة والكيمياء ، وتفرقوا في الانحاء يدعون كل طائفة بما يناسب ميولها وعقليتها ، ويظهرون للعامة في ثوب الورع والزهد . ونشأ ابنه عبد الله منذ حداثة في جو

المبادئ، الحرة، والتعاليم الفلسفية والمادية، وتفقه في جميع الأديان، وكان شديد الالحاد والانكار، غير أنه ادعى اعتناق مبادئ الشيعة الإسماعيلية وزعم أنه وقف على الأسرار الروحية والعلوم الخفية التي يقول الإسماعيلية أن إمامهم إسماعيل عليها لآله محمد المكنون. فذاعت دعوته في جنوب فارس حوالي سنة ٢٦٠ هـ (أواخر القرن التاسع من الميلاد) والتف حوله الإسماعيلية ولم يلبث أن قبض على ناصية الحركة الشيعية. ولم تكن دعوته إلى إمامة إسماعيل وبنيه إلا قناعاً يستتر وراءه، وقد كانت غايته الحقيقية بث التعاليم المادية فذشط إلى إدماجها في مذهب خاص، ونظم طائفة الباطنية^(١) إلى جمعية سرية هائلة ذات مراتب سبع. وقد وصف المؤرخ دوزي برنامج المدهش في هذه النبذة البليغة :

« أن يدج المغلوبين والغالبين في هيئة واحدة، وأن يجمع في حظيرة جمعية سرية هائلة ذات مراتب عدة بين أحرار المفكرين - الذين لا يرون في الدين سوى وسيلة لاذلال الشعب، وبين الغلاة من جميع الطوائف وأن يجعل من المؤمنين آلات صماء تمد المتشككين بالقوة، وأن يحمل الظافرين على قلب الدول التي شادوها، وأن ينشئ حزناً كبيراً مؤتلفاً منظماً يرفع في الوقت المناسب - أن لم يكن هو - فعلى الأقل أبناءه إلى العرش... هكذا كانت غاية عبد الله بن ميمون، وهي فكرة عجيبة نفذها بحذق مدهش وبراعة نادرة، وخبرة عميقة بأسرار القلب البشري. وكانت الوسائل التي اختطها غاية في الخبث والدهاء.

« ولم يبحث ابن ميمون عن أنصاره الحقيقيين بين الشيعة الخالص ولكن بين الثوية^(٢) والوثنيين وطلاب الفلسفة اليونانية، ولم يكن يعتمد إلا على الطائفة الأخيرة، واليههم وحدهم استطاع أن يفضي بسرهم وخفي عقيدته وهي أن الأئمة والأديان والأخلاق ليست الا ضلالاً وسخرية، وأن باقي البشر - أو الحر كما يسميهم - ليسوا أهلاً لفهم هذه التعاليم. غير أنه تحقيقاً لغايته لم يكن يعمق مؤازرتهم بل كان يلتصقها ويحذر في نفس الوقت من أن يضم الانفس المخلصة الخائفة إلا إلى المرتبة الأولى من طائفته. وكان دعائه الذين علموا أن أول ما يجب عليهم هو إخفاء حقيقة

(١) قدمنا أن الإسماعيلية يسمون أيضاً بالباطنية لقولهم بالإمام المستور والباطن وقيل سموا كذلك لقولهم بباطن القرآن دون ظاهره اذ يزعمون أن للقرآن ظاهراً هو الألفاظ وباطناً هو المعاني الخفية، وقيل لأنهم كانوا يلقون تعاليمهم سرأويكتهمونها عن العامة (٢) أصحاب مذهب فلسفي ديني يقول بأن كل كائن مركب من عنصرين هما الخير والشر أو النور والظلام

عواطفهم واعتناق آراء سامعيهم يظهرون في أبواب مختلفة ومحادثون كل طبقة باللغة التي تروق لها، يغمون العامة والبسطاء بأعمال الشعوذة فيعتبرونها معجزات، أو يثيرون طلعتهم بالالغاز والاحاديث الخفية، ويتحجبون أمام المحاصيين بقناع الزهد والفضيلة، ويتظاهرون أمام الصوفية بأنهم صوفية ويكشفون عما خفي من معاني الغيب أو يشرحون الاساطير ومجازاتها...

« أسفرت هذه الوسائل عن نتيجة مدهشة هي أن جمهوراً عظيماً من رجال يعتقدون مذاهب مختلفة كانوا يعملون معاً لتحقيق غاية لا يعلمها سوى القليل منهم»^(١)

وسنرى أن هذا البرنامج الفذ الذي ابتدعه ذكاء ابن ميمون كان مستقى لكثير من الجمعيات السرية الحديثة في صوغ مبادئها وتنظيم صفوفها، وإن فكرته الجوهرية وهي حشد جمهور كبير من الانصار ودفعهم الى العمل لغاية يجهلون كانت نواة لبرامج هذه الجمعيات وجهودها سواء كانت ترمي الى غايات دينية أو اجتماعية أو سياسية، بل سوف نرى أنه نفس البرنامج الذي اتبعه فيسهاوبت في تأليف «الشعلة البافارية» في القرن الثامن عشر

٢ - وماكاد ابن ميمون ينظم جمعيته السرية الهائلة في جنوب فارس حتى بعث بدعائه الى جميع الاقطار يثون مبادئ التقويض والهدم باسم الدعوة الاسماعيلية والتبشير بالمهدي المنتظر. وكان داعيته في العراق رجلاً يسمى الفرج بن عثمان القاشاني ويعرف بذكرويه. فلبث حيناً يبيت الدعوة سرّاً. ثم نهض في سنة ٢٢٨ هـ رجل من صحبه داهية في الاستهواء والدس بمكان يعرف بالنهرين على مقربة من الكوفة يبيت الدعوة جهراً، وكان يدعو الى امام من آل البيت هو المهدي الذي يملأ الارض بعدله، ويمعن في الزهد والتقشف والعبادة، ويزعم أن الصلاة المفروضة على الناس خمسون في اليوم فاستجاب له جمع كثير ولقب قرمط^(٢) وكان يأخذ من كل واحد من أتباعه ديناراً للامام، وجعل عليهم اثني عشر نقيماً مما هم الحواريين. ولما علم عامل الناحية بأمره قبض عليه وحبسه فقر من سجنه في ظلام الليل بمساعدة جارية للحاكم واختفى

(١) Reinhart Dozy-Essai sur l'Histoire de l'Islamisme P. 260-62

(٢) ان رواية ابن خلدون عن شخص قرمط مضطربة جداً، وفي مبدأ كلامه عن القرامطة يقرر بوضوح ان قرمطاً والفرج بن عثمان أو ذكرويه شخصين مختلفين (ج ٤ ص ٨٥) بيد أنه بعد ذلك يقلل (ص ٨٦) في روايته عن محاربة عامل الكوفة للقرامطة يشتر بأن ذكرويه هو قرمط. غير أن ابن الاثير واضح في التفريق بين الرجلين (ج ٧ ص ١٤٧)

حيناً فازداد أنصاره فتنة به وقالوا رفع الى السماء . ثم ظهر في ناحية أخرى من الكوفة وعكف على بث دعوته . ثم فر الى الشام ولم يقف له على خبر بعد ذلك . وفشا هذا المذهب الجديد في أنحاء الكوفة ، وأطلق على أنصاره قرامطة نسبة الى لقب داعيتهم قرمط ، وأذاع بعض هؤلاء القرامطة كتاباً نسبوه الى الفرّج ابن عثمان داعية المهدي ثبت بعض ما جاء فيه متضمناً لمزاعمهم ومبادئهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، يقول الفرّج بن عثمان داعية المسيح ، وهو عيسى ، وهو السكينة ، وهو المهدي ، وهو احمد بن محمد بن الحنفية ، وهو جبريل ، وذكر أن المسيح تصور له في جسم انسان وقال له انك الداعية وانك الحجة وانك الناقة وانك الدابة وانك زكريا وانك روح القدس ... والقبلة الى بيت المقدس ، والجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيه شيء ، والسورة الحمد لله بكلمته وتعالى باسمه ، المتخذ لاولياته بأوليائه ، قل ان الالهة مواقيت للناس ظاهرها ليعلم عدد الجنين والخصاب والشهور والايام ، وباطنها أوليائي الذين عرفوا عبادي سبيلي ، اتقوني يا أولي الالبساب ، وأنا الذي لا اسأل عما أفعل ، وأنا العليم الحكيم ، وأنا الذي أبلو عبادي وأمتحن خلقي ، فمن صبر على بلائي ومحنتي واختباري أقيته في جنتي وأخلدته في نعمتي ، ومن زل عن أمري ، وكذب رسلي أخلدته مهاناً في عذابي ، وأمتت أحلي وأظهرت أمري على السنة رسلي ، فأنا الذي لا يتكبر عليّ جبار الا وضعته ولا عزيز الا أذلته ... والصوم مشروع يوم المهرجان والنيروز ، والنبيذ حرام ، والحمر حلال ... ولا يؤكل ذو ناب ولا ذو مخلب . ومن خالف وحارب وجب قتله ومن لم يحارب أخذت منه الجزية . »
وقيل ان قرمطاً كان يرى رأي الازارقة من الخوارج . بيد أنه لا ريب في أن مجتمع القرامطة قام على الشيوع والاباحة ، فقد بدأ قرمط يجمع من أنصاره الضريبة العامة بنسب صغيرة ، ثم بنسب كبيرة وانتهى بأن أقنع سوادهم بمزايا الغناء الملكية الفردية ونظم لهم في كل مكان وجدت فيه طائفة منهم مجتمعاً شيعياً . بل ذهب الى أشنع حد في هذا الشيوع فقرر شيوع المرأة وغيره من صنوف الاباحة القسامة على استغلال أخس الشهوات والاهواء البشرية وقد وصف دي صاسي دعوته معتمداً على بعض المراجع العربية فيما يأتي :

« لما فاز قرمط بتنفيذ كل ذلك ووافقه عليه كل صحبه أمر الدعاة أن يجمعوا النساء في ليلة معينة بحيث يمكن للرجال أن يستمتعوا بهن في اختلاط وشيوع . وكان يقول ان ذلك هو الكمال وأقصى درجات الصداقة والاخاء . وأحياناً كان

الزوج يقدم زوجه بنفسه الى رفاقه متى سرهم ذلك^(١) . ولما رأى قرمط انه صار السيد المتسلط على عقولهم ، ووثق من طاعتهم ، بدأ يسير بهم نحو طريق أخرى ، فنشر فيهم مذهب الثنوية ، واعتنقوا كل تعاليمه بسهولة ، ولم يلبث أن نزع منهم كل دين وأحلهم من كل فروض العبادة والتقوى ، وأباح لهم النهب ، وكل ضروب الرذيلة ، وأمرهم أن يتركوا الصلاة والصوم وغيرها ، وعلمهم أن لا فريضة عليهم ، وأن لهم أن ينهبوا أموال خصومهم وأن يسفكوا دماءهم بلا وازع ولا عقاب ، وأن معرفة رب الحقيقة الذي دعاهم اليه يملا لديهم فراغ كل شيء آخر ، وأن هذه المعرفة تبعد عنهم كل خطيئة وكل عقاب^(٢) .

٣ - وسرعان ما تحول القرامطة الى عصابة هائلة من السفاكين والاشقياء تقتل خصومها وتستحل أموالهم وأعراضهم ، وتنشر الدمار والرعب فيما حولها من الأنحاء . فحشد عامل الكوفة الجند لقتالهم ، وتوالت حملاته عليهم ، وجد في مطاردتهم حتى مرقهم ، فهرب ذكرويه الى حي من الأحياء النائية واختفى في القفر في مغار بناء لذلك ، وبعث أولاده للدعوة في قبائل الصحراء فتفرقوا مدعين أنهم من ولد اسماعيل الامام . وكانوا ثلاثة : يحيى وحسين وعلي ، فلم ينجح منهم سوى يحيى حيث بايعه بعض القبائل على أنه يحيى بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل الامام ولقبوه الشيخ ، والتفوا حوله فزحف اليهم سبك مولى المعتضد في العساكر فهزم وقتل . فسار اليهم عامل الكوفة في قوة كبيرة وهزمهم وأسر جماعة منهم ، غير أنهم جمعوا فلولهم ونظموا جموعهم وانضم اليهم كثير من الاشقياء ممن رأوا في الاباحة والسفك فرصة لاشباع شهواتهم . وقصد يحيى بجموعه مدينة دمشق (سنة ٢٩٠ هـ) فخرج لقتاله واليه طفج مولى ابن طولون في عساكر مصر والشام ونشبت بينهما عدة معارك دموية قتل فيها يحيى فاجتمع عسكره حول أخيه حسين الذي تلقب بأمر المؤمنين أبي العباس المهدي . ثم كثر جمعه واشتد بأسه بمن انضم اليه من أهل البادية فعاد الى تهديد دمشق وحاصرها ولم ينصرف عنها الا مقابل فدية كبيرة ، ثم عاث في مدن الشام فغزا حمص وحماه والمرة وغيرها واستباحها . وسار اليه الخليفة المكتفي بنفسه في جيش كبير فهزمه وارتد في فلوله الى حلب . وارتاع أمراء الشام ومصر لهذا الخطر الجديد ، فحشدوا

(١) اشار ابن الأثير الى واقعة من هذا النوع حيث نسب الى أبي سعيد الجنابي زعيم القرامطة في البحرين انه قدم زوجته الى يحيى بن ذكرويه ليستمتع بها (ج ٧ ص ١٦٣)
(٢) Silvestre de Sacy : Exposé de la Religion des Druses

الجند ، وسار بدر مولى ابن طولون لقتال القرامطة ، فلقىهم وهزمهم مراراً وأثنى عليهم ، ثم ألقىهم جند المكتفي ثانية فهزموهم كذلك وأمعنوا فيهم قتلاً وأسراً ، وقبضوا على المهدي وعلى بعض أصحابه وبشؤهم إلى المكتفي فأمر بصلبهم وتقطيع أجسادهم . أما علي بن ذكرويه ففر بعد مقتل أخيه يحيى إلى اليمن واجتمع إليه القرامطة هناك ، وتغلب على كثير من مدنه ولبت يبعث بجنده فيها حتى توفي هنالك .

وابتذ ذكرويه مختفياً في مغاره نحو عشرين سنة ثم اجتمع إليه القرامطة فاستخلف عليهم أحمد بن القاسم وأمرهم بطاعته ، ولبت يدير شؤونهم ، وهو محتجب يدعونه السيد ولا يرونه ، والقاسم ينفذ أوامره وخططه ويغير على أحياء العرب قتلاً ونهباً ، ويبطش بقوافل الحجاج والتجار ، وينهب أموالهم ويعيث في مدن الشام ، حتى سير المكتفي إليه جنداً كشيئاً بقيادة ابن صوار تكين فأدركوا القرامطة بظاهر حمص ونشبت بينهما موقعة هائلة هزم فيها القرامطة وجرح ذكرويه وأسر وأرسل إلى بغداد حيث توفي من جراحه بعد بضعة أيام (سنة ٢٩٤ هـ) .

٤ - وفي ذلك الحين اجتاحت دعوة القرامطة أنحاء البحرين والتف القرامطة حول زعيم لهم يسمى الحسن بن بهرام ويعرف بأبي سعيد الجنابي وكان أبو سعيد داهية صارم العزم فاجتمع إليه جم غفير من القرامطة والاعراب وسار سنة ٢٨٣ يطلب البصرة ، وكان حاكمها أحمد الواثق قد أحاطها بالأسوار المنيعة فبعث قوة للقاء أبي سعد بظاهر البصرة فهزمها ومزقها شراً ممزق واحتوى على معسكرها وأحرق الأسرى . وقام بالامر بعده ابنه سليمان ويعرف بأبي الطاهر فقوي أمره وبايعته قبائل كثيرة ، واشتبك مع جيوش الخليفة المقتدر وهزمها مراراً . ثم غزا البصرة سنة سبع وثلاثمائة فاستباحها وخربها . وتجرد بعد ذلك للبطش بقوافل الحجاج والتجار فأوقع بهم مراراً ، وعاث في أحياء العرب ، وبسط سلطانه على الصحراء الوسطى . ثم بنى مدينة الأحساء وجعلها قاعدة ملكه وسار منها إلى عمان فاستولى عليها ، ثم زحف نحو الشمال وهزم جيوش المقتدر مراراً وغزا كثيراً من بلاد الجزيرة وفرض عليها الاتاوة .

وفي سنة سبع عشرة سار أبو طاهر إلى مكة وقتل بالحجاج فتكا ذريعاً ، ونهب أموالهم ، واقتحم البيت الحرام ونزع كسوته وقسمها في أصحابه ، واقتلع الحجر الأسود وانصرف به إلى الأحساء وأراد أن يجعل فيها الكعبة بدلاً من مكة . فارتاع العالم الإسلامي لذلك الاجترار وسيخط الخليفة الفاطمي في القيروان على القرامطة وأمرهم

برد الحجر الاسود وبذلت لهم حكومة بغداد خمسين ألفاً من الذهب لردّه فأبوا وزعموا انهم حملوه بوحي من امامهم وانما يردونه بأمره وأمر خليفته : ولم يردوه إلا في سنة تسع وثلاثين . ولبت أبو طاهر في البحرين يتردد بالاغارة والنهب على مدن العراق والشام حتى فرض الاتاوة على معظمها واضطرت حكومة بغداد ذاتها أن تدفع اليه الاتاوة لتنجو من عدوانه . واشتهر أمر القرامطة في أنحاء العالم الاسلامي ، واضطربت شؤون الخلافة العباسية من جراء فتكهم بجيوشها وعيشتهم بأقطارها . واستبطل ملك أبي طاهر زهاء ثلاثين سنة . فلما توفي ثارت الحرب الاهلية حيناً بين أخيه وولده الأكبر من أجل الملك ، وثارت من بعد ذلك بين أبنائه حتى استقرت الامور لأخيه الحسن الملقب بالاعصم ، فاستطاعت دولته وقوي أمره وعاد القرامطة في عهده الى غزو أنحاء العراق والعيث فيها ومحاربة عمال الخليفة العباسي في تلك الأنحاء حتى كان خلاف الحسن مع امامه الخليفة الفاطمي فعاد القرامطة الى الدعوة لبني العباس . ٥ - وذلك ان المعز لدين الله الفاطمي استولى على مصر واستولى قائده ابن فلاح على دمشق من يد أميرها السابق ابن طنج . وكانت للقرامطة اتاوة مفروضة على دمشق فطالب الحسن بها كالعادة فامتنع الأمير الجديد عن دفعها ، وسخط المعز على الحسن وهدده وحرّض شيعة أبي طاهر على الثورة ورد الامر لبنيه ، وعلم الحسن بذلك فقطع الدعوة الفاطمية وكان القرامطة يدعون للفاطميين مذ قامت دولتهم بأفريقية ، ويقرون زعامتهم الروحية باعتبارهم أئمة الشيعة القائمين بالامر ، ثم دعا للمطيع العباسي ولبس السواد (شعار بني العباس) وزحف على دمشق وهزم جندها واستولى عليها ، وبعد أن عاث أبو الحسن بجيوشه حيناً في جنوب الشام تاهب لغزو مصر فسار اليها في جيش كثيف من القرامطة ، واجتمع اليه أثناء مسيره جم غفير من البدو والاشقياء وقلول بني الأخشيد ، واقتنحهم الولايات الشرقية ثم عسكر بمجموعه بالقرب من عين شمس فحشد جوهر الصقلي فاح مصر كل قواته لقتالهم واشتبك الفريقان في عدة معارك مالت كفة الظفر فيها نحو القرامطة بآدى . بدء واشتدت الحال على جيوش جوهر ولكن التفرق دب الى معسكر أبي الحسن وغدر به البدو فاستطاع جوهر أن يشحن في القرامطة وأن يردهم نحو الشام ولولا ذلك لانزع القرامطة مصر من يد الفاطميين منذ البداية ولقامت لهم فيها دولة ، وكان ذلك سنة ثلاثمائة وستين وللحسن الاعصم في تلك الموقعة شعر منه :

زعمت رجال الغرب اني هبتها فدمي اذا ما بينهم مطلول

يا مصر ان لم اسق ارضك من دم يروي ثراك فلا سقاني النيل
وانتقم المعز من جانبه بعزل الحسن وتولية واحد من ولد أبي طاهر على القرامطة،
فذهبت الثورة في البحرين بسبب ذلك واقتحم الثوار الاحساء في غيبة الحسن،
ولكن الخليفة العباسي تدخل في الامر وأصلح بين الفريقين، ثم حرض البدو على
الحسن ورشاهم بالمال والوعود فانقضوا عنه ووئدت جنود الشام بالقرامطة وهزمواهم،
ثم جاء المعز الى القاهرة سنة ثلاث وستين وبعث جيوشه الى الشام فاقتتحتة، ولكن
الحسن استطاع ان ينظم فلوله أثناء ذلك وأن يجمع حوله جيشاً كثيفاً من القرامطة
والبدو والاشقياء وزحف على الشام ثانية وهزم جيوش المعز ثم سار لغزو مصر
مرة أخرى فلقيته جيوش المعز بقيادة ابنه عبد الله بالقرب من باييس فانهمز القرامطة
بعد معركة طاحنة وامعن فيهم جند المعز قتلاً وأسراً، وارتد الحسن الى الاحساء
ولما توفي المعز لدين الله سنة خمس وستين وقع خلاف بين ابنه العزيز وبين
اقتكين امير دمشق فبعث اليه العزيز جوهر في الجند واستغاث اقتكين بالاعصم فوافاه
على رأس القرامطة وهزم جند العزيز باديء بدء ولكن العزيز سار الى القرامطة
بنفسه وهزمهم وقبض على اقتكين، وارتد الحسن منهزماً الى الاحساء
بعدئذ أنكر القرامطة على الحسن ما كان من بيعته لبني العباس فخلعوه وقرروا نزاع
الامر من بني الجنابي جملة، وقدموا عليهم رجلين من الزعماء هما جعفر واسحق،
فرحل بنو أبي سعيد الى جزيرة أوال، وقام جعفر واسحق بالامر حيناً، وقطعا
الدعوة العباسية، ورجعا الى دعوة العلوية، ثم سارا الى الكوفة فلكاها، وكانت
الجزيرة عندئذ في يد آل بويه فبعث اليهما صمصام الدولة بن بويه الجند من بغداد فانصر
القرامطة باديء بدء ولسكنهم هزموا بعدئذ وطاردهم جند آل بويه حتى القادسية وأمعنوا
فيهم قتلاً وأسراً. وضعف أمر القرامطة من ذلك الحين وانفض عنهم الاعراب والبدو
ثم دب الخلاف بين جعفر واسحق وأراد كلاهما الاستئثار بالملك فثارت بين
القرامطة حرب داخلية مزقت شملهم، وانتهز الفرصة متغلب من تلك النواحي يسمى
الاصفر الثعالبي فوثب بالبحرين وقاتل القرامطة قتلاً شديداً وانزع الاحساء من ايديهم،
وقطع دعوتهم ودعا للطائفة العباسية، واستقر الامر له ولبنيه هنالك
٦ - وهكذا انحل مجتمع القرامطة بعد أن لبث زهاء قرن ينشر ألوية الدمار
والموت فيما حوله من الاقطار الاسلامية، ويتهدد بالانحلال والفناء كل مجتمع مسلم
منظم، ويعيث بالافساد والهدم في كل تعاليم الاسلام الدينية والاخلاقية التي قامت

عليها السلطة الروحية والزمنية وقام عليها النظام والامن . أن يهدم تعاليم الاسلام الدينية والاخلاقية من أساسها ، بل أن يهدم الايمان الديني عامة ، هي الغاية التي عمل لتحقيقها عبدالله بن ميمون . وقد كان القرامطة أول هيئة ثورية منظمة نشطت لتحقيق مبادئ ابن ميمون بالعنف والسفك ، ولكن القرامطة انحرفوا عن الطريق الاصلية التي رسمها ابن ميمون

كانت فكرة ابن ميمون لا تركز على العنف الظاهر ولكن على تعاليم سرية تقصد بالتدريج الى هدم كل المعتقدات الدينية من الاساس ، والى خلق حالة من الفوضى العقلية لا الفوضى المادية ، لان العنف دائماً يستثير العنف ، ولكن القرامطة عجلوا الانفجار قبل أوانه وحولوا الطائفة السرية الهائلة قبل أن ينضج تنظيمها وقبل أن تجتاح تعاليمها مجتمعاتها ، الى جماعة صغيرة من الخوارج ممن دفعتهم خيبة الامل أو استهواهم امل النهوض والكسب الى اعتناق المبادئ الجديدة ، وجعلوا منها حركة محلية قبل أن تصبح حركة شاملة ، واسبقوا عليها من ضروب السفك والعنف ما لم تجرؤ على اقراره النفوس الوديمة التي قد تميل الى المبادئ ولا تميل الى السفك فحسروا بذلك كثيراً من الانصار والتلاميذ ، وقنعوا من الغاية الكبيرة الشاملة التي كان يتحراها ابن ميمون بالاناءة والصبر ، ويرمقها عن بعد ، بالملك الصغير ، والثروة العاجلة ، ولم يحسنوا بذلك اخفاء مقاصدهم ، بل تغلبت عليهم الشهوات والاهواء بسرعة ، فكانت ثورتهم لذلك محلية ، وكانت دولتهم صغيرة . صحيح ان القرامطة استطاعوا أن يخوضوا غمار سلسلة من الحروب والوقائع الكبيرة ، وأن يقوموا بكثير من الغزوات والفتوحات ، وأن يفرضوا الاتاوة على معظم مدن العراق والشام بل على بغداد ذاتها . ولكن ذلك يرجع الى حالة الانحلال والفوضى التي آلت اليها الدولة العباسية يومئذ والى استقلال الحكام المحليين واعتمادهم في الدفاع عن ولاياتهم على انفسهم ، كذلك يرجع الى ان القرامطة كانوا بحكم مبادئهم وأطماعهم جنوداً مغامرين مستقلين ، وكان عمادهم في الحروب عصابات جريئة من بدو وشجعان مخاطر ينصبون في تشفيرهم وقناعتهم على مكاره الحروب أكثر مما يطيقه جند المدن الذين ذاقوا لذة الدعة والرخاء . لذلك كانت ثورة القرامطة خطراً عظيماً على الدولة العباسية ، استغرق الجهد من جهودها وأموالها ، في وقت اشتد فيه ساعد الدولة البيزنطية وارهقتها بالغزو والحملات الناهبة ، بل ليس من المبالغة أن نقول ان انفجار القرامطة كان من أهم الاسباب التي مهدت الى سقوط الدولة العباسية

الفصل الرابع

الجماعات السرية التي أنشئت لهدم الاسلام

(١) انتشار دعوة عبد الله بن ميمون في اليمن وافريقية . عبيد الله المهدي ونسبه .
فراره الى افريقية . قيام دولة العبيديين او الفاطميين في افريقية (٢) انتقال الفاطميين
الى مصر . الحاكم بامر الله . غرابة اطواره ونزجاته . استنفاذ الدعوة السرية الاسماعيلية .
انشاؤه لدار الحسكة . مراتبها السرية . اقوال فون هامار (٣) الدروز وتعاليمهم
(٤) الاسماعيلية او الباطنية . ظهورهم في فارس . استيلائهم على قلعة شام در . الحسن
ابن الصباح ونشأته (٥) فلسفة ابن الصباح ومذهبه . استنفاذه وراء الدعوة الشيعية .
جميعته السرية ومرتباتها السبع (٦) خطط الاسماعيلية . استيلاء ابن الصباح على قلعة
الموت . تدبيره مقتل نظام الملك . استيلاء الاسماعيلية على قلاع اخرى . الحرب بينهم وبين
بركيارق . الحرب الاهلية في فارس . تحالف بركيارق مع الاسماعيلية . الفداوية او القتل .
(٧) انقلاب بركيارق على الاسماعيلية ومطاردته لهم . محاربة السلطان محمد لابن عطاش .
بسالة الاسماعيلية ومقتل ابن عطاش (٨) دولة ابن الصباح . عيث الاسماعيلية في الشمال .
نشاط السلطان محمد الى محاربتهم . استيلاء انوشتكين على بعض قلاعهم . محاصرته اقلعة الموت .
جلد الاسماعيلية ورفع الحصار . وفاة ابن الصباح . مواهبه وصفاته (٩) الاسماعيلية في
الشام . حصولهم على قلعة بانياس . الاسماعيلية وفرسان المعبد . مسير صلاح الدين لمحاربة
الاسماعيلية وعفوه عنهم . محاربة التتار للاسماعيلية في فارس والشام . اشتداد هولاء في
مطاردتهم وسحقه لدولتهم في فارس . غزو الملك الظاهر لقلاعهم في الشام . انحلال الاسماعيلية
وذهاب دولتهم (١٠) الاغتيال المنظم سلاح الاسماعيلية . الفداوية ونشأتهم . حداثي
الاسماعيلية . شيخ الجبل وطريقته الروائية . اقوال فون هامار (١١) تحليل وتأملات

١ - ينما كان القرامطة يسرون بأنفسهم الى الفناء في غمار من المعارك الطاحنة
والسفك المستمر كانت دعوة عبد الله بن ميمون السرية تجتاح مجتمعا آخر ، وتسير
في طريقها بخطوات ثابتة ، غير أنه توفي قبل أن يشهد نتائجها المادية ، فقام بها بنوه
من بعده ، وأرسلوا الى اليمن داعية يبث الدعوة ويبشر بقرب ظهور المهدي فانتشرت
الدعوة هنالك بين القبائل الشيعية بسرعة ، وأغاروا على من حولهم من القبائل بالسبي
والنهب وأرسلوا أموالا كثيرة الى ولد ابن القداح ، وأنفذ الدعاة في نفس الوقت
رجلين منهما الى افريقية التي آنسوا في قبائلها المتوحشة مهدأ خصباً لبث بذور
الدعوة فذهبوا الى ارض كتامة والتف حولها كثير من القبائل . وكان ممن اعتنق
الدعوة في اليمن رجل يدعى ابو عبد الله الشيعي ، وكان ذا ذكاء وعزم ، فلما انتشرت

الدعوة في قبائل المغرب سار الى افريقية وبشر بظهور المهدي واستمال البربر بحيلة وشعوذته وزهده وورعه ، وقاتل في انصاره جند بني الاغلب أمراء افريقية وهزمهم في عدة مواقع

وكان ولد ابن القداح يدعون أنهم من سلالة آل البيت . وكان حفيده الحسين قد سار الى سلمية من ارض حمص واستولى على ما أودعه جده عبد الله هناك من مال ووكلاء وغلمان ، وكان هو الذي يدير الدعوة ويرسل الدعاة ، ويكاتبه شيعة اليمن والمغرب ، وكانت زوجته يهودية رائعة الحسن زوجها بعد أن مات عنها زوجها الاول وهو يهودي ولها منه ولد فائق الذكاء والظرف ، فبناه الحسن وعلمه وادبه وعرفه أسرار الدعوة من قول وفعل ، وتقدم الى أصحابه بطاعته وخدمته وانه هو الامام والوصي ، واتحل له نسباً هو عبيد الله بن الحسن من ولد الحسين بن علي وهذه رواية في نسب عبيد الله بن المهدي^(١) وهناك من يقول انه من ولد اسماعيل الامام كما قدمنا ، ومن يقول انه ولد الحسين بن القداح من زوجته اليهودية ، والاختلاف كثير في نسبه . غير أن سواد المؤرخين المسلمين لا يميل الى تصديق نسب عبيد الله اليهودي سواء من جهة أمه أو أبيه ، إذ تأتي غيرتهم الدينية على ما يظهر أن يكون المتحل دعوة المهدي والمؤسس لدولة كبيرة من دول الاسلام من غير المسلمين . ويعتقد معظمهم صحة انتسابه الى آل البيت . أما نحن فنرجح انه من ولد عبد الله ابن ميمون لان دعوة ابن القداح الى امامة آل البيت لم تكن كما قدمنا الاقناعاً يستتر به ، ووسيلة لاستهواء العامة ، وبعيد ان يستنفذ بنو القداح وهم من اقطاب الانكار والاحاد نشاطهم وذكاءهم في سبيل تأييد دعوة يسخرون منها في اعماق قلوبهم ، ويقيمون للدين دعامة وما قاموا بدعوتهم الا لسحقه وسحق جميع العالم الدينية والاخلاقية

وعلى أية حال فقد قام عبيد الله بالدعوة بعد وفاة الحسين وبذل الاموال وبث الدعاة ، وارسل اليه ابو عبد الله الشيعي رسلا من كتامة يخبرونه بما تم له هناك من الظفر وانهم ينتظرون قدومه الى المغرب ، وكانت عين الخليفة المكتفي فوق ذلك ساهرة ترقب حركاته فاعزم الفرار الى افريقية ، وبعد خطوب كثيرة ومطاردات حمة استطاع ان يصل الى المغرب هو وولده ابو القاسم ، غير انه وقع في يد أمير

(١) هذا ما رواه ابن الاثير نقلا عن بعض العلوية غير أنه يأبى تصديق هذه الرواية

ويحاول نقضها (ج ٨ ص ١٢)

سجلماسة فسجنه بإشارة زيادة الله الاغلب قبل ان يتوفق الى لقاء أبي عبد الله غير ان أبي عبد الله نشط الى محاربة زيادة الله ، وبعد محروب طاحنة هزمت جيوش بني الاغلب ودخل ابو عبد الله مدينة القيروان ، وزال ملك الاغالبة من افريقية (تونس) . (سنة ٢٩٦ هـ)

ثم سار ابو عبد الله الى سجلماسة وقاتل اميرها وهزمه واخرج عبيد الله وولده من السجن ، ودعا الى امامته ، فدخل عبيد الله مدينة القيروان سنة سبع وتسعين ، وقبض على زمام الحكم ، وتلقب بالمهدي ، واستعمل انصاره في حكم الثغور والنواحي وقامت بذلك دولة العبيديين

٢ - وفي سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة افتتح مصر جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله خليفة العبيديين ^(١) وأسس مدينة القاهرة . ثم قدم المعز الى مصر بعد ذلك ببضعة اعوام ، ونقل قاعدة ملكه الى القاهرة فكانت منزله ومنزل ابنائه من بعده . وكان العبيديون قد اشتغلوا حيناً بالغزو عن المضي في بث دعوتهم ، فلما هدأت ثورة الفتح وثبتت دعائم ملكهم ، استأنفوا دعوة التقويض والهدم ، وكان أنشطهم الى بثها وأحرصهم على تأييدها الحاكم بامر الله ابن المعز الذي تبوأ عرش مصر عقب وفاة ابيه في سنة ست وثمانين . وكان الحاكم عنيف الاهواء خطر النزعات فذ الاطوار ، جم الصرامة والقسوة « مضطرباً في الجور والعدل والاخافة والامن والنسك والبدعة » ^(٢) قال على المصريين وأذلم وعاث في أموالهم وأرواحهم واعراضهم ، وأضنهم بغريب نزعاته ومتناقض أحكامه ، وقلب نظم الحياة الاجتماعية ، فأمر حيناً أن يستبدل النهار بالليل لاجراء المعاملات ، ومنع النساء من الخروج والتعامل ، وأطلق يد الاجانب والسفلة في شؤون الدولة ، فانهارت صروح النظام والامن ، وأحللت الاخلاق ، وانحطت عقلية المجتمع المصري . بيد ان الذي يهم أن ندرجه من سيرة الحاكم هو استئنافه للدعوة السرية الاسماعيلية ولشاطه في إذاعتها بطريقة فعالة منظمة بإنشاء دار في القاهرة لبث تعاليم هذا المذهب . وكان هذا المعهد الفذ الذي سمي « دار الحكمة » مدرسة عامة يفتح بابها لكل طالب ، والتعليم فيها على نفقة الدولة . وكانت تعاليمها الدينية التي اشتقت من مبادئ عبد الله بن ميمون تسمع

(١) وهم الفاطميون ايضاً ، يسميهم بذلك من يسلم بانهم من آل البيت وان نسبتهم تنتهي الى فاطمة بنت النبي وزوج علي ابن ابي طالب

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ٦٠

مراتب أي زيادة مرتبتين على جمعية ابن ميمون السرية وينقسم الطلاب فيها الى قسمين كبيرين ، العالم والجاهل ، ويعتبر الدعاة من تلاميذ القسم الاول . ويبدأ الدعاة بمناقشة الطلاب في المسائل الدينية وتفسير القرآن ، ويعلمونه ان مسائل الدين امور شديدة التعقيد تنبؤ عن الذهن البعادي ولا يستطيع فهمها إلا رجال كالدعاة تبحروا في درسها ، وبأخذون عليه العهود بالألا يذيع شيئاً مما يعلمونه من النظريات والشروح وهذه هي المرتبة الاولى . وفي المرتبة الثانية يعلم الطلاب أن كل التفسير والاحكام التي قال بها المجتهدون السابقون خاطئة باطلة وان الاحكام الصحيحة هي التي يقول بها الائمة الذين تلقوها من الله . وفي الثالثة أن هؤلاء هم أئمة الاسماعيليه وهم سبعة آخرهم محمد بن اسماعيل . وفي الرابعة ان الانبياء الذين تقدموا آل البيت سبعة ايضاً هم آدم ونوح وابراهيم وموسى والمسيح ومحمد (النبي العربي) ثم محمد بن اسماعيل . وفي الخامسة يبدأ الدعاة بتنفيذ مهمتهم الحقيقية وهي هدم العقيدة الدينية فيعلمون الطالب ألا يؤمن بالسنة وأن يرفض تعاليم محمد . وفي السادسة ان كل الاديان وما أمرت به من الفروض كالصوم والصلاة وغيرها إن هي إلا أكاذيب وحيل ابتكرت لاختضاع المجتمعات البشرية وان جميع الشرائع لابد أن تخضع لشرعية العقل والعلم ويبدلون على أقوالهم بنظريات ارسطو وافلاطون وفيثاغورس وأمثالهم . وفي السابعة يلقن تعاليم الثنوية وبذلك تهدم وحدة الاله وهي فكرة الاسلام الجوهرية . وفي الثامنة تنقضي كل صفات الالوهية والنبوة ويعلم الطالب أن الرسل الحقيقيين هم رسل العمل الذين يعنون بالشؤون الدنيوية كالنظم السياسية وانشاء الحكومات المثلى . وفي التاسعة والاخيرة يدخل الى حظيرة الاسرار ويعلم أن كل التعاليم الدينية أوهام محضه وانه يجب ألا يتبع منها الا ما هو لازم لحفظ النظام بين الدهاء والعامة ولكن الرجل المستنير له أن يرفضها جميعاً ، وان ابراهيم وموسى والمسيح وغيرهم من الانبياء ليسوا إلا رجالاً مستنيرين تفقهوا في المسائل الفلسفية ، وهكذا يهدم كل اعتقاد في الاديان المنزلة . فكانت المراتب الاخيرة تستعمل لنقض المراتب الاولى . وقد كان الخداع في الواقع عماد الدراسة في دار الحكمة ، وكان الدعاة يتحدثون امام كل طائفة بما يرضيها ويتفق مع عقليتها وتعاليمها

هكذا كان نظام الجمعية السرية الهائلة التي نظمتها الشيعة لهدم الدولة العباسية وما تستند اليه من التعاليم الدينية ، وهدم كل المعتقدات الدينية من الاساس ، وهو النظام الذي اتخذ نموذجاً لانشاء « الشعلة الباغارية » في القرن الثامن عشر ، والذي يحمل

عليه فون هامار في كتابه عن الاسماعيلية^(١) في هذه العبارة القوية :
 « ألا يعتقد في شيء وأن يقدم على كل شيء هما خلاصة هذا النظام الذي هدم
 كل مبدأ للدين والاخلاق ، ولم يك يرمي الا الى تنفيذ المآرب والاطاع على يد
 وزراء هم خير آلات لسياسة جهنمية ، يقدمون على كل شيء ولا يعرفون شيئاً ،
 يعتبرون كل شيء خدعة . وكل شيء مباح ، نظام لا يعمل الا لاطفاء شهوة للتغلب
 لا يخذلوا رها بدلا من أن يعمل على تحقيق أمثل الغايات البشرية ، وينحدر الى
 الهاوية ، فيقبر بين أطلال العروش والهاكل ، وانقاص السعادة القومية ، ولعنات
 الانسانية بأسرها »

٣ - وقد أسفرت تعاليم دار الحكمة عن ظهور طائفة سرية جديدة هي طائفة
 الدروز أتباع اسماعيل الدرزي ، وهو تركي دعا سنة ١٠١٦ م. في أحد مساجد القاهرة
 بالوهية الحاكم وعبادته ، وزعم الحاكم نفسه في آخر عهده أن الروح القدس ماثلة
 في شخصه وادعى الألوهية ، ونظم وزيره الفارسي حمزة بن علي رسوم هذا الدين
 الجديد . ثم قتل الحاكم بعد ذلك في كمين دبرته له أخته - على ما يقال - وأخفيت
 جثته ، فازداد أتباعه فتنة وزعموا أنه لم يموت ولكنه رفع الى السماء ثم يعود ليقاب
 الكفرة . وصار ذلك مذهب دروز الشام الذين حملهم اسماعيل الدرزي على اتباع
 تعاليمه . وقد خرج الدروز في صوغ مذهبهم عن تعاليم عبد الله بن ميمون الأصلية ،
 فهم دهرية يقولون بالحلول وان الله « حكمة عامة » تمثل في آلهة عدة وان الحاكم
 بأمر الله آخر هؤلاء الآلهة وانه يعود الى الظهور حينما يصل الظلم في العالم غايته
 فيفتتح العالم ويقضي على جميع الأديان الاخرى . ومراتب الطائفة الدرزية ثلاثة هي
 الجاهل ، والجويد ، والعاقل ، ول هؤلاء تكشف أسرار المذهب تدريجاً ويلتجىء الدعاة
 في ذلك الى الرموز والاشارات الخفية حرصاً على كتمان الاسرار والتعاليم ، ويتبعون
 خطة الاسماعيلية في نشر دعوته بين أبناء الأديان الاخرى فيتظاهرون أمام
 المسلمين بأنهم يؤمنون بمحمد ، وأمام النصارى بأنهم يؤمنون بالمسيح ، ويبررون هذا
 المسلك بأنه واجب ألا تكشف أسرار مذهبهم الى « أسود » أو كافر . ومن عاداتهم
 أنهم يجتمعون نساء ورجالا ليتحدثوا في الشؤون الدينية والسياسية ، بيد أنه لا يجوز
 « لعقل » أن يشترك في تقرير الامور ، وتشبه رموزهم واشاراتهم في التعارف
 رموز البناء الحر

والدروز طائفة صغيرة لم تلعب دوراً كبيراً في الثورة على الاسلام كباقي الشعب الاسماعيلية

٤ - ننتقل الآن الى طائفة اسلامية ، ثورية سرية في نفس الوقت ، وهي أعظم جمعية سرية ثورية عرفها الاسلام

هذه الجمعية السرية هي طائفة الاسماعيلية او الباطنية التي ابنت زهاء قرن ونصف رعب الدول الاسلامية من فارس الى الشام ، وحشدت جموع البسطاء والدهماء باسم الدين لتحقيق اغراض السياسة ، واعتمدت في محاربة خصومها على الاغتيال الخفي المنظم باكثر مما اعتمدت على الحرب العلنية

وهؤلاء الاسماعيلية ، او الباطنية كما رأينا هم شعبة من غلاة الشيعة استخرجت مبادئها من تعاليم ميمون بن ديصان وولده عبدالله ، والقرامطة ، ودار الحكمة الفاطمية ، فهي بذلك طور من أطوار الدعوة الثورية الهادمة التي نظمها ابن ميمون وتسمة لها . وقد أخذت في الظهور بشكلها الجديد حينما اضمحل أمر الدولة الفاطمية في مصر وتضاءل نفوذ دار الحكمة والتعاليم الشيعية ، وتحرك دعايتها بادية بدء في فارس اذ يجب ألا ننسى أن فارس كانت منذ البداية معقل الشيعة وملاد التعاليم الشيعية لان الحركة القومية الفارسية كانت تعتمد على الدعوة الثورية الشيعية وفوراتها المتعاقبة في تحطيم نير الدولة العباسية واسترجاع حرياتهما . وكانت فارس في أواخر القرن الحادي عشر فريسة للحرب الاهلية والثورات الداخلية . ولم تكن وحدة قومية بل كان يقتسم الملك فيها عدد من صفار الامراء والمتغلبين . ففي ذلك الحين بدرت من الاسماعيلية اول حركة عنيفة قام بها داع من دعايتهم يسمى احمد بن عطاش ، وكان ابوه من كبار الزعماء الباطنيين ، وكان الاسماعيلية قبل ذلك بأعوام قد انتشروا في أنحاء همدان وعاثوا فيها يقتلون الناس ويختطفونهم وينهبون أموالهم ، وتجرد جنود السلطان ملكشاه لمحاربتهم ، فاجتمعوا حول ابن عطاش هذا ولم يلبث أن استولى على قلعة شاه در بالقرب من أصفهان ، وامتع بها الاسماعيلية واتخذوها قاعدة للهجوم والاغارة

يسد ان الذي نظم حركة الاسماعيلية في طورها الجديد ، ووضع برنامجها الفذ ، وأنشأ منها جمعية سرية هائلة ذات فروع وشعب منبثة في جميع أنحاء فارس والعراق والشام هو الحسن بن علي المعروف بالصباح ، وهو فارسي من خراسان نشأ حر الفكر ، وتعلم مع الشاعر الفيلسوف عمر الخيام ونظام الملك وزير السلطان ملك

شاه ، وانقطع حيناً لدرس الكيمياء والفلك وضروب السحر والخفاء التي كانت في عصره سلاحاً رائعاً يشهره الأذكياء والادعياء على البسطاء والعامة ، ثم اتصل بصديقه نظام الملك فألحقه بخدمة السلاطان مالك شاه ، وسما شأنه وكثر ماله ، غير أنه حاول بالدس والسعاية أن يوقع بصديقه الحسن اليه فسخط عليه نظام الملك ، واتهمه بالاحاد وبث الدعوة الاسماعيلية ، ففر هاجياً بنفسه وتجهول في الاقطار وزل بمصر فأحسن خليفته المستنصر الفاطمي وقادته وأمره بدعاء الناس الى امامته ، واتصل بأساتذة دار الحكمة وتفقه في تعاليمهم . ثم عاد الى الشام واستقر حيناً بحلب ينظم طائفته الجديدة ، وطاف بالجزيرة وبغداد وجنوب فارس يثت تعاليمه ويدعو بامامة اسماعيل وبنيه من آل البيت

٥ - ويحسن قبل أن نقص تاريخ الجمعية السرية الغربية التي أنشأها الحسن الصباح ان نلم بملخص مذهبه الفلسفي . يقول الحسن بوجوب الدعوة الى تعيين امام صادق قائم في كل زمان وتميز الفرقة الناجية من سائر الفرق بأن لها اماماً وليس لغيرهم امام ، ويقول في معرفة الله بضرورة استعمال العقل والنظر الى جانب تعاليم المعلم الصادق ، وان الناس فرقتان في ذلك . قالت الاولى بوجوب الاستعانة في معرفة الله بالمعلم الصادق ووجوب تعيينه وتشخيصه ثم التعلم منه . وقالت الثانية بالاخذ في كل علم من معلم وغير معلم ، وان الحق مع الفرقة الاولى فرأسهم يجب أن يكون رأس المحققين ، قال وبالاختياج عرفنا الامام ، وبالامام عرفنا مقادير الاختياج كما بالجواز عرفنا الوجوب أي واجب الوجود ، وبه عرفنا مقادير الجواز في الجائز ثم يقول الحسن الصباح : ان في العالم حقاً وباطلاً وان علامة الحق هي الوحدة وعلامة الباطل هي الكثرة وان الوحدة مع التعليم والكثرة مع الرأي ، والتعليم مع الجماعة ، والجماعة مع الامام ، والرأي مع الفرق المختلفة ، وهذه مع رؤسائها . وجعل الحق والباطل والتشابه بينهما من وجه ، والتمايز بينهما من وجه ، التضاد في الطرفين ، والترتب في احد الطرفين ميزاناً يزن به جميع ما يتكلم فيه . ووزن بذلك الخير والشر والصدق والكذب وسائر المتضادات ، وطريقته أن يرجع في كل مقالة وكلمة الى اثبات المعلم وان التوحيد هو التوحيد والنبوة معاً حتى يكون توحيداً ، وان النبوة هي النبوة والامامة معاً حتى تكون نبوة . ولم يتعد في مسألة الألوهة قوله ان الهنا إله محمد . وقد منع الحسن العامة عن الخوض في العلوم وكذلك الخاصة عن مطالعة الكتب المتقدمة الا من استطاع منهم فهمها وتحليلها

هذا هو ملخص آراء الحسن الصباح في المسائل التي اشتغل جميع اعداء الاديان المنزلة والنظم المفروضة في جميع العصور بتحليلها وتعليلها ، وقد اختار مثل سلفه وامامه ابن ميمون أن يستتر بالدعوة الشيعية وأن يؤثر امامة الاسماعيليه لانتشار فلولهم وجوعهم في جميع الاقطار ولا سيما في فارس التي اخنارها مركزاً رئيسياً لفرقه . بيد أنه التجأ في التنفيذ الى تنظيم القوة المادية على مثال هائل لم يحلم به سلفه . وقد أشار فون هامار الذي يعتبر الحسن الصباح عبقرية عظمى الى برنامج التنفيذ في هذه العبارة القوية :

« ان الآراء ضعيفة قاصرة ما وقفت عند اجهاد المخ دون تسليح اليد . ولم يظفر التشكك والتفكير الحر بسحق عرش من العروش ما وقفنا عند الاضطرام في عقول الكسالى والفلاسفة ، بيد ان النعصب الديني والنعصب السياسي هما انفذ اسلحة في يد الامم لسحق العروش . ان ذا الاطاع لا يعنى بما يعتقد الناس ذرة ، ولكنه يعنى كل العناية بمعرفة الوسيلة التي يستطيع بها أن يستعملهم في تنفيذ ما ربه » (١)

وقد اتبع الحسن الصباح مثل دار الحكمة في مراتب جمعته غير أنه جعلها سبعاً بدلاً من تسع : الاولى مرتبة الرئيس أو السيد أو شيخ الجيل وهو رئيس الطائفة الاعلى ، والثانية مرتبة كبار الدعاة أو المقدمين ومقامهم في ثلاث ولايات توجد فيها أمنع قلاع الطائفة وهي بلاد الجيل وقهستان والشام وهؤلاء يتلقون أوامره من الرئيس مباشرة وينحضون له خضوعاً تاماً ، ثم يأتي بعدهم الدعاة والرسل الدينيون والوكلاء السياسيون ، ثم الرفاق وهم يتدرجون في المراتب والتعاليم السرية ، ثم الفدائيون الذين يتولون الاغتيال الفردي ويلحق بهم حراس الطريق والمحاربون والقتلة ، ثم المبتدئون أو اللاحقون الذين يحشدون للتجنيد في الطائفة وتلقي مبادئها ، ثم العامة وهؤلاء لا يتلقون شيئاً من التعاليم وإنما يستعملون آلات صماء فقط ، ويشبه فون هامار مراتب الدعاة والرفاق والفدائيين في جمعية الانماعيلية بثلاث مراتب في البناء الحر هي كبار البنائين ، ورفاق المهنة ، والصبية المبتدئون

ولم تكن الطائفة الجديدة تجيز الخروج على الدين ، بل كان شعارها بالنسبة للمراتب الصغرى الايمان الصحيح بكل تعاليم الاسلام واتباع الفرائض غير ان كبار الدعاة ومن يلحق بهم من المتقدمين في المراتب كانوا يلمون بشيء من اسرار

الطائفة ويعلمون ان الدين لم يكن إلا وسيلة وانه باطل وخيبة ، ولا يؤمنون بشيء من تعاليمه ، ويعتقدون ان كل الوسائل مشروعة لبلوغ المآرب الدنيوية التي يعنون بها دون سواها . كان شعارهم : « لا حقيقة في هذا الوجزد ، وكل أمر مباح » وكان هذا أساس نظريتهم السرية التي لا يتلقاها الا أفراد معدودون منهم يخفونها بمتنهي الحذر تحت حجاب الايمان العميق والورع الفياض ، تأكيداً لاستعباد الازدهان المؤمنة الساذجة ، وتوجيهها طوع اوعاهاهم واستخدامها في تحقيق الغاية الاخيرة ، وهي تغلب بضعة أفراد تضطرم جوانبهم بشهوة السلطان والملك

هكذا كان البرنامج العملي - وليست النظريات المحضة - او بالحري كان حشد البسطاء واستعمالهم آلات صماء في يد الزعماء ، قوام « الارهاب » الهائل الذي بسط الاسماعيلية ظله على أنحاء فارس والعراق والشام مدى قرن ونصف ، والذي يرى فون هامار شبيهاً له في « ارهاب » الثورة الفرنسية ، وقد كان زعماءه ايضاً زعماء في بعض الجمعيات السرية أو آلات في يدها

٦ - كانت الوسيلة العملية التي اختارها الاسماعيلية لتحقيق غايتهم ومحاربة خصومهم هي الاغتيال المنظم والامتناع بسلسلة من القلاع الحصينة الشاهقة تمتد من فارس الى الشام . وكانت اول قلعة استولوا عليها هي قلعة شاه در التي امتلكها ابن عطاش . فلما فرغ الحسن الصباح من طوافه بالشام والجزيرة ووضع أسس الجمعية الجديدة عاد الى خراسان وتجهل أنحاء كاشغر وما وراء النهر يدعو الناس سرّاً الى طائفته ويتظاهر بالورع والزهد ، واتصل بصاحب قلعة الموت وهي من أمنع القلاع في شمال فارس وقويت بينهما أواصر الصداقة . فوثب الحسن ذات يوم بصاحب القلعة في شردمة من أنصاره فأخرجه منها وامتلكها (سنة ٤٨٣ هـ .) فسير اليه نظام الملك الجند فلما أرهقته عسكر السلطان وخشي الهلاك دس على نظام الملك من قتله غيلة فكان أول كبير قتله الاسماعيلية طبقاً لخطتهم الجديدة . ورحلت على أثر ذلك عساكر السلطان عن قلعة الموت ، فنشط الحسن الى تحصينها وتجهيزها بالرجال والاقوات والذخائر ، واتخذها قاعدة للاغارة على ما يجاورها من الأنحاء وتسمى بالرئيس أو شيخ الجبل لامتناعه بمحصونه في رؤوس الجبال

واستولى الاسماعيلية في نفس الوقت على عدة قلاع اخرى في فارس منها قلاع قوهستان استدعاهم اميرها لامتلاكها لخلاف نارينه وبين حاكمها من قبل السلطان فاشتد بأسهم في تلك الأنحاء ومنها قلعة وسعكوه بقرب أبهر وقد عاثوا هنالك قتلاً

وسلباً ونهباً فاستغاث الناس بالسلطان بركيارق فسير جنده الى الاسماعيلية فقاتلوه
واستعادوا القلعة منهم بعد أن لبثت في حوزتهم بضعة اعوام وقتلوه عن آخرهم .
ومنها قلعة خالنجان بالقرب من اصفهان كانت لمؤيد الملك بن نظام الملك فملكها
الاسماعيلية بالخدبة وضماها ابن عطاش الى حصونه . ومنها ازدهر ملكها أبو الفتح
ابن أخت الحسن الصباح . واستولوا على كثير غيرها من قلاع فارس . فاستفحل
أمرهم ، وازداد عيهم ، واختل النظام والامن ، واشتد بالناس الذعر والخوف ،
وهبوا لقتالهم والدفاع عن أنفسهم ولا سيما في اصفهان حيث نار العامة بهم وتكاثروا
عليهم وأمعنوا فيهم قتلاً وتحريقاً ، فامتنعوا بحصونهم هناك ولزموا السكينة حيناً
بيد أن الاسماعيلية غدوا في ذلك الحين قوة هائلة في فارس . فلما ثارت الحرب
بين السلطان بركيارق وأخيه السلطان محمود المتغلب على اصفهان وما يجاورها رأى
بركيارق أن يستعين بالاسماعيلية على أخيه وحرضهم على قتل أمراءه ومخالفه ، فنشط
الاسماعيلية الى مطاردة الامراء السلاجوقيين حلفاء السلطان محمود بالغدر والاغتيال
المنظم فقتلوا منهم عدداً كبيراً ، منهم سرمرن وارشن وكش وغيرهم من الامراء
والولاة . وحارب بركيارق أخاه في نفس الوقت وهزمه وقتل وزيره مؤيد الملك ،
غير أن الاسماعيلية انتهزوا تلك الفرصة واندسوا في عسكر بركيارق وفشت دعوتهم
بين الضباط والجند ، وخشيتهم بطانة السلطان والخاصة ، ونسبت اليهم كل الجرائم
الخفية ، واضطر خصومهم من الامراء والخاصة أن يلبسوا الدروع تحت ثيابهم
بالليل والنهار . وكان القتلة والفدائيون يرتكبون جرائمهم بتصميم وعزم وثبات لا مثيل
لها في تاريخ الجريمة فكان أحدهم يترصد للامير وقد استبطن ختجراً ثم يطعنه
طعنة قاتلة في الغالب وقبلما يفكر في الفرار بعد ذلك بل يهلك لوقته يد أعوان القتل
وحشمة ويستقبل العذاب والموت بأساً

٧ - ولما ضجت بطانة بركيارق وضج الناس عامة من عيث الاسماعيلية ، وانهم
بركيارق بما لأنهم والميل الى مذهبهم ، وخشي الفتنة في عسكره وشعبه ، أذن بمحاربتهم
ومطاردتهم . وسار بنفسه الى معسكراتهم وقلاعهم الواقعة في مملكته فقتل مجموعهم
وقتل عدداً كبيراً من كبار دعاةهم ومقدميهم ومنهم الامير محمد بن دشمنزيار صاحب
يزد ، وقبض في بغداد على أبي ابراهيم الاسداباذي أحد زعمائهم ، وكان بركيارق قد
أوفد رسولا الى الخليفة العباسي ليأخذ مال مؤيد الملك . وطارد الخليفة ايضاً بعض
دعاةهم في نواحي بغداد . وسار الامير يرغش كبير أمراء السلطان سنجر لقتالهم

فحاصروهم في طبرس وخرب قلاعهم وقتل كثيراً منهم
وكان ابن عطاش قد انتهز فرصة الحرب بين السلطان بركيارق وأخيه السلطان
محمد فأئخن في أنحاء اصفهان واستفحل أمره ، وبث أصحابه لقطع الطرق وقتل السابلة
ونهب الأموال فقتلوا خلقاً كثيراً وفرضوا الضرائب على بلاد السلطان وأرهقوا
سكانها . فلما عقد السلم بين الأخوين تأهب السلطان محمد لقتال الاسماعيليه وسار الى
قلاعهم في شاه در سنة خمسمائة وخمسين الحصار عليها ، وحاول الاسماعيليه مهادنة
السلطان بالمفاوضة فلم يقبل واستفتى الفقهاء في أمرهم فأفتوا بقتلهم . ولما طال الحصار
ورأى الاسماعيليه عزم السلطان وتمسكه فإخوه في التسليم على أن يسيروا الى قلاعهم
في ارجان وطبرس ، وأن تبقى جماعة منهم لحماية شاه در حتى يصل اخوانهم الى
القلاع ثم تسلم الحامية القلعة وتسير الى الحسن الصباح في الموت فرضي السلطان
بذلك ، وأرسل معظم الاسماعيليه الى ارجان وطبرس ، ولكن ابن عطاش امتنع
بشاه در وأبى التسليم ، وأبدى الاسماعيليه في تحمل أهوال الحصار جلاً عظيماً
وشجاعة نادرة ، ورفعوا الأخشاب والأسلحة فوق الأسوار وألبسوها الثياب إيهاماً
بالمحاصرين بكثرتهم ، وكاد السلطان يئس من التغلب عليهم لولا أن دله خائن منهم
على مدخل خفي للقلعة فدخلتها جنود السلطان وملا كوها ولم يجدوا فيها من الاسماعيليه
سوى ثمانين رجلاً قتلوا معظمهم ، وأسر ابن عطاش ، وأمر السلطان به فشنق في
اصفهان وسلخ جلده فتجد حتى مات ، وقتل ابنه ، وألقت زوجته نفسها من القلعة
فماتت على الأثر

٨ - أما الحسن الصباح فلبث في الموت متحصناً برءوس الجبال وتسمى كما قلنا
بشيخ الجبل ولم يتلقب بأمر أو سلطان . وبني الاسماعيليه حوله عدة قلاع منيعة ،
فقوي أمر الحسن وبسط سلطته على أنحاء خراسان وفرض الضرائب على الناس
والقرى ، وأئخن الاسماعيليه في تلك الأنحاء ، وقطعوا طريق القوافل ، وأسرفوا في
قتل السابلة ونهب أموالهم ومنازلهم . واستفحل أمرهم أيام الفتنة بين السلطان محمد
وأخيه . وكادت سلطة الحسن الصباح تغشى كل سلطة أخرى حتى روى أن السلطان
لما أرسل يدعوهم الى طاعته دعا أمام رسوله باثنين من رجاله وأمر أحدهما أن يغمد
خنجره في فؤاده والثاني أن ياتي بنفسه من أعلى الحصن ففعلاً وهلكا على الأثر ،
ثم قال للرسول قل لمولايك يطيعني هكذا سبعون ألفاً من الرعايا الأمناء
وكان الحسن قد انفق في الموت الى ذلك الحين نحو ست وعشرين سنة وقد طال

عهد الارهاب الذي بسطه في تلك الانحاء وكثرت غزواته ، واستغاث الناس من فعال الاسماعيليه وجرائمهم . فاعزم السلطان محمد بعد ان مزق الاسماعيليه في اصفهان وخرب قلاعهم أن يقاتل الحسن الصباح . فسير اليه في المبدأ عدة حملات صغيرة كان يفتك بها الاسماعيليه ثم تعود بلا جدوى ، فسير اليهم في سنة خمس وخمسمائة الامير انوشكين شريك صاحب آية وساوة فملك منهم عدة قلاع منها قلعة كلام وقلعة بيره وكان الاسماعيليه كلما سلموا اليه قلعة استأمنوه وساروا الى الموت حتى غصت بهم حصونها ، ثم سار انوشكين الى الموت وامده السلطان بعسكر جديد فحضر الحصار حولها ، وقطع كل علائقها من الخارج ، وابتنى المساكن للجند توقعاً لطول الحصار . وكان السلطان يمدّه تباعاً بالاقوات والذخائر . فلبث الحصار زهاء خمسة اعوام وكان صارماً مرهقاً ، ولجأ الاسماعيليه في جلب المؤن الى اروع الوسائل والحيل حتى ضاقوا ذرعاً واشتدت بهم الحال ، وكان الحسن يجري لكل منهم في اليوم رغيفاً وثلاث جوزات . وأبى عليهم انوشكين كل شروط للصلح والمهادنة ، وقتك الجوع بهم ، وكاد اليأس يحملهم على التسليم لولا ان توفي السلطان محمد اثناء ذلك ، فاضطر انوشكين أن يرفع الحصار وأن يرحل ، فزل الاسماعيليه من قلاعهم ودوا عسكره ومزقوا مؤخرته واستولوا على ما خلفه من الاسلاب ، وزال بذلك كل خطر واستعادوا سلطانهم في تلك الانحاء

وابت الحسن في الموت بحكم في دولته الصغيرة وينظم شؤون الاسماعيليه بضعة اعوام أخرى حتى توفي سنة ١١٢٤ م (٥٢٠ هـ) في سن التسعين بعد ان حكم الاسماعيليه خمساً وثلاثين سنة . وكان الحسن داهية وافر الذكاء والعزم ، عالماً بالهندسة والرياضة والفلك ، خبيراً بشؤون الحرب ، بارعاً في تدبير المكائد والدسائس ، مقداماً لا يدخر وسيلة لتحقيق غايته مهما كانت من الهول والروعة ، شديد القسوة الى حد التوحش حتى انه قتل اثنين من اولاده لشبهة قامت بنفسه في انهما يآمران به وقد رأيت ان فون هامار يعتبر الحسن الصباح عبقرية عظمى

٩ - ولما اشتدت مطاردة السلاجقة للاسماعيلية في فارس ، فرّ بعض دعاةهم الى الشام ، وكان كبير دعاةهم هنالك بهرام الاستراباذي ابن أخي أبي ابراهيم الذي تقدم ذكره ، فلبث حيناً يبيت الدعوة في الحفاء وينظم جموع الاسماعيليه هنالك . وكان امراء الشام مثل صاحب حلب وصاحب دمشق يستعملون الاسماعيليه في تنفيذ ما ربههم السياسية واغتيال اعدائهم فظهروا عندئذ وطلب بهرام من أتابك دمشق (ابن

طفتكين) حصناً يأوي اليه مع أنصاره اتقاء لاذى العامة فأعطاه قلعة بانياس سنة عشرين وخمسة ، فتحصن بها الاسماعيلية وغلبوا على عدة حصون أخرى هددوا بواسطتها كل امارات الشام . ولبثوا زهاء قرن يترددون في انحائها بالاغارة والغزو والقتل والنهب يحاربون المسلمين تارة والفرنج (الصليبيين) أخرى . ومن قتلوا من أمراء الفرنج ريمون كونت طرابلس قتلوه في سنة ١١٥٢ م . ونشبت الحرب حيناً بينهم وبين « فرسان المعبد » وعم طائفة سرية من الفرنج الصليبيين سنائي على سيرها . ثم تفاهما بعد ذلك ولعبا أدواراً في الحروب الصليبية وتقلبا في محالفة المسلمين والفرنج . فلما استرد صلاح الدين بيت المقدس من الصليبيين سنة ٥٧٢ هـ . سار لقتال الاسماعيلية وحاصر مصبات أمنع قلاعهم في الشام ، فلما اشتدت عليهم الحال ، بعث مقدمهم سنان (شيخ الجبل) الى شهاب الدين صاحب حماه وهو خال صلاح الدين ليشفع فيهم عند صلاح الدين ويهدده ان لم يفعل ، فخشي شهاب الدين عذر الاسماعيلية وتوسط بالصلح بينهم وبين صلاح الدين ، فعفا صلاح الدين عنهم ورفع الحصار عن قلاعهم

ثم توالى غزوات الامراء السلاجقة والأتراك لاقلاع الاسماعيلية في فارس والشام . فسار اليهم الامير ايتغمش صاحب همذان سنة ثلاث وسمائة وحاصر قلاعهم الواقعة في شمال فارس وافتتح عدة منها . ثم زحف اليهم جلال الدين منكبرتي بن خوارزم شاه لقتلهم بعض أمرائه غيلة ، فحاصر الموت ، وخرب قلاعهم في خراسان ، وأمن فيهم قتلاً ونهباً وسبياً وذلك سنة عشرين وسمائة ولما استفحل أمر الأتراك ، واكتسحوا فارس ، وافتتحوا بغداد وقضوا على الدولة العباسية سار هولاكو سنة خمسين وسمائة من بغداد الى خراسان ، واشتد في مطاردة الاسماعيلية ومحاصرة قلاعهم تخربها ومزقها شرمزق وسحق دولتهم في فارس . ثم سار الظاهر ملك مصر بعد ذلك الى قلاعهم التي بالشام تخرب معظمها وافتتح مصبات ، والتقى الاسماعيلية سلاحهم ودخلوا في طاعته وزالت دولتهم في الشام كما زالت في فارس ، ولم تبق منهم سوى جماعات صغيرة ، تفرقت هنا وهناك . ولبثوا حيناً بعد ذلك آلة في يد الامراء والمتنافسين يستعملونهم في قتل أعدائهم غدرأ وغيلة حتى استحالوا الى شراذم صغيرة من السفاكين والقتلة ولم تبق لهم أية أهمية سياسية

١٠ - وقد رأينا أن الاغتيال المنظم كان أمضى سلاح في يد الاسماعيلية . وقد كان الرفاق والفدائيون عماد هذا السلاح الرائع ، وهذا هو الجانب الروابي حقاً في

سيرة هذه الجمعية السرية الهائلة . ذلك ان أولئك الفدائيون كان يؤتى بهم أطفالا الى منازل المقدمين والدعاة فيربون منذ الحداثة على مبادئ المخاطرة والتضحية المطلقة واحتقار الحياة البشرية ، ويعلمون ان قوام الاسلام الصحيح هو بذل النفس ، وان الحياة الدنيا انما هي تجربة خلو من النعم الحق لا تعدل في متاعها وآلامها ذرة من رغد الحياة الاخرى ونعيمها الباذخ ، وان السبيل الحق الى اكتساب الجنة والتغلب في نعماتها وسعادتها الخالدة هو اقتداء النفس بعمل من أعمال الدنيا . وكان الزعماء يتلمسون لبث هذه العقلية الرائعة في نفوس أولئك الفتيان أغرب الوسائل ، من ذلك انهم كانوا ينشئون حول قلاعهم الحدائق الفيحاء وقد غرست فيها أطيب الفواكه ، وأزكى الازهار والورود ، وصنعت الفوارت والشلالات البديعة ، وأقيمت الرواشن البلورية والابهاء الفخمة وجهزت بأنفس أنواع الرياش والبسط والديباج ، وغصت بالغيد الكواعب يطفن بأقداح ذهبية من الخمر . وكان من يرى فيه النجاة والاخلاص من الفتية الفداوية يدعى الى مجلس شيخ الجيل ويسقى جرعة من الخدر ولعله الحشيش^(١) ، ثم ينقل خفية الى احدى هذه الحدائق الغناء ويرج به الى احدى الابهاء الفخمة فتوقظه ألحان الموسيقى الشجية وخرير الفوارت الشعري ، ويحيطه الغيد والغلمان ، ويسقى أطيب الخمر ، ويتمتع ماشاء بهذا النعم . ثم يسقى الخدر ثانية وينقل خفية الى مجلس شيخ الجيل وقد رتب على نظامه الاول ، فاذا انتبه أكد له الشيخ انه لم ينتقل من مكانه ، وان الذي رآه وآنسه في ذهوله انما هو الفردوس ولذاته ، وانه يفوز بهذا الفردوس الى الابد بحسن طاعته وبذل نفسه . فيلتبس الفدائي من إمامه فرصة للتضحية وبذل النفس فيدفع به الامام الى قتل واحد ممن تقرر قتلهم من خصوم الطائفة من الامراء والوزراء والفقهاء وغيرهم . وبهذه الوسيلة استطاع الاسماعيلية أن يحشدوا فرقة هائلة من فتيان مخاطرين ، لا يرهبون الموت بل يطلبونه ، ويطاردون فرائسهم بعزم لا مثيل له في تاريخ الجريمة

(١) سمي الفرنج الصليبيون الاسماعيلية بالقتلة (assassins) وامل ذلك لامانهم في الاغتيال والقتل ، أو لعله كما يرى البعض تحريفاً لكلمة حشاشين التي ربما أطلقت على الاسماعيلية في هذه المصوّر بسبب طريقتهم في استعمال الخدر - الذي ربما كان الحشيش - في اغواء الفدائيين في ذكرناه

وهكذا بسط الاسماعيلية على المشرق نظام ارهاب حق «وانبت الرفاق والفداوية شرادهم في الاقطار الاسيوية فأظلم بهم وجه الارض . ونجد في تاريخ الاسماعيلية ثباتاً من مشاهير الرجال من جميع الامم سقطوا ضحايا الاسماعيلية بين غبطة القتل وأسف العالم» ثم ارتدت هذه الوسائل الدموية الغادرة في النهاية الى صدور السفاكين انفسهم، وصوب المرحبون سهامهم بعضهم الى صدور بعض ، فقتل شيخ الجيل بيد ابنه محمد ، وقتل محمد مسموماً بيد ابنه جلال الدين بينما كان يفكر هو في قتله ، ثم قتل جلال بالسم ايضاً . وهكذا سقط شيوخ الجيل من عهد الحسن الصباح الى نهاية خلفائه صرعى بأيدي الاقربين اليهم، وهياً لهم السم والخنجر ذلك القبر الذي حفره الاسماعيلية لكثير من الضحايا^(١)

وقد انقرض الاسماعيلية كطائفة سرية ثورية ولم يبق الآن منهم سوى شرادهم صغيرة في فارس وعلى سواحل الهند وفي الشام في حماه وحلب ودمشق . وهم أهل نشاط وكرم وحسن ونسائهم فائحات في الجمال ، وحرقتهم التجارة والزراعة وصناعة الخبز . ولم يبق لهم بالطبع أية سطوة أو أهمية سياسية . ولم ينسب اليهم شيء من أعمال الاغتيال والسفك التي عرفت عن اسلافهم . غير أنهم ما زالوا يكتسبون تعاليمهم ومبادئهم ، ويحرصون على اجراء شعائرهم في الخفاء^(٢)

١١ - هذا هو تاريخ الثورة على الاسلام ، وهي ثورة اشتهرت عليه منذ نشأته تارة في الجهر وتارة في الخفاء ، غير انها كانت في جميع اطوارها ترمي الى هدم تعاليم الاسلام الاولى وتحريفها بما يلائم مطامع الخارجين والدعاة توصلا الى نيل الملك في النهاية . وقد فازت هذه الثورة بغاياتها ايما فوز ، فمزقت وحدة الاسلام منذ البداية ، وشطرت جبهته الموحدة الى دول عدة ، وسحقت تعاليمه في كثير من العصور والدول وأقامت فوق أنقاض هذه التعاليم مجتمعات جديدة تستمر مع ذلك بمبادئ الاسلام ، وتشق طريقها الى السلطان باسمه وهي لا تكاد تحتفظ بشيء من أصوله وتعاليمه ، بل

(١) هذه رواية فون هامار ولكننا لم نجد في المراجع العربية ما يفيد أن الحسن الصباح مات قتيلاً (٢) البستاني في دائرة معارفه . وذكر لي الاستاذ الجليل احمد زكي باشا أنه أثناء رحلته في الشام سنة ١٩٢٥ قابل زعماء الاسماعيلية في دمشق وحماه وحادثهم في أحوالهم وشؤونهم

من الصعب أن تعتبر في عرف المحافظين وجهابذة السنة مسلمة فقد كانت مبادئ ابن ميمون على ما رأينا مادية محضة ، عريقة في الإنكار والالحاد ، تستند الى تعاليم الوثنية واليهودية والمسيحية وبالاخص الى الفلسفة اليونانية أكثر مما تستند الى مبدأ من مبادئ الاسلام . وهذه المبادئ المادية التي ترمي كما رأينا الى سحق جميع تعاليم الاسلام الدينية والاخلاقية هي عماد الثورة على الاسلام ، وهي التي بعث بمجتمع القرامطة ، وكانت مهدياً لقيام دار الحكمة ثم لقيام الاسماعيلية

ونلاحظ أن هذه الثورة على الاسلام كانت أبلغ تقويضاً لتعاليمه وأشدّ أثراً في مصائره من الثورة على النصرانية . فان الحركات الثورية والسرية التي قامت لهدم تعاليم النصرانية ونحويرها كحركة الهووسيين وثورة الإصلاح البروتستانتية وحركة الالحاد الحديثة التي بدأت في منتصف القرن الثامن عشر وازدهرت في الثورة الفرنسية وبلغت ذروتها في الثورة الشيوعية ، وفي نظريات العلم الحديث - لم تصدع كثيراً من سلطان الكنيسة الروحي وان كانت قد أودت منذ بعيد بسلطانها السياسي . ذلك لان السلطة الزمنية لم تستند في الامم النصرانية دائماً الى التعاليم الدينية فكانت الكنيسة بعيدة عن التأثير بتقلبات السياسة والملك ، محتفظة بنفوذها الروحي في جميع العصور ، هذا الى أن النصرانية لم تقف جامدة في وجه الحركات الثورية التي قصدها بالهدم بل حشدت لمقاومتها جيوشاً من أنصارها المخلصين ، فأنشأت مجالس التحقيق ، ومهدت لانشاء طائفة من الجمعيات السرية الرجعية مثل التياتين والبارنايت واليسوعيين لترد عن تعاليمها ونفوذها عادية التقويض والهدم . أما السلطة الزمنية في الاسلام فكانت تستند كما رأينا الى التعاليم الدينية في معظم العصور ، ومن ثم كان الدين ضحية الاطماع السياسية دائماً وكان بطش الحركات الثورية بالاسلام شديداً دائماً

وفي وسعنا أن نلاحظ أيضاً أن ثورة الهدم التي تشهرها الان تركيا الفتاة على جميع التعاليم والتقاليد الدينية والاجتماعية والاخلاقية ليست الا طوراً جديداً من أطوار الثورة على الاسلام ، فقد سحق الترك الخلافة ورسومها ، ومحووا أحكام الشريعة الاسلامية حتى أصولها الجوهرية كاحكام الميراث والزواج ، واستبدلوها بقوانين غربية محضة وأسبنوا عليها صبغة اجتماعية مدنية ، فزعموا بذلك عن الاحوال الشخصية الاسلامية صبغتها الدينية التي احتفظت بها في جميع العصور وما زالت

تحتفظ بها في جميع المجتمعات الاسلامية الاخرى . غير أن ثورة التجديد التركية
ثورة محلية قومية ولا تشبه في شيء تلك الثورات العامة الشاملة التي أتينا على
ذكرها^(١)

(١) نرى من الضروري أن نلفت النظر الى أننا قد رجعنا في كتابة هذا القسم الخاص
بالثورة على الاسلام الى المصادر السنية فقط واعتمدنا عليها فيما نقلنا من مبادئ الفرق التورية
الاسلامية وتعاليمها وسيرها ، اذ لا توجد لهذه الفرق آداب وسير خاصة بها يعتمد على صدقها
ومن المحتمل أن التحامل او المبالغة بل الافراء قد تشوب هذه المصادر السنية الخصيمة ، وعلى
ذلك فانا نعتقد أن شيئاً من الغموض ما زال يحيط تاريخ الثورة على الاسلام ، وان أقوال
المصادر الخصيمة يجب ان تتلى مع التحفظ

الكتاب الثاني

الثورة على النصرانية

والجمعيات السرية والحركات الهدامة التي قامت لهدمها

الفصل الاول

جمعية فرسان المعبد

• Les Templiers

(١) الحروب الصليبية وسية انتقال النظم السرية الى الغرب . فرسان المعبد ونشأة جمعيتهم .
انحرافهم عن مبادئهم (٢) سوء سمعتهم . محاكمتهم في فرنسا . التهم التي نسبت اليهم . تحقيق
البابا . مطاردة الفرسان في بقية الدول . حل الفرسان . اعدام الاستاذ الاعظم (٣) اشتداد
بأس الفرسان حقيقة التهم التي نسبت اليهم . تعاليمهم السرية . التماثل بينهم وبين الاسماعيلية .
خروجهم على النصرانية (٤) رواية حديثة عن فرسان . سر اخلاف بينهم وبين البابوية .
رسومهم في الالتحاق . غايتهم الحقيقية

١ - نتقل الآن الى الجمعيات السرية الغربية ، والى الدور الذي قامت به في
تاريخ العصور الوسطى والحديثة ، والى ما كان لها من أثر في مصائر الكنيسة
والمجتمعات والدول

لم تعرف أوروبا قبل الحروب الصليبية انشاء الجمعيات السرية على مثل شامل عام
كالذي عرفه المشرق ، والاسلام بنوع خاص ، فكانت الحروب الصليبية وسيلة لوقوف
الدعاة وأصحاب النظريات الثورية وأحرار المفكرين من أبناء الغرب ، على أسرار الجمعيات
السرية ونظمها ، والحزكات الهادمة وخططها ، من شيوخ الاحرار والدعاة وأقطاب
الهدامين والمتأمرين في المشرق . وقد رأينا ان دعوات الهدم والجمعيات السرية بلغت
في الاسلام ذروتها من الاحكام والازدهار ، فعن المسلمين أخذ الغريون نظم الجمعيات
السرية الدينية والسياسية ، وعلى مثل القرامطة والاسماعيلية وتعاليم دار الحكمة
انشئت معظم الجمعيات السرية في الغرب وبالأخص معظم جمعيات الاغتيال المنظم
مثل الكريوناري والنهليست ، والاخوان الجمهوري الارلندي وغيرها .

عرف الغريون هذه المبادئ والنظم في مهاد الحروب الصليبية كما عرفوا غيرها
من نظم المشرق وشؤونهم . وكانت أول جمعية سرية منظمة انشئت على أثر هذا الاحتكاك
بين المشرق والمغرب هي جمعية فرسان المعبد ، انشئت في سنة ١١١٨ م . أي عقب انتهاء
الحرب الصليبية الاولى وسقوط انطاكية وبيت المقدس في يد الصليبيين وتعيين
جودفروا دي بويون ملكا على بيت المقدس بتسعة عشرة سنة . وقام بانشاؤها عصبة

من تسعة سادة فرانسيسين برياسة هوك دي بايان وجودفروا دي ساتومار لتعني بحماية حجاج القبر المقدس ، وكان ملك بيت المقدس حينئذ بلدوين الثاني فقدم للجمعية منزلاً لتقيم فيه بالقرب من موقع معبد سليمان ، ولهذا سميت بفرسان المعبد واشتهرت بذلك الاسم . وفي سنة ١١٢٨ صادق مجلس تروي المقدس على انشاء الجمعية ، وكذلك صادق عليه البابا ، وأصدرت لفرسان المعبد وثيقة اقسموا فيها بالزمام الفاقة والعفة والطاعة شعاراً للجمعية

قام فرسان المعبد بادىء بدء بصائفة من الاعمال القيمة وامتاازوا بالاخلاص والشجاعة في كثير من المعارك ، ولكن التزامهم ألا يعيشوا من غير الصدقات أدى الى أن تباطرت عليهم الهبات الضخمة من كل صوب ، فكثرت أموالهم ونبذوا قسم الفاقة وانتشروا في الاقطار الاوربية وغدوا قبل نهاية القرن الثاني عشر جمعية غنية شديدة البأس ، وغدت المعارك الصليبية لهم مصدراً للجاه والثروة وناهض زعمائهم الملوك في الفخامة والسلطان والبذخ فانقلبوا من حماية اخوانهم في الدين الى سلبهم ومن مخالفة الصليبيين الى نبذهم بل خيانتهم ومحاربتهم في بعض المواقف ، من ذلك ما ينسب اليهم من أنهم كانوا على تفاهم مع حامية دمشق الاسلامية حينما أخفق الامبراطور كونراد الثالث في الاستيلاء على المدينة سنة ١٢١٩ ، وأنهم في سنة ١١٤٥ باعوا الى المسلمين أميراً مسلحاً أراد ان يتنصر بمبلغ ستين الف دينار . ثم أنهم في سنة ١١٦٦ سلموا بطريق الخيانة حصناً الى الملك نور الدين فشنق اموري ملك بيت المقدس ، منهم اثني عشر كذلك ينسب اليهم أنهم كانوا على اتصال باسمائيلية الشام ، وشركاء لهم في تدبير عدة من جرائم الاغتيال التي ذهب ضحيتها عديد من امراء الفرنج وكبار فرسانهم

٢ - وفي أواخر القرن الثالث عشر ساءت سمعة فرسان المعبد ، وغدوا موضعاً للريب في نظر العامة فضلاً عن رجال الدين ، ونسبت اليهم أمور وفضائح كثيرة كالادمان في شرب الخمر والتهتك والاجترأ على الكبار ، وحامت شبه كثيرة حول مبادئهم الدينية ومعتقداتهم السرية حتى ان البابا كلنضس الخامس في سنة ١٣٠٥ أمر أساذهم الاعظم وهو يومئذ جاك دي مولاي أن يغادر قبرص حيث كان يعنى بتنظيم القوات الصليبية ، فعاد الى فرنسا مع ستين من اعضاء الجمعية ، ومقدار كبير من المال والفضة والحلي التي جمعها الفرسان في المشرق . وأخذ البابا في تحقيق ما اتهم به الفرسان من الارتداد عن دين النصرانية واعتناق مبادئ الوثنية ، والاغراق في

صنوف الكفر والكبائر . وكان فيليب الجميل ملك فرنسا على وفاق مع الفرسان بادىء بدء ، غير أنه ارتاع بعدما أذيع عن مبادئهم ومقاصدهم السرية من التهم الشنيعة فسبق البابا الى مطاردتهم ومحاكمتهم وقبض على جميع فرسان المعبد الفرنسيين في أكتوبر سنة ١٣٠٧ ، ووجه اليهم المحقق العام التهم الآتية :

(١) ان رسوم الالتحاق بجمعيتهن تقترن باهانة الصليب ، وانكار المسيح ، وأعمال فجور شنيعة

(٢) أنهم يعبدون صنما يقال انه صورة لآله الحقيقي

(٣) أنهم يغفلون الفاظ التقديس حين الفاء القداس

(٤) ان زعماءهم يزاولون حق منح الغفران مع أنهم ليسوا من رجال الدين

(٥) أنهم يبيحون ارتكاب العمل الاجتماعي الشاذ

وقد اعترف بهذه التهم كثير من الفرسان ومنهم الاستاذ الاعظم جاك دي مولاي نفسه ، وقرر بعضهم أنهم عند التحاقهم بالجمعية يقدم اليهم صليب نصب عليه تمثال للمسيح ويسألون هل يعتقدون في ألوهيته فاذا أجابوا نعم قيل لهم أنهم على ضلال لان المسيح ليس الها بل هو نبي زائف . وقرر آخرون انه قدم اليهم صنم أو رأس ملتحية ليعبدوه ، وآخرون أنهم كانوا يؤمرون بالبصق على الصليب ، وكثيرون منهم أمروا بارتكاب صنوف شائنة من الفجور مثل العمل الاجتماعي الشاذ وألذروا بالسجن والعذاب اذا رفضوا امتثال الاوامر . ثم قرر البابا كليمنضس الخامس رغم احتجاجه على تصرف فيليب الجميل أن يجري بشأن هذه التهم تحقيقاً حراً ، لان تحقيق المحقق العام الفرنسي كان مقروناً بالتعذيب ، فسمع المحقق أقوال عدد كبير من الفرسان بحضور البابا نفسه ، واستجوب الاستاذ الاعظم جاك دي مولاي ودعاة الجمعية امام لجنة من الكرادلة ، فأقروا بما نسب الى الجمعية من انكار المسيح وإهانة الصليب ، وأيدوا ما قرروه أمام المحقق الفرنسي العام من ارتكابها لطائفة من الرذائل الممقوتة ، ومع ذلك لم يقتنع البابا باجرام الجمعية بصفة عامة وقرر أن يعين لجنة بابوية للتحقيق في باريس فبدأت عملها في نوفمبر سنة ١٣٠٩ ، واستدعى الاستاذ الاعظم ونيف ومائتين فارس ، وسار التحقيق ببطء على يد جماعة من كبار الاحبار والاساقفة ، فعدل بعض الفرسان ومنهم الاستاذ الاعظم عن اعترافاتهم ، وأيد البعض الآخر صحة التهم الشنيعة التي نسبت الى الجمعية ، وسارت تحقيقات أخرى مع الفرسان في عدة من المدن الإيطالية وفي المانيا وانتهت بأن اصدر البابا كليمنضس الخامس قراراً اشار فيه « الى جرائم

الكفر الشنيع » التي يرتكبا الفرسان . وفي نفس الوقت قبض ادوارد الثاني ملك إنجلترا على جميع الفرسان في إنجلترا وحقق معهم فاعترف بعضهم بما تقدم من التهم ، وشهد أيضاً بصحتها شهود من الخارج

ولما اقتضحت أسرار فرسان المعبد على هذا النحو سخطت عليهم كل الهيئات الدينية في جميع الدول واتخذ البابا الخطوة الحاسمة ، وأصدر مجلس فينا المقدس في سنة ١٣١٢ قراراً بحل الجمعية فشرد الفرسان أينما وجدوا ، ولاقوا في فرنسا أشنع ضروب الاضطهاد والأيذاء ، فأحرق منهم أربعة وخمسون احياء في سنة ١٣١٠ ثم أحرق الاستاذ الاعظم جاك دي مولاي في مارس سنة ١٣١٤

٣ - ومع ذلك فقد نفى بعض المؤرخين عن الفرسان هذه التهم ونسبوا الى فيليب الجميل أنه حمل على مطاردتهم طمعاً في أموالهم وأملاكهم الشاسعة . ومهما كانت الحقيقة فانه يوجد ثمة ما يدل على أن الفرسان وصلوا في ذلك العهد الى حد مزعج من الجاه والسلطان والغنى يوباغ من خروجهم على السلطة الملكية أنهم كانوا يأبون دفع الضرائب . ومن المرجح أن فيليب الجميل خشي أن يتفاقم خطرهم على السلطة الملكية ، هذا الى ان دعوة الفرسان غدت في كثير من الاحوال خطراً على النظم الاجتماعية والاقتصادية بل الاخلاقية

والواقع أنهم تغفلوا في جميع النواحي والشئون ، ونظموا لهم فروعاً قوية في جميع البلدان وأحرزوا فيها الاملاك الضخمة ، وباشروا كثيراً من الاجراءات المالية التي تقوم بها البنوك اليوم كاصدار السندات والتحاويل ودفع الارباح عن الودائع ، وإدارة الحسابات الخاصة ، وكانوا فوق ذلك عضداً قوياً للسلادة والاحبار يفرضون لهم الضرائب على اقطاعاتهم ومحصلوها

والظاهر أن الفرسان كانوا بالنسبة للتهم التي وجهت اليهم مذنبين وأبرياء في نفس الوقت أعني أنهم كانوا يكشفون عن أسرارهم وتعاليمهم الدينية الى عدد من الدعاة المقربين وان السواد منهم كان يجهل هذه الاسرار او بعبارة أخرى كان للفرسان طريقتان في تجنيد الاعضاء تقترن احدهما بالانكار وانتهاك تعاليم الدين والاخلاق ولا تستعمل الا مع المخلصين من المتنورين وأحرار المفكرين ، والاخرى عادية للدهماء والكافة . وهذه هي خطة معظم الجمعيات السرية ولا سيما الاسماعيلية . وهذا ما يراه لوازير في كتابه عن تعاليم الفرسان حيث يقول : « اذا نحن رجعنا الى تعاليم جمعية المعبد كما وصلت اليها لم نجد قط ما يؤيد التهم الغريبة الشنيعة التي اذيعت

في التحقيق . ولكن ألم يكن للجمعية خلاف التعاليم العامة ، تعاليم أخرى سواء مكتوبة أو شفوية نخول أو تفرض ارتكاب هذه المنع ، أعني تعاليم سرية لا تكشف إلا للخاصة من الأعضاء ؟ »

أما تعاليم الفرسان السرية فموضوع خلاف كبير . يقول البعض ومنهم المؤرخ الألماني رانكه أن نظرية الفرسان السرية هي « نظرية الاسلام في وحدة الآله » ، ويقول آخرون أنها اشتقت من نظريات الملاحدين المسلمين ، وإن فارساً يدعى جيوم دي مونبار تلقى مذهب الاسماعيلية على يد شيخ الجبل في مغار في جبل لبنان حينما كان مركز الفرسان في فلسطين . وقد أشار فون هامار الى ذلك الشبه بين تعاليم الاسماعيلية والفرسان ، وأوضحه كلافل مؤرخ البناء الحر في قوله : « برينا المؤرخون الشرقيون في عصور مختلفة أن جمعية فرسان المعبد كانت ذات علائق وثيقة مع الاسماعيلية ، ويؤكدون التماثل بين الطائفتين ، فيقولون أنهما اخارتا نفس اللونين وهما الاحمر والابيض ، واتبعتا نفس النظام ، ونفس المراتب ، فكانت مراتب الفدائين والرفاق والدعاة في احدهما تقابل مراتب المبتدئ والمتهمي والفارس في الاخرى ، وإن كتاباتها تأمرت لهدم الدين الذي كانت تتظاهر باعتناقه أمام العامة ، وأخيراً إن كتاباتها كانت تملك حصوناً عديدة ، الاسماعيلية في آسيا والفرسان في أوروبا »

وعلى أي حال فقد كان الفرسان خوارج على النصرانية لا يؤمنون بالوهمية المسيح ، ولعلمهم كانوا مانوية أو ثنوية ، ويعرف لوازير نظريتهم في الالوهية بقوله : « يعترف فرسان المعبد في نفس الوقت باله خير لا يصل البشر اليه وليست له أشكال مادية ظاهرة ، واله شرير يمثلونه بصمم رائع الشكل ... وهو الاله الادنى ، منظم العالم المادي وسيده ، خالق الخير والشر ، الذي نفث الشر في الخليقة »

٤- وقد ذاعت في منتصف القرن التاسع عشر نظرية جديدة بشأن مذهب فرسان المعبد خلاصتها أن الفرسان تلقوا عن دعاة المشرق نظرية يهودية تنسب الى القديس يوحنا الرسول ، وأنهم لذلك نبذوا دين القديس بطرس وانقلبوا يوحنيين . ورجع هذه النظرية الى رواية ظهرت في أوائل القرن التاسع عشر في كتابين عن فرسان المعبد أصدرتهما جمعية تسمى « جمعية المعبد » تدعي أنها تنسب مباشرة الى جمعية المعبد الاولى . وقد جاء في هذين السقرين أن جمعية المعبد لم تنحل قط بل وجدت على كر العصور منذ أيام جاك دي مولاي الذي اختار قبل مصرعه جاك دي لارميني أستاذاً أعظم مكانه ، وإن الاساتذة العظام تعاقبوا دون انقطاع من ذلك الحين حتى

نهاية القرن الثامن عشر . ثم انحلت الجمعية مدى أعوام قليلة ، ولكنها أعيدت ثانية في سنة ١٨٠٤ برئاسة أستاذ أعظم هو فابري بالابرا . ووردت في أحد السفرين صورة وثيقة استخرجت من محفوظات الجمعية السرية تصف أصل الجمعية وتقرر أن هرك دي بايان أول أستاذ أعظم للفرسان قد تلقى في سنة ١١١٨ أي عام انشاء الجمعية نظرية « الكنيسة النصرانية الاولى » التي ينتسب حبرها الأكبر مباشرة الى القديس يوحنا الرسول . ويقول فابري بالابرا في كتابه عن الفرسان أن نظرية الفرسان السرية كانت بالاريب تخالف تعاليم الكنيسة الرومانية بحيث يجب أن ننسب نشاط البابوية في مطاردة الفرسان الى هذا السبب ويروى عن الجمعية ما يأتي :

« في سنة ١٣٠٧ أخفى الفرسان كتبهم ووثائقهم السرية عن السلطات فأودعت في مخابئ ، أمينة حتى هذا العصر (أوائل القرن التاسع عشر) . وقد غدونا اليوم على يقين من أن الفرسان كانوا يحوزون عدة اختبارات دينية وأخلاقية قبل أن يصلوا الى مراتب الالتحاق المختلفة ، فمثلاً قد يؤمر المبتدئ أن يطاء الصليب او يعبد الصنم بحيث يعدم اذا فعل ، فاذا استسلم الى الرعب الذي أريد أن يلتقى في نفسه اعتبر غير اهل لان يرقى الى المراتب العليا ، وفي وسعنا أن نتصور من ذلك كيف أن بشراً أضعف أو أدنى خلقاً من أن يحوزوا هذه التجارب قد آتهموا الفرسان بارتكاب الفعال الشنيعة واعتناق التعاليم الخرافية »

ومهما كان لون الاتحاد الذي اصطبغ به مذهب جمعية المعبد ، فلا ريب انها كانت جمعية هدم تعمل في الخفاء على سحق المعتقدات الدينية من أساسها ، وذلك برغم الفروق الدينية التي نشأت فيها ، ورغم الصبغة الدينية التي انتحلها في المبدأ . وبينما كان الاسماعيلية في المشرق يعملون على تحطيم تعاليم الاسلام الدينية والاخلاقية ، كان فرسان المعبد في الغرب يعملون على تحطيم تعاليم النصرانية ، ومحور رسومها

الفصل الثاني

عصور السحر والخفاء

القسم الاول

(١) تطور الهدم والاحاد . قيام الالبيين دعة الاحاد . مراتبهم ومبادئهم . أحلهم وذبيوع دعوتهم . نشاط الكنيسة الى مطارديهم (٢) تعاليم الالبيين وشعارهم . القداس الاسود (٣) عبادة الشيطان أو السحر الاسود . الصراع بين دعائه وبين الكنيسة (٤) حيل دي رتن . تحالفه مع السحرة . مراسسته لشيطان . جرائمه . محاكمته واعدامه (٥) انتظام السحرة الى طائفة . ذبيوع الخفاء . مطاردة السحرة . نظرية السحر (٦) اصل دعوة الخفاء . اليهود والدعوات الهدامة . مدرسة اسحاق لوريا . اليهود أقطاب السحر . اتهامهم بالشعائر الدموية . التوصل الى الشيطان فكرة يهودية (٧) طور جديد لدعوة الخفاء . جمعية الصليب الوردي . أصلها وقصة نشأتها . الاخ روزنكرويتس . قوانين الصليب الوردي (٨) فلسفة الصليب الوردي . العلاقة بينها وبين جمعية الفرسان . علم الصليب الوردي . نزعتها الروحية وغايتها الهدامة

— ١ —

القداس الاسود

١ - لم تخدم دعوة الهدم بمطاردة الفرسان وحل جماعاتهم ، ولكنها نفذت في الواقع الى أعماق البيئات المظلمة في مختلف الدول الاوربية ، واتخذت مبادئ الاحاد والثورة على الدين أطواراً جديدة . ونهضت طوائف سرية أخرى في عهد الفرسان أنفسهم لبث الدعوة الهادمة والعمل على تقويض النصرانية ومبادئها الدينية والاخلاقية اتخذ هذا التطور شكلاً واضحاً في أواخر القرن الثاني عشر حيث ظهرت في جنوب أوروبا وفي غربها جماعات كثيرة ملحدة ، واجتمعت هذه الحركة المشتتة في جنوب فرنسا تحت لواء جمعية جديدة تعرف بالالبيين « Albigenses » نسبة الى البي احدى المدن التي كان للجمعية فيها مركز كبير . وكان مركزها العام في مدينة تولوز . وكان الالبيون نصارى في الظاهر غير أنهم كانوا في الواقع جمعية ثورية هادمة تعتق في الخفاء تعاليم المانوية والتنوية ، وتنقسم طبقاً لنظم الجمعيات السرية الى مراتب مختلفة ، تضم الاولى جماعة المنتهين أو « الكمل » ، وقد كانوا فئة قليلة يتظاهرون بالزهد والتقشف ولا يأكلون اللحم ، ويعتقون الحلف والكذب ، وكانوا موضع الاحلال العميق

والخضوع الاعمى من أبناء المرتبة الثانية وهم « المؤمنون » . وقد كان سواد الجمعية يعتقدون كل رذيلة ، ويحلون السلب والزنا والحث ، ويعتبرون الزواج فسقاً ، ويحلون معاشره المحارم وغيرها من صنوف الأثم . بيد انهم لم ينفذوا الى اسرار الجمعية وتعاليمها الخفية وقد كان علمها قاصراً على المنتهين

وأصل الالبيين غامض جداً ولكن المرجح انهم فريق الكاتاريين ، وهم طائفة إلحاد كبيرة ظهرت في بلغاريا وشرق الادرياتيك في القرن الثاني عشر ، واشتدت دعوتها وذاعت في أنحاء كثيرة ، وكان يجتمع تحت لوائها جموع شتى من الوثنيين والملحدن وأحرار المفكرين والسحرة . غير أنها لبثت مشتتة لا تجمعها حركة عامة . فلما قام الالبيون في جنوب فرنسا بدعوة الإلحاد والهدم الفت مهاداً خصيبة في لانجدوك بين الاشراف والسادة . وكان سكان هذا الاقليم حينئذ مزيجاً من القوط والغاليين والرومانين والساميين ، وكانوا ينزعون الى الثورة دائماً تارة على الحكام وأخرى على أحرار الكنيسة ، فاعتنق الدعوة الجديدة كل ناظم وكل مضطهد ، وهرع الى لوائها فلول الملاحدة والوثنيين والسحرة . وقامت على قول ميشيليه عصبة من كل اولئك الذين يسمعون الى الظلام ، ويعربون عن سخطهم بالتدنيس والإلحاد والجريمة ، لتحقيق قبل كل شيء غرضاً اجتماعياً ، فكانت عصبة المغلوبين والمضطهدين . واذا كانت قد اتخذت صبغة الدين الجديد ، فذلك لان الكنيسة كانت حينئذ تحكم المجتمع ، ولان الذي قام بالدعوة حزب قوي يعمل باسم الدين

اجتاحت الدعوة الجديدة جنوب فرنسا بسرعة ، وأصابته تعاليم الكنيسة بضربات شديدة ، ومال السادة والفرسان الى صنوف الاباحة التي بشها الالبيون ، فانتشر تعدد الزوجات والتسري ، واجتاح انفجور معظم الطبقات ، وانحلت الخلل والأخلاق ، وسحقت سيادة الكنيسة وهيبتها . وارتاع البابا انوسان الثالث لذلك الخطر الداهم فدفع سيمون دي مونتفور الى محاربة الالبيين ، واضطربت في الجنوب حرب صليبية في فاتحة القرن الثالث عشر ، مزق فيها الالبيون بعد معارك طاحنة وهلكت زهرة الفروسية والسادة في الجنوب.

٢ - وكانت خطة الالبيين في بث الدعوة تدور حول فكرة حديثة هي محاربة مبادئ الاخلاق والسلطة بالانضواء تحت لواء الشيطان ، والشيطان في تعاليمهم هو خصم الله الذي يسيطر على جميع النظم الاجتماعية التي ترهقهم وتعصف بحرياتهم ، ومن ثم كان للشيطان عبادة وكان له قداس ، وكان للملاحدة والسحرة اجتماعات خفية

كاجتماعات النصارى للصلاة والتعبّد . وهي فكرة تستند الى تعاليم المانوية القائلة بأن الخير والشر متكافئان في القدرة وان الشيطان كالله خالد قاهر . وهكذا أنشأ الاليون رسوماً جديدة للدين والعبادة ، وبدىء بإقامة ذلك القداس الغريب الذي يعرف « بالقداس الاسود » لاعتباره خروجاً على شعائر الكنيسة . وكان دعاة الالية يقيسونه ليلا في الغابات الكثيفة او الوديان السحيقة أو فوق رؤوس الجبال ، فتهرع اليه تلاميذهم من كل صوب ما بين سحرة وكفرة وأشرار وخوارج ، يعبدون الشيطان وينبون المسيح ، ويفرقون في صنوف الفجور والاباحة . وكانوا يقتفون أثر الاسماعيلية فيسقون المصلين المخدر قبل القداس ، ويوهمونهم بأن ما رأوه أثناء سباتهم من الاحلام اللذيذة والتصورات الجليلة إنما رأوه في عالم الشيطان وفي جنته التي تفتح أبوابها للمخلصين من عباده .

كانت الدعوة الالية ثورة خطيرة على تعاليم النصرانية السياسية والاجتماعية والاخلاقية ، سيما وقد لبثت رغم سحق الالبيين مستقى لتطورات جديدة من ثورة الاتحاد والهدم

— ٢ —

عبادة الشيطان أو السحر الاسود

٣ - أمنت الكنيسة في المطاردة ، ولكن الثورة على النصرانية لبثت تضطرم في الخفاء واتخذت التعاليم التتوية في أوائل القرن الرابع عشر وجهة جديدة ، هي ايثار الشر وعبادة الشيطان ، او التوسل بالقوى الشريرة الحفية على محاربة القوى الخيرية ، وبالظلمات على النور ، أو بعبارة أخرى السحر الاسود . وقد كان التوسل بالظلمات معروفاً منذ العصور الغابرة ، والسحر دولة ترجع الى أقدم المجتمعات الانسانية سواء في المشرق والمغرب ، ولكن حركة « السحر الاسود » التي ظهرت في خاتمة القرون الوسطى واجتاحت كل المجتمعات الاوربية كانت دعوة منظمة ، وثورة واسعة النطاق على سلطة الكنيسة وتعاليم النصرانية وان بدت في ظاهرها طائفة من الحركات المحلية المتقطعة

وفكرة هذا المذهب هي التدينس ، فلا تم شعائر التوسل بالشيطان الا بتدينس شعائر الذين ، وسحق أقدم رسومه ورموزه ، وهو ما يعنيه ابن خلدون في مقدمته بقوله : « ورياضة السحر كلها إنما تكون بالتوجه الى الافلاك والكواكب والعوالم العلوية

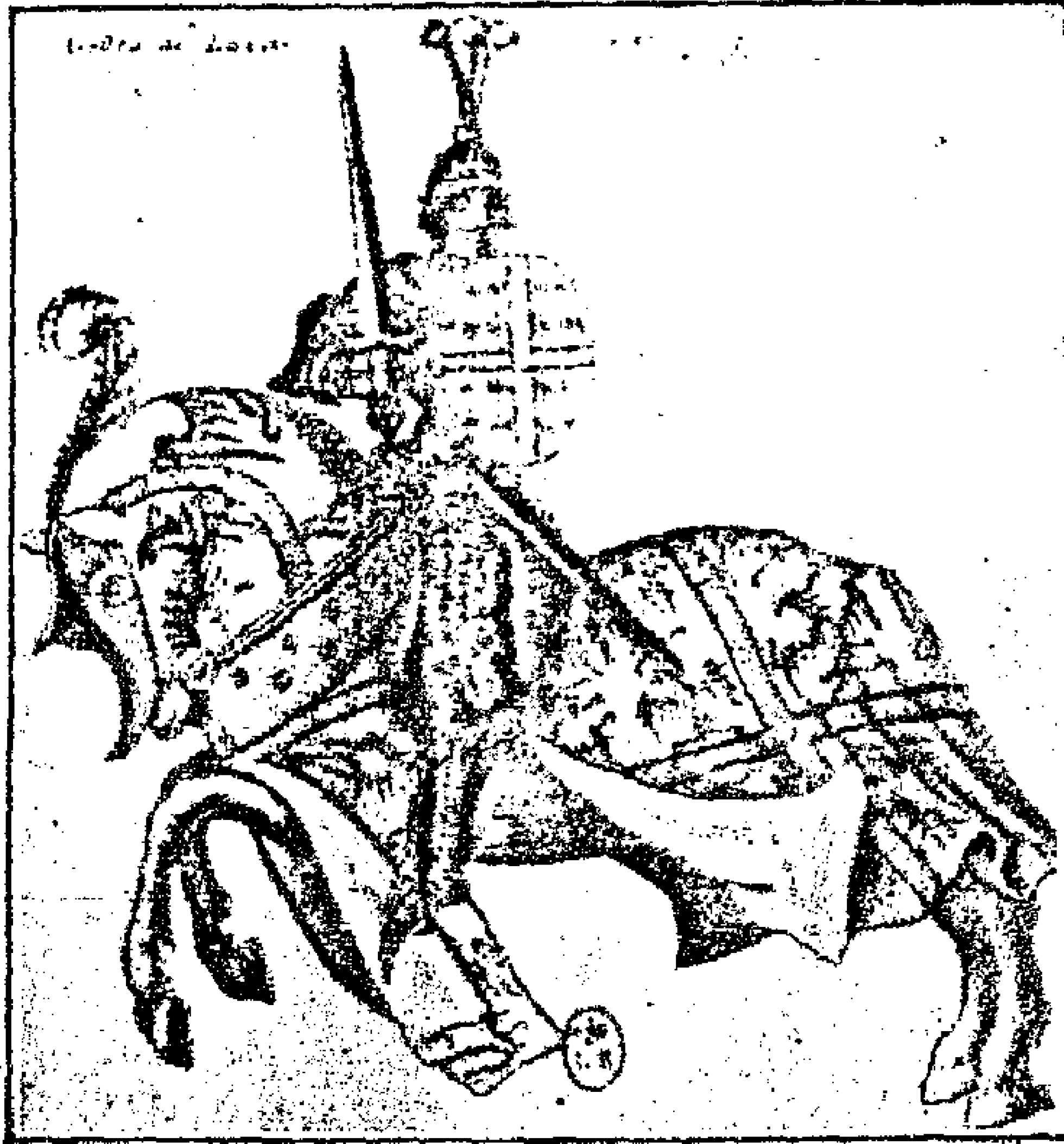
والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل ، فهي لذلك وجهة الى غير الله وسجوده له ، والوجهة الى غير الله كفر »

والواقع ان ريجاً عامة شاملة من شغف الحفاء لبثت نحو ثلاثة قرون تعبت بعقيلة المجتمعات الاوربية ، ونعمن في نخطيم التعاليم والتقاليد الدينية والكنسية ، ولبثت الكنيسة من جانبها تطارد هذه الحركة بما وسعت من قوة وعزم ، نارة بانشاء الجماعات الدينية الرجمية ، وأخرى بواسطة محاسن التحقيق ، وسنأتي بايجاز على سيرة هذه المعركة التي عملاً صحيفة من أغرب صحف العصور الوسطى

٤ - كان إمام المذهب الجديد واكبر دعاة الماريشال جيل دي رنز ، وهو فارس فرنسي شهير وُلد في مشكول من أعمال بريتانيا (فرنسا) في سنة ١٤٠٤ ، وخاض غمار المعارك الداخلية التي كانت تضطرم حينئذ بين الامراء الاقطاعيين ، ثم تولى القيادة في جيش جان دارك ، ورفع الى رتبة الماريشال ، وكان « للعدراء » عضداً ومرشداً حتى هزمت وأسرت وأحرقت . فارتد حينئذ الى ضياعه الشاسعة في بريتانيا ، وأطلق العنان لاهوائه وبذخه حتى بدد معظم ثروته وهو في شرخ شبابه . ثم فكر في التماس المال من طريق السيمياء ، واستقدم الكيمايين والسحرة من كل فج ولا سيما من ألمانيا وإيطاليا حيث كان للكيمياء والسحر شأن ، وكان يظهر أعظم الكيمايين والسحرة ، حتى غدا قصره معهداً للسيمياء والشعوذة ، ودفع به السحرة الى خوض غمار حياة غريبة من التماس الوصول الى عالم الغيب ، وتبديد الحفاء ، والتوسل بالشيطان . وكان الماريشال في المبدأ نصرانياً مخلصاً غير أنه ارتد عن دينه بتأثير حياته الجديدة التي تفرغ اليها بجسمه وروحه ، وحمله أصحابه السحرة على أن يلتمس مخالفة الشيطان بالمراساة ، فوجه اليه نداء وقعه بدمه يلتمس فيه منه « العلم والقوة والمال » متعهداً في نظير ذلك بالقيام بكل ما يطلبه اليه سوى الحياة والروح ، وألقى الرسالة في مرج من مروج مشكول ، ولكن الشيطان لم يظهر ولم يجب هذا النداء رغم التضمرات التي سيقّت اليه والصلوات التي أقيمت لذكّره

عندئذ ارتد جيل دي رنز الى حياة اثم رائعة ، وعكف على استعطاف الشيطان والتوسل اليه بأشنع ضروب الجريمة ، فاسرف في اقامة الرسوم والشعائر السوداء ، وامعن في الفسق وغيره من صنوف الاباحة والرذيلة ، وتدرج من ذلك الى احياء الشعائر الوثنية وازاقة الدماء البشرية ، فبث أعوانه في جميع الانحاء يخطفون ويعرقون الاطفال عشرات ومئات من بنين وبنات ، وكان الماريشال يتولى بنفسه تعذيب الفرائس

وارهاقها بأروع الاساليب ، وقد احتفى على هذا النحو مئات عدة من الاطفال في الانحاء المجاورة ما بين سنة ١٤٣٢ و سنة ١٤٤٠ . وضح أهل هذه الانحاء واستفأوا من ذلك الاجرام الشنيع بالسلطات الكنسية والمدنية . ووصلت الى أسقف تانت عدة بلاغات سرية عما يرتكبه جيل دي رتز من العبث والفجور وسفك الدماء وثبتت له الحقيقة الرائعة من تحرياته السرية ، فسعى الملك الى البابا في اصدار قرار كنسي بان جيل دي رتز « قد احتوى عليه الروح الخبيث ونبي سلامه » ، وانهى الامر بالقبض



جيل دي لافل - ماريشال دي رتز

على الماريشال في قصره في مشكول وتقديمه الى محكمة دينية مدنية متهما بالكفر والردة والاتصال بالشياطين ، وقتل الاطفال . وبدأت هذه المحاكمة الشهيرة في اكتوبر سنة ١٤٤٠ فانكر الماريشال بادىء بدء ما نسب اليه ، وكان ثبت الاتهام طويلا اسند فيه الى الماريشال انتهاك حرمة الدين ، ومحاولة الاتصال بالشيطان ، وقتل الاطفال تقرباً اليه ، مقروناً بجرائم « تدنس الهواء الذي يستشق » والفجور ، وتدنيس القداس وغيره من رسوم الكنيسة ، وقراءة الكتب المحرمة وغيرها ، ووصف الماريشال بأنه كافر ، فاسق ، أخ للارواح الخبيثة ، مشعوذ ، قاتل للاطفال ، مزاول للسحر ، مرتد ، وثني الى غير ذلك ، وأصدرت المحكمة حكماً بآبادة الماريشال ،

فثار الماريشال لذلك بادية، بدء غير أنه عاد بعد ذلك بيومين خاضعاً ذليلاً باكياً واعترف بجرائمه اعترافاً تاماً. « وكان الاعتراف هائلاً مروعاً حتى أن القضاة والسكينة الذين اعتادوا الوقوف على أشنع الاسرار والجرائم ارتجفوا رعباً لتلك الامور التي لم يسمع بمثلا ودرسوا اشارة الصليب » ثم صدر حكم الهيئة الدينية بنفي الماريشال من الكنيسة، وصدر حكم الهيئة المدنية في نفس اليوم بشنقه واحرقه، فقابل مصيره بشجاعة وثبات ٥ - والظاهر ان طائفة سرية منظمة لعبادة الشيطان ومزاولة السيمياء والسحر

قد أنشئت في ذلك العصر حوالي سنة ١٤٦٠، حيث اندس السحرة والمشعوذون الى جميع المجتمعات الاوربية وعهد في معظم الدول الى القضاء المدني بمحاكمة أعضاء هذه الطائفة لاستفحال أمرها واشتداد عيها. وكانت ميول العصر وتقاليده ترمي الى أن تلحق المخترعين والكيميائيين وغيرهم من النابهين بطائفة السحرة وأخوة الشيطان، وكان العلم يعتبر من العناصر الشيطانية حتى أن معظم العلماء والفلاسفة الذين كانت أفهامهم تسير على أفهام هذا العصر كانوا معرضين دائماً للريب والشبهات

ومنذ فاتحة القرن السادس عشر هبت على جميع المجتمعات الاوربية ريح عامة شاملة من دعوة الحفاء، وظهر السحرة في كل مكان، ونشطوا الى بث تعاليمهم ومعتقداتهم بين العامة فضلاً عن الخاصة والسادة، فنشطت السلطات الدينية والمدنية في مختلف الدول الى مطاردتهم اتقاء لما ينافها بسبب انتشار تعاليمهم من أسباب الانحلال والتفويض، ففي سنة ١٥١٥ أحرق في جنيف خمسمائة ساحر في ثلاثة أشهر فقط، وأحرق في بامبرج ستمائة، وفي فرمبورج ثمانمائة، وقضى برلمان تولوز باحراق أربعائة في حكم واحد. وكانت معظم طوائف السحرة في فرنسا تجتمع في الاقاليم النائية مثل غسقونية ونورماندي والفلاندر ودوفينه. ويعتقد جان بودان واضع سيرة السحرة أن عددهم كان يبلغ في ذلك الحين في مختلف الامم زهاء مليونين

وكانت فكرة السحر الجوهرية في هاتيك العصور هي مخالفة الشيطان. وهذا الميثاق إما صريح أو ضمني، وكل من قام بأعمال شيطانية يعتبر أنه قبل سيادة الشيطان. ونتيجة هذا الميثاق انكار التنصير إذ الشيطان على قولهم يمحو آثار الرسوم القدسية ويضع مكانها طابعه الخاص. ويجب على العضو طبقاً لهذا الميثاق أن يشهد الشعائر الرسمية والقداس السود وأن يشترك في ارتكاب جرائم التدنيس والقربان الدموي بسفك الدماء البشرية وغيرها من صنوف الفجور والآثام

٦ - وأصل هذه الدعوة السرية الى الحفاء والسحر محوطة بالغموض، وان لم

يك نمة شك في غايتها الجوهرية وهي هدم تعاليم النصرانية الروحية ومبادئها الاخلاقية، وتقويض النظم الاجتماعية من أسسها . ويرى بعض الباحثين مثل ديشان ^(١) ان هذه الدعوة ترجع الى تعاليم الكابالا السرية وهي التعاليم العبرية في أمور الخفاء ومدارك الغيب . ويضيف البعض الآخر الى ذلك ان هذه الدعوة التي اجتاحت أوروبا مدى قرون ثلاثة لم تكن سوى أثر من الجهود السرية التي يقال ان اليهود يبذلونها منذ ظهور النصرانية والاسلام في سبيل هدمهما انتقاماً لدينهم . ويرى بعض المفكرين المسلمين هذا الرأي فيما يتعلق بدعوات الهدم الاسلامية ولا سيما دعوة عبد الله بن ميمون التي أسفرت كما رأينا عن انفجار أعظم حركات هادمة عرفها الاسلام ، فيقولون ان اليهود هم الذين نظموا مقاومة الاسلام منذ ظهوره وحشدوا الدعاة لافساد تعاليمه ، وان ميمون بن ديسان وولده عبد الله كانا يعملان على بث مبادئها السرية في الاحاد والهدم بتحريض وتضيد من الدعاة اليهود ^(٢) . والواقع ان نفوذ اليهود استفحل في اوربا في القرن الخامس عشر وغدوا قوة حقيقية في اسبانيا والبرتغال وايطاليا ، ونفذوا في منتصف القرن الخامس عشر الى دوائر فيرنزا العلمية التي كانت زاهرة في ذلك الحين ، وأسس علامتهم اسحاق لوريا المدرسة الكابالية الحديثة في ايطاليا في منتصف القرن السادس عشر ، وصيغت تعاليمه الى منهج عملي للاتصال بعالم الغيب وكتابة الطلاسم ، وشعوذة الارقام والحروف . وعلى الجملة فقد كان اليهود أساتذة السحر وأقطابه في القرون الوسطى ، واليهام ينسب قولتير في قصته « هنرياد » الشعائر الدموية التي أتينا على ذكرها ويصفها في قطع شعرية بليغة منها :

في شبح الليل ، تحت قبو مظلم
يسود السكون اجتماعهم الدنس
وعلى ضوء مصباح سحري شاحب
يقام هيكل دنس فوق قبر
وقد نظمت السيوف فوق هذه الجدران الخالصة
تنفس أطرافها في أوعية من الدم
هي آنية منذرة خفائهم المرعب
وراهب هذا المعبد احد أولئك العبريين
الذين يفرون من اضطهاد الارض والناس كلهم
يجرون يؤسهم العميق من جدار الى جدار

(١) Deschamps : Les sociétés secrètes et la société

(٢) قد أشار ابن الاثير الى ذلك الرأي في كلامه عن اصل الدولة العلوية بافريقية (ج ٨ ص ٩)

وقد ملأوا منذ بيد كل الامم
بطائفة عتيقة من الاساطير والخرافات . . . الخ

ويقول قولير : « كان اليهود هم الذين يلتجئ اليهم عادة في تأدية الشؤون السحرية . وهذا الوهم القديم يرجع الى اسرار السكابالا التي يزعم اليهود انهم وحدهم يملكون أسرارها . وكانت كاترين دي مديتشي والماريشال دانكر وكثيرون غيرها يستخدمون اليهود من اجل هذا الامتياز » . وتهمة السحر الاسود هذه تنسب الى اليهود منذ أقدم العصور ، وكثيراً ما اتهموا بتسليم الآبار ، وارتكاب القتل اجراء للرسوم ، واستخدام الآنية الكنسية المبروقة لأعمال التدنيس . واذا كانت تشوب هذه الروايات مبالغة يملحها التحامل القومي ووهم القرون الوسطى ، فليس من ريب في أن اليهود قد جعلوا انفسهم موضعاً للريب والشبه بالانهمالك في مزاولة فنون السحر . وأكثر من ذلك ان التوسل الى الشياطين فكرة يهودية في الاصل ، بل هو من تقاليد اليهود ومعتقداتهم القومية ، فقد ورد في التلمود مثلاً : « اذا استطاعت العين أن تبصر الشياطين التي تعمر الكون كله كانت الحياة ضرباً من المستحيل ، ذلك لان الشياطين أكثر منا عدداً ، وهم يحيطون بنا من كل صوب ، ولكل منا على يساره ألف شيطان ، وعلى يمينه عشرة آلاف » ويعدد التلمود فوق ذلك الطرق التي يستطيع الانسان ان يبصر بها الشياطين وغيرها من ضروب التخريف والوهم

ولا ريب ان السحر كان قوة عظيمة في مثل هاتيك العصور التي كان يعصف فيها الجهل المطبق بعقلية المجتمع ، وكان للخرافات والتقاليد الدينية السخيفة على النفوس سلطان قاهر ، وكان التماس السحرة لعالم الخفاء والغيب فتنة خلافة الذهن البشري ، ومن ثم كان نفوذهم ، وكان انتشار تعاليمهم وطرقهم في جميع الاقطار هذا وسنعي في فصل قادم بالطور الجديد الذي تطورت اليه دعوة الخفاء والسحر في القرنين السابع عشر والثامن عشر وما كان له من اثر في مجتمعات هذه العصور

جمعية الصليب الوردي

أو صليب الندى

٧ - رأينا دعوة الخفاء في طورها السابق تتخذ صبغة الشعوذة الدينية وتستند الى الوسائل النفسية والروحية ، ولكن حركة أخرى تستند الى نوع آخر من

الاساليب والوسائل الخفية كانت تنتظم في ذلك الحين ، وتعنى بنجاحية في المباحث تميل نوعاً الى الصبغة العلمية فتحاول انزعاس أسرار الطبيعة ، بدرس العناصر وتذليلها وتحليل المعادن ، وتركيب الجواهر والعقاقير وغيرها . وكان قوام هذه الحركة جمعية سرية تعرف بجمعية الصليب الاحمر او صليب الندى Die Rosenkreuzer ، ظهرت لأول مرة في المانيا في أوائل القرن السادس عشر . غير أن أصلها كمعظم الجمعيات السرية غامض جداً الى حد أن البعض ينكر وجودها التاريخي

والظاهر أنها قامت على دعائمين الاولى تعاليم ثيوفراستوس فون هوهنهايم الذي يعرف باسم بارسيلسوس ، وهو ولد طبيب ألماني وُلد حوالي سنة ١٤٩٣ ، وتجهول في المشرق أعواماً طويلة ، وقيل أنه وقف هناك على تعاليم سرية نظمها بعد الى طريقة لمعالجة الامراض . وقد استقى بارسيلسوس بلا ريب معارفه هذه من تعاليم الكابالا السرية ، بيد أنه لم يكن من تلاميذها ، ولم يكن متآمراً أو مشعوذاً بل كان عالماً ناهياً ومفكراً مستقلاً . والثانية من تعاليم الكابالا نفسها ، وقد كان اليهود أبرع السبائين في هذه العصور وكانت المدرسة الكابالية عندئذ في ذروة الازدهار

وقد رويت سيرة جمعية الصليب الوردي لأول مرة في عدة نشرات صغيرة ظهرت في أوائل القرن السابع عشر وكانت أساساً لكل رواية كتبت عن هذه الجمعية حتى عصرنا . واليك ملخص القصة التي أتت عليها هذه النشرات تاريخياً لاصل جمعية الصليب الوردي

« ان ابانا طيب الذكر ، رفيع الفهم ، وأخانا ك . ر . اي كريستيان روزنكرويتس^(١) هو ألماني ، وهو رأس جمعيتنا ومؤسسها ، وُلد سنة ١٣٧٨ ، وفي سن السادسة عشرة سافر الى المشرق مع الاخ ب . ا . ل . الذي اعزم زيارة البقاع المقدسة . فلما وصلا الى قبرص توفي الاخ ب . ا . ل . وعلى ذلك لم يصل قط الى بيت المقدس . أما الاخ ك . ر . فقد سجع ببعض الحكماء في دمشق من بلاد العرب ، وبالعجائب العظيمة التي يقومون بها ، فسافر بمفرده الى دمشق وهناك استقبله الحكماء ، وعكف على درس الطبيعة والرياضة ، وعلى ترجمة كتاب «م» الى اللاتينية . ثم سافر الى مصر بعد ذلك بأعوام ثلاثة ، ومنها سافر الى فاس حيث تعرف بطائفة من الناس

(١) روزنكرويتس Rosenkreuz هي كلمة ألمانية مركبة معناها الصليب الوردي ، وقد يكون مقطعها الاول مشتقاً من أصل لاتيني هو ROS ومعناه الندى ، ومن ثم سميت الجمعية بصليب الندى

تعرف « بالاولين » فلتقى عنهم كثيراً من الاسرار . وكثيراً ما كان يقول ان سحر هذه الطائفة لم يكن نقياً ، وان تعاليمهم السرية كانت ممزوجة بدينهم ، ومع ذلك فقد استطاع أن يحني من تعاليمهم خير الفوائد . وبعد عامين غادر الاخ ك . ر . مدينة فاس وأبحر الى اسبانيا ومعه تحف ثمينة عديدة . وهناك اتصل بالحكام وباحثهم ، واذ كان لا يرضى بنشر شيء من أسرارهم ومعارفهم فقد بين كيف أنه يمكن انشاء جمعية في أوروبا تستطيع أن تحني من الذهب والفضة والاحجار الكريمة ما تستطيع أن تفيض منه على الملوك ما يسد حاجاتهم الضرورية وأغراضهم المشروعة . . . »

ثم عاد كريستيان روزنكرويتس الى المانيا حيث « لا ندعو الحاجة اليوم الى علماء أو سحرة أو كهابلين ، أو اطباء أو فلاسفة » وهناك بنى بنفسه منزلاً صالحاً أنيقاً « كتب فيه رحلته وفلسفته وأدبجهما معاً في أثر خالد حق » . وبعد خمسة أعوام قضاه في تأمل وتفكر عادت الى ذهنه فكرة الاصلاح المنشودة . فاختار بعض اخصائه مثل الاخ ج . ف . والاخ ي . ا . والاخ ي . و . وكان الاخير « عظيم الخبرة واسع الاطلاع على أسرار الكابالا كما يؤيد ذلك كتابه » ليؤلفوا معاً جمعية من الدعاة ، « وعلى هذا النحو بدأت جمعية الصليب الوردي » . ثم ضم اليها بعد ذلك خمسة اخوة آخر كلهم ألمان ما عدا الاخ ي . ا . وبني الثمانية بناءها الجديد المعروف « بالروح القدس » ، وأبرموا الاتفاق الآتي :

أولاً - يجب ألا يدعي أحدهم شيئاً سوى شفاء المرضى وذلك دون مقابل
ثانياً - يجب ألا يرغم أحد من الذرية على ارتداء زي معين من الملابس ، بل يترك ليختار زي بلده

ثالثاً - يجب أن يجتمعوا كل عام في يوم « س » في منزل « الروح القدس » أو بين الغائب بسبب غيابه

رابعاً - يجب أن يبحث كل أخ عن شخص فاضل يخلفه عند وفاته
خامساً - يجب أن تكون كلمة « ك . ر . » هي خاتمهم وطابعهم وشعارهم
سادساً - يجب أن تبقى الجمعية سرية لمدة مائة عام

ثم توفي الاخ كريستيان روزنكرويتس ، ولكن بقي تاريخ وفاته ومكانها والبلد الذي توفي فيه سراً لا يعرف . والتاريخ الجمع عليه هو سنة ١٤٨٤ . وفي سنة ١٦٠٤ اكتشف الاخوة الذين كانت تتألف منهم عندئذ الهيئة العليا للجمعية باباً كتب عليه بأحرف كبيرة ما يأتي : « يفتح بعد مائة وعشرين سنة » ، ففتحوا الباب ، فوجدوا

قبواً قد مدد فيه جسم روزنكرويتس تحت لوحة نحاسية ، وكان الجسم سليماً صحيحاً مشتملاً على جميع ملابسه وحليه ، رافعاً بيده الخاتم « ا » الذي هو أكبر ذخائرنا بعد التوراة ، وإلى جانبه عدد من الكتب بينها كتاب بارسيلوس الذي لم يكن عضواً في جمعيتنا

والآن يعرف الاخوة جميعاً أن سوف يحدث بعد حين « اصلاح عام في الامور الروحية والبشرية »

وبصرح الاخوة في وثائقهم هذه أنهم يؤمنون بالنصرانية ، ويقولون : ان فلسفتنا ليست بدعة ، ولكنها تتفق مع ما تعلمه آدم بعد سقطته ، وما استعمله موسى وسليمان . . . ، وعي التي استطاع افلاطون وأرسطو وفيثاغورس وغيرهم أن يقفوا على أسرارها ، والتي نبغ في معرفتها ابراهيم وموسى وسليمان ، وخصوصاً فيما تقول به « التوراة » ذلك الكتاب العجيب

٨٠ - والظاهر مما تقدم أن دعوة الصليب الوردي كانت طبقاً لهذه الوثائق مزيجاً من التقاليد السرية القديمة التي تناقلها الاحبار من فلاسفة اليونان ، ومن أقطاب الكابالا اليهودية . على ان الرواية المتقدمة لا تستند الى أساس تاريخي ، بل يرى البعض أنها خرافة محضة وان جمعية الصليب الوردي لم توجد قط ، وان كل ما ورد في النشرات كان خيالا ابتدعه شخص يدعى فالتين اندريا ليكون حلاً على تحقيقه . ويرى البعض الآخر ومنهم ميرابو الذي درس تاريخ الجمعيات السرية الالمانية أثناء إقامته في المانيا وكان بناءً حراً وعضواً في « الشعلة الباقارية » ان جمعية الصليب الوردي لم تكن سوى جمعية فرسان المعبد القديمة التي لبثت قائمة في الحفاء باسم جديد . ويقول ذي كانتلو في كتابه عن الفرق والجمعيات السرية ما يأتي : « ان الفرسان الذين تركوا الجمعية (جمعية المعبد) في فرنسا ، لاذوا بالاختفاء وانشأوا جمعية الكوكب الوضاء والصليب الوردي التي انتشرت في القرن الخامس عشر في بوهيميا وسيليزيا . وكان كل كبير من دعاة هذه الجمعية يلزم ان يحمل طول حياته صلياً احمر وأن يتلو في كل يوم صلاة القديس برنار » ويقول أيكرفي كتابه عن البناء الحر : ان رسوم جمعية الصليب الوردي ورموزها واسماءها استعيرت كلها من الفرسان ، وان الجمعية كانت تنقسم الى سبع مراتب على عدد أيام الخلق السبعة مما يدل على انها كانت ترمي الى كشف الحفاء ، والبحث في اصل الخليقة وأسرار الطبيعة . ولكن آخرين ينكرون هذه العلاقة بين فرسان المعبد وجمعية الصليب الوردي لان الفرسان لم يكثروا كيمائين ، ولم تكن لهم مزاعم علمية

بل كانوا طائفة سرية دينية خارجة على النصرانية . اما اخوة الصليب الوردى فكانوا قبل كل شيء جماعة علمية راقية . والظاهر أن جمعيتهم لم تكن في احكام النظام ، والتدرج في المراتب ، كجمعية الفرسان أو جمعية البنائين الاحرار ، وأنهم كانوا على الأرجح أفراداً متفوقين يعنون بالخفاء والمباحث الطبيعية . أما التمسك بأذيال الكتمان فقد كان محتوماً في عصر كان البحث العلمي يقرن فيه بالسيحر وينظر الى العلماء والمخترعين بعين الظنون والريب

على ان علم اخوان الصليب الوردى موضع الريب ايضاً ، فلم يثبت أنهم وفقوا الى شيء من الاختراعات العلمية أو فازوا بحل معضلات السيمياء وتحويل المعادن السفلى الى المعادن الكريمة وان كان الثابت أنهم كانوا كيمائيين ، وكانت السيمياء شغلهم الشاغل . وفي ذلك يقول وايت في كتابه عنهم : « اعتدنا ان نعتبر أعضاء الصليب الوردى بشراً ذوي مواهب راقية . وقوات خارقة ، وأنهم سادة الطبيعة وملوك العالم الفكري ، . . . ولكنهم يعترفون في وثائقهم أنهم ليسوا الا شعبة من الكفر اللوثرى ، تعترف بالسيادة الروحية لامير سياسي ، وتعتبر البابا عدواً للنصرانية ، وزعيم يضطرمون بنفس الشهوات ، ويعشقون نفس الافكار التي كانت لمن حولهم من الناس ، ان الصوت الذي يخاطبنا من وراء القناع الخفي لجمعية الصليب الوردى لا يأتي من عرش عقلي . . . »

أما نزعة الصليب الوردى الروحية فقد كانت عداءً للنصرانية وانكاراً لصفات المسيح . وذكر كاتب قديم : « ان الجمعية كانت عصابة من اليهود والكابالين العبريين يرى مذهبهم أن كل الاشياء تختفي في ظل جلال الحقيقة او في ظل الخفاء المقدس » وذكر آخر : « ان الشيطان كان إمامها ، ومبادؤها انكار الله ، والطعن في مبدأ التثليث وتحقير العذراء وجميع القديسين » ، وتوجه فوق ذلك الى الجمعية تهم أخرى كالتحالف مع الشيطان ، وقتل الاطفال ، وتركيب السموم ، والرقص مع الشياطين وغيرها . وعلى أي حال فانا نرى مما تقدم أن جمعية الصليب الوردى لم تكن سوى شعبة من شعب الثورة على النصرانية ، وثمره لحركة الهدم الشاملة التي كانت تقصد الى سحق جميع المبادئ الدينية والاخلاقية في العصور الوسطى

الفصل الثالث

عصور السحر والخفاء

القسم الثاني

(١) تطور أساليب الخفاء ، شغف السيمياء والسموم . سانت كروا والمركيزة دي برانفلييه . جمعية السحرة والسيمايين . انهمؤهم الى جمعية سرية . رئيسية . مراتب هذه الجمعية ورسومها . من هم زعمائوها . العلاقة بينها وبين الصليب الوردى (٢) ذروة الخفاء . فردريك مسمر وجمعيته السرية (٣) اقطاب السحرة ولافتين . الكونت سان جرمان وجمعيته . مناعمه وخرافته . لاسكاريس . كاجايوسترو وجمعيته . السحرة الآخرون . من هم أوائلك الدقة (٤) الخفاء الحديث . حركة الروحانيين

— ١ —

عصر السموم

١ - في منتصف القرن السابع عشر وصلت حركة الخفاء ذروتها ، وعصف بالمجتمع الاوربي وباء حق من الشعوذة وشغف الاحاطة بما وراء الطبيعة والغيب ، وذاع السحر في معظم الاقطار الاوربية ، وكثرت محاكات السحرة من الجنسين واعدامهم . وقد رأينا أن حركات الخفاء المتقطعة التي كانت تقوم في مختلف البلدان ترجع في النهاية الى أصل واحد ودعوة عامة ، مصدرها الكابالا اليهودية على أرجح الآراء ، وان اليهود قصدوا الى هدم النصرانية من هذا السبيل . وفي منتصف القرن السابع عشر اتخذت الحركة طوراً جديداً أيضاً فالت نحو أساليب جمعية الصليب الوردى . وظهر هذا التطور واضحاً في فرنسا في عهد لويس الرابع عشر حيث اجتاحت المجتمعات الراقية حمى المباحث الطبيعية ، ومحاولة استخراج الذهب من المعادن المنحطة وخاصة صنع السموم والمخدرات والمركبات الغرامية . وقد لبثت الحركة قائمة في الخفاء حيناً تروع الناس بأسرارها وضحايها حتى اكتشفت مأساة السموم الهائلة سنة ١٦٦٦ عقب موت الشفالييه دي سانت كروا والقبض على خليلته المركيزة دي برانفلييه . وكان سانت كروا من أبرع الكيمايين في عصره ، وأمهرهم في تركيب السموم الخفية ، وكانت خليلته المركيزة دي برانفلييه امرأة هائلة تشغف

بحياة الجريمة أيما شغف فلبثت أعواماً تدير مع خليلها سلسلة من الجرائم الهائلة ، وتجرب سمومه الخفية في أفراد أسرتها واحداً بعد الآخر حتى قتلت أباه وأخوها ، وكانت الفرائس تذهب واحدة فواحدة دون أن يخامر العدالة أدنى ريب في الحقيقة أو يهتدي الطب في ذلك الحين الى أي أثر للسم الخفي الذي كان يستعمل في ارتكاب الجريمة . وقد اكتشفت هذه الاسرار المروعة بطريق المصادفة عقب وفاة سانت كروا وعثور الشرطة بأوراقه وسمومه التي لم يهتد أحد الى تحليلها أو معرفة خواصها ^(١) .

وكان الاعتقاد بادىء بدء أن الامر يتعلق بمجرمين أفراد ، ولكن مباحث الشرطة أسفرت عن اكتشاف جمعية كبرى من السحرة والسيماثيين تراول السحر وضع المركبات والمسحوقات المختلفة من سموم ومخدرات وغيرها ، وأذيعت عنها يومئذ أغرب الروايات ف قيل أنها تراول عبادة الشيطان ، وتقريب الاطفال ، ومخاطبة الارواح والشياطين ، وتقيم القداس الاسود وغيره من رسوم الالبيين . وبلغ عدد المتهمين في تلك القضية الشهيرة مائتين وستة وأربعين متهماً حكم بالاعدام على ستة وثلاثين منهم ، وكشفت تحقيقاتها عن مفاجآت غريبة فقد ظهر أن المتآمرين حاولوا مراراً أن يقتلوا الملك وولي العهد وكولير ومدام دي لا فالير بواسطة السم ، وأن كثيرين من الخاصة وعظماء البلاط يلجأون الى السحرة والمسممين للانتقام وقضاء الحاجات ، حتى قيل ان مدام دي مونتسبان خلية الملك كانت تسعى الى استبقاء غرامه ووده باقامة القداس الاسود والاستعانة بالافوازان أشهر ساحرة في هذا العصر والرأي المعاصر ان اولئك السحرة والمسممين لم يكونوا افراداً متفرقين يعملون مستقلين ، بل كانوا ينتمون الى جمعية سرية كبرى ذات شعب وفروع في جميع الاقطار الاوربية . ذلك لان أساليبهم كانت مؤكدة وطرقهم في تنفيذ الجريمة محكمة سهلة تدلي بأنهم كانوا ينتمون اما مباشرة او بالواسطة الى جمعية اجرام كبرى تذلل الصعاب وتدرس الوسائل التي تسبغ على الجريمة مظاهر خادعة لا تثير الريب ، والخلاصة أنهم كانوا طائفة ، وكانوا بمدرسة . وتقارن مدام لانور في كتابها عن الاميرات والافاقات في عهد لويس الرابع عشر ^(٢) تلك الجمعية بعصابة مهربي المخدرات كالكوكائين وغيره من

(١) أتينا على تفاصيل هذه المأساة الغريبة في كتابنا « قضايا التاريخ الكبرى » الذي عنيت بنشره ادارة الهلال فلتراجع فيه

(٢) Th. Louis Latour , Princesses , Dames , et Aventurières du Règne de Louis XIV

السموم الاجتماعية ، وتقول ان مراتب هذه الجمعية كانت ثلاثاً : الاولى مرتبة الرؤساء . وهم رجال متعلمون أذكيا ، درسوا الكيمياء والطبيعة وغيرها من العلوم ، وهم مرشدون غير ظاهرين واسكن أقوياء ذوي نفوذ ، يمدون السحرة والعرافين بالقوة والنصح . والثانية مرتبة السحرة الظاهرين الذين يعنون بالتجارب الخفية ، والرسوم المعقدة ، والحفلات المرعبة ، والثالثة جمهور النبلاء والسادة الذين يهرعون الى ابواب السحرة ويملاؤن جيوبهم بالذهب ثمناً للمخدرات والمسحوقات والمركبات الغرامية والسموم احياناً . وعلى ذلك يمكننا أن نضع لافوازان الساحرة الشهيرة في المرتبة الثانية ، فهي رغم شهرتها وغناها ونعيمها الباذخ لم تكن الا يداً تحركها تلك الجمعية الهائلة ، وسر نجاحها في مشاريعها الكبرى يرجع الى نصيح زعمائها المفكرين من أعضاء هذه الجمعية

فمن كان اولئك الزعماء المفكرون ؟ ان اول من علم الشفاليه دي سانت كروا تحليل المركزة دي برانقليه تركيب السموم الخفية وأطلعها على خواصها وأسرارها هو كيمائي ايطالي شهير يدعى اكسيلي ، وقد التقيا سجينين في الباستيل وجمعت بينهما الشدة في أقيته السحيقة ^(١) ، ولكن الذي علم اكسيلي من قبل ثم عني بتعليم الشفاليه بعد ذلك هو كيمائي بارع الماني أو سويسري يدعى جلازر ، وقد كان طبيباً وصيدلياً للملك وللدوق دورليان ، والظاهر أنه كان يتبع تعاليم بارسيلسوس ، واعلمه فوق ذلك من تلاميذ الصليب الوردي ، ذلك لان الزعماء والمفكرين الذين كان المسجون يهتدون بنصحهم كانوا رجالاً يحسنون درس الكيمياء والطبيعة ومعالجة الامراض ومنهم من كان يعنى بتحليل المعادن والسيما ، أو بالحري كانوا يقتفون خطوات الصليب الوردي . والخلاصة ان الجمعية السرية التي كانت تضم اولئك الكيمائيين البارعين والمسممين الاذكاء والسحرة المدربين ، كانت على الأرجح ، شعبة من الصليب الوردي أو كانت هي بذاتها تطورت الى شكل جديد ، لان الجمعية الاولى التي أنشأها الاخوة لم تكن تعنى كثيراً بالسحر ، أو تستخدم براءتها الكيميائية في الجريمة ، ولكن تلاميذها اللاحقين خرجوا على مبادئها الاولى ، ووجدوا في مجتمع القرن السابع عشر ، وفي رذائله وسيئاته ميداناً شاسعاً للتجارب والمشاريع السوداء التي كانت براءتهم في تركيب السموم الخفية انفذ الوسائل لتحقيقها

(١) نجيل القاريء هنا ايضاً الى كتابنا « قضايا التاريخ الكبرى » حيث فصلنا ذلك في الفصل الذي كتبناه عن « مأساة السموم »

ذروة الخفاء

٢ - في القرن الثامن عشر برز الخفاء في ثوب آخر ، ووصلت الجمعيات السرية ذروتها من الانتشار والتسلط على الاذهان ، وقد كان هذا القرن فاتحة الثورة العلمية التي أخذت تعم في تحطيم القديم بسائر نظمه وتقاليده ، ولكن النهضة العلمية كانت في المهد ، وكان الغموض يحقق بكثير من نواحيها ، فكانت دعوة الخفاء والشعوذة تستغل هذا الغموض وتعنى باستجلائه وتزعم أنها نفذت الى ظلماته ، وكانت العقول الساذجة تخضع لمؤثراتها وتعلق بمزاعمها . هذا الطور الجديد الذي استحوطت اليه دعوة الخفاء كان يعنى بالعلم النادر والقوى الخارقة ، ففيه بلغت السيمياء ذروتها من الازدهار واجتاحت سواد العقول في البيئات الرفيعة ، وذاع أمر اكسير الحياة ، وظهر جماعة من أقطاب الدعاة السريين بذوا السلف في الابتكار والتأثير ، والتسلط على الانفس . كان هذا العهد عصراً ذهبياً للادعاء والعرافين والسيائين ، وكان أولئك الدعاة يناهضون العلم من جانبه الغامض ، ويزعمون انهم وصلوا الى ما قصر عن ادراكه ، ففي الوقت الذي بدأ فيه العلم درس المسائل الطبيعية دراسة جدية نهض فردريك مسمر الألماني زاعماً أنه يستطيع شفاء جميع الامراض ، ولا سيما الامراض العصبية بتعريض أجسام المرضى الى تأثير الخفاء او ما كان يسميه بالمغناطيسية الحيوانية . وفي سنة ١٧٧٨ وفد مسمر على باريس ، فهرع الى داره الناس من كل صوب وأسس جمعية سرية تعرف « بأصدقاء التناسق » وكان الشفاء يأتي على أثر نوبة عصبية تغتور المريض . والواقع أن النجاح كان حليف مسمر في أحيان كثيرة اذ كان المريض يشفى إما مؤقتاً أو نهائياً ، ولا غرابة في ذلك فقد كان مسمر يطرق ناحية من المباحث النفسية والروحية ما زال العلم في عصرنا يتعثر في استجلاء غوامضها ، ويستخرج في كل يوم عجيب من عجائبها . واذا كانت الشعوذة تغشى تجارب مسمر ، فقد كان للنوبات العصبية التي كانت تثيرها تجاربه أثر لا يمكن الانغضاء عنه ، وكان ايمان المريض يساعد غالباً في نجاح التجربة . وهكذا طار صيت مسمر ، وخلبت تجاربه وجلساته المغناطيسية الباب الناس في ذلك العصر ، فالتدبت في سنة ١٧٨٤ لجنة ملكية لتحقيق مزاعمه وتجاربه ، وقضت بانكارها لاسباب علمية ، ولما كانت تثيره الجلسات المغناطيسية

والنوبات العصبية التي تتخللها من فضاخ وخروج على الحياء والحشمة ، وقضت بانكارها الجمعية الطبية أيضاً . ولكن هذا الانكار لم يخدم من حماسة الرأي العام ، ولم ينتقص من صيت مسمر ، بل آمن بتجاربه وعلمه تفر من الاطباء والعلماء ، وراوا أنه قد افتتح الطريق الى ميدان مشر جداً . وكانت هذه حقيقة ، فان مغنطيسية مسمر الحيوانية هي التي تطورت ، بعد أن جردت من نواحيها الخرافية ، واستحالت في النهاية الى علم حقيقي هو التنويم المغنطيسي

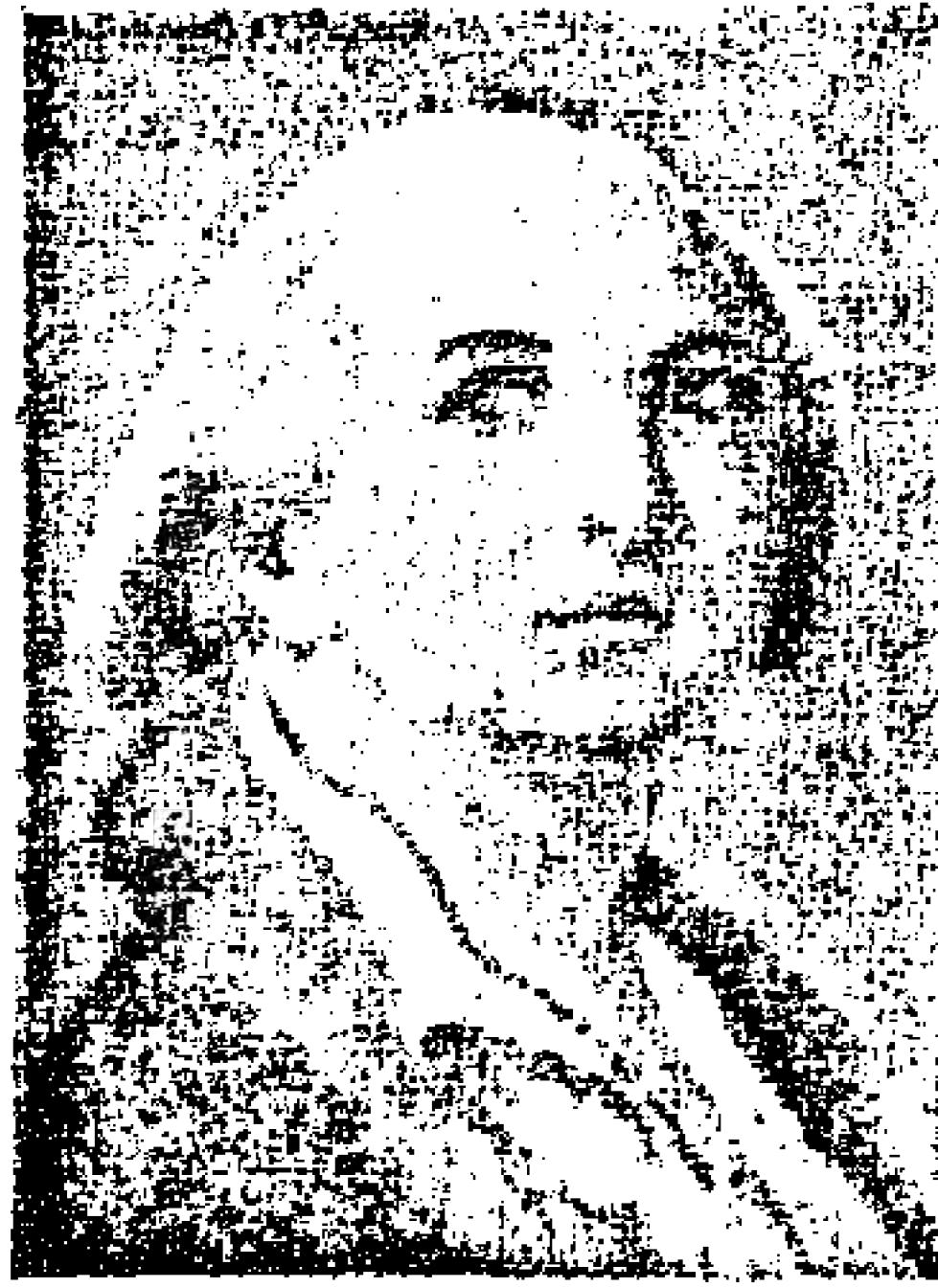
٣ - وفي نفس الوقت الذي طلع فيه مسمر بتجاربه النفسية ، ظهرت جماعة أخرى من دعاة الحفاء دفعت الشعوذة الى غايتها ، ومزجت بين تعاليم الصليب الوردي وتجارب مسمر ، واتحلت أغرب المزاعم والاساليب ، فقصت أبهاء السادة والخاصة في ذلك الحين بالافاقين والمنجيين والسحرة من تلاميذ هذه الطائفة . وكان أقطاب المدرسة الجديدة وأعلامها في ذلك العصر ثلاثة ، هم الكونت سان جرمان ، ولاسكاريس ، والكونت كاجليوسترو ، وكلهم أفاق بارع وبطل مدهش من أبطال القصة والخيال الرائع

فاما الاول فليس يعرف شيء عن حقيقة أصله ونشأته ، فيقول البعض انه ولد الدونا ماريا دي نوييورج أرملة شارل الثاني ملك اسبانيا ، ويرى البعض الآخر أنه يهودي برتغالي . وقد طاف جميع الاقطار ولا سيما بلاد المشرق ، ولبت حيناً في ألمانيا ، ثم قدم الى باريس في سنة ١٧٥٠ ففتن بلاط لويس الخامس عشر وفتن باريس بجماله ، وظرفه ، وذكائه ، وقصاحته . ويقول لبني مؤرخ السحر انه كان يصنع الذهب والاحجار الكريمة ، وانه كان ساحراً بارعاً كسحرة ألف ليلة وليلة ، وان أباه بالتبني كان عضواً في الصليب الوردي ، وانه نفذ الى أعماق أسرار جمعية « الشعلة البافارية » (وسنتكلم عنها بعد) . وأنشأ الكونت جمعية سرية صوفية تعرف « بالقدّيس يا كن » . وكان يدعي أموراً خارقة فيزعم أنه عاش ومات مراراً عديدة مدى القرون ، ويعدد حوادث ماضيه منذ العصور الغابرة ، فيقول انه كان صديقاً للملكة سبأ ، وكليوباترة ملكة مصر ، ويصفهما ويعدد خلاهما وماثرهما بمنتهى الدقة ، وانه شهد مجلس ترنت ، وحادث فرانسوا الاول وهنري الرابع . ويصف كل ذلك بخطورة وجد . وكان لويس الخامس عشر يشغف بسمره ، وينضي الليالي في سماع قصصه . وفي سنة ١٧٦٠ غادر الكونت باريس ونجول في انجلترا وروسيا وإيطاليا ، وكان يفتن كل بلاط وكل مجتمع . ويقول البعض انه كان يمضي في طوافه فراراً من

انتقام « الشعلة البافارية » التي فضح أسرارها . ثم اختفى فجأة وتوفي سنة ١٧٨٤ بعد أن عمر نحو قرن . واختلف في أمر وفاته أيضاً ف قيل انه قتل بيد جمعية الصليب الوردي ، وقيل انه توفي في شلنبرج عند الامير كارل فون هاسه الذي كان يعلمه السحر والخفاء

وأما لاسكاريس فكان يزعم أنه حبر شرقي يجمع الصدقات لدير يوناني ، وكان يبدو أحياناً شاباً في عتفوانه ، وأحياناً كهلاً هدمته السنون ، ويبذر من المال أكثر مما يجمع ، ويهب تلاميذه جزءاً من مسحوق غريب يحول - على ما قيل - أخس المعادن الى الذهب الخالص

وأما كاجليوسترو فهو بطل آخر من أبطال القصة ، خلد اسكندر دوماس اسمه في قصصه ، وهو ايطالي يهودي على الأرجح ، واسمه الحقيقي يوسف بلسامو ، ولد في



كاجليوسترو

بالرم سنة ١٧٤٣ على أنه كان يزعم أن عمره يربى على ثلثمائة سنة ، وأنه عاش مرة قبل ذلك أيام المسيح ، وأن المسيح كان صديقه الحميم . وقد نشأ أفقاً ماهراً وسافر الى اليونان ، وتجول أعواماً طويلة في مصر وبلاد العرب وفارس وغيرها من بلدان المشرق بأسماء وصفات خلافة ، وكان يكسب قوته هنالك من التنجيم والتعزيم في الميادين العامة ، والتغريز بعقول البسطاء . ثم عاد الى أوروبا وامتهن الطب والتنويم والتنجيم والسحر ، وزعم أنه قد نفذ الى الاسرار التي فقدت منذ أقدم العصور ، وأنه يستطيع أن يصنع الذهب ويكبر الناس ويشفي جميع الامراض . وكان لمزاعمه وذكائه تأثير صادق في الافراد والجماعات ، فكان يهرع اليه مئات من المرضى والبسطاء لينتفعوا

بعلمه وطبه حتى غدت شهرته تطبق الآفاق . وكان كاجليوسترو يعتقد تعاليم الفرسان والصليب الوردي ، وقد أسس شعبة سرية على نمط التقاليد المصرية القديمة كان يجري رسومها السحرية متكرراً في صورة أبي الهول . ويقال انه تنبأ لكثيرين من سادة البلاط الفرنسي بألوان الموت التي لقوها فيما بعد ، وأرى ماري أنتوانيت يوم كانت ويلة للعهد شبح الحيوتين في اناء من الماء . ثم اضطر الى مغادرة فرنسا سنة ١٧٨٦ على أثر اتهامه وتبرئته في حادث عقد الملكة ^(١) وعاد الى ايطاليا حيث قبض عليه بعد ذلك بقليل ، وقضى عليه مجلس التحقيق في رومة بالاعدام بتهمة بتهمة به مبادئ الجمعيات السرية ، ثم غير الحكم الى السجن المؤبد .

وقد ظهر في هذا العصر أيضاً كثير من السحرة الاصغر مثل شريدر الذي أسس في سنة ١٧٧٦ جمعية سرية لمزاولة السحر والسيما ، وجاسنر الالماني الذي عكف حيناً على مزاولة الخوارق والمدهشات ، وليون اليهودي وهو عضو من طائفة لبثت حيناً تغرر بعقول البسطاء . وتستلب أموالهم بعرض المرايا السحرية التي يرون فيها أصدقاءهم الغائبين ، وكثيرون غيرهم ممن لبثوا يستغلون ايمان الخاصة وفضولهم في المانيا وفرنسا بين سنتي ١٧٤٠ و ١٧٩٠ .

هؤلاء الدعاة المجهولون الذين تتشابه أساليبهم ومغامراتهم ، والذين كانوا ينثرون الذهب الوفير بلا حساب منتحلين السيما مصدراً لثروتهم وبذخهم ، والذين كانوا يحشدون الانصار والتلاميذ أينما حلوا بدعوى تلقينهم أسرار الكابالا لم يكونوا أولئك المسامرين المسالمين الذين اعتقدتهم الناس ، بل كانوا بلا ريب رسل دعوة خفية ، وسياسة مظلمة ، وبينما كانوا يطربون الناس ويدهشونهم بشعوذتهم وفكاكهم ، اذا هم في نفس الوقت يجدون في تقويض اسس العالم القديم ، ولئن اختاروا السحر حجباً لمقاصدهم فذلك لان شغف الحفاء كان نقيصة العصر ، وكان يعصف بكل مجتمع وكل ذهن ، وكان أولئك الدعاة أذكي من استطاع استغلال هذه النقيصة والاستفادة من هذا الضعف

هذا وسنعود الى التكلم عن علائق أولئك الدعاة بالجمعيات السرية التي قامت في ذلك العصر

(١) فصلنا الدور الذي قام به كاجليوسترو في هذا الحادث في كتابنا « قضايا التاريخ الكبرى » في الفصل الخاص « بعقد الملكة »

أحدث أطوار الخفاء

٤- في فاتحة القرن التاسع عشر اتخذ الخفاء طوراً جديداً ، وبينما ركبت ريحها حيناً في فرنسا على أثر الثورة ، اذا بها قد اشتدت في المانيا ، حيناً ازهرت الجمعيات السرية أيام ازهار ، فأذاع اكارتسهاوسن أنه يستطيع مخاطبة الروح بأساليب واجراءات معقدة تخلقها الاضواء السحرية ، وعطور ومخدرات تدفع بالتلاميذ الى عالم الخيال الرائع . وكان ملك بروسيا فردريش ولهم يشهد بنفسه هذه التجارب . وقامت في ذلك الحين أيضاً جمعية سرية تعرف « بالموبس » (نوع من الكلاب) تعقد جلساتها السرية بالرقص والطرب ، واتباع كثير من رسوم القداس الاسود . ولعل جيته كان متأثراً بهذا الجو حينما كتب قصته الخالدة « فاوست » وألم فيها بوصف كثير من هذه الرسوم والاجراءات الخفية

وفي منتصف هذا القرن ظهرت حركة « الروحانيين » الحديثة ، وكان ظهورها في العالم الجديد بادىء بدء . ولم تكن هذه الحركة بأمور لم يكن بها الاقدمون او لم تتناولها دعوة الخفاء القديمة ، فقد شهد التاريخ في جميع عصوره محاولة النفاذ الى عالم الغيب والاتصال بأرواح الذاهبين والتكلم عن المبعوثين ، والمظاهر الملكية . وكان السلفي يعالجون الاتصال بها من طريق التوسل بالآلهة والقديسين أو من طريق السحرة والشياطين ، ولكن الروحانيين المعاصرين يترفعون عن هذه الخرافات ويشيرون سخطاً وابتاء اذا ما وصمتهم بالسحر ، ويحييون ان السحر مهزلة عتيقة تستند الى علم خرافي ، وانهم جماعة وضعية تعنى بالتجارب والمباحث العلمية ، وان محاولة الاتصال بروح ذاهب من طريق « الوسيط » ليست في شيء من المستحيل أو الخارق كما ان مخاطبة التلفونية أو اللاسلكية بين باريس ونيويورك ليست مستحيلة أو خارقة . والواقع أن حركة الروحانيين قد استطاعت أن توطد قدمها في أميركا وأوروبا وأن تظفر بتأييد كثير من المفكرين النابهين . بيد انها ما زالت تثير ريب الدوائر العلمية ، وما زال العلماء في أوروبا وأميركا يحيطونها وابلأ من الانكار والسخرية . وليس من موضوعنا ان نغني بهذه الحركة ، خصوصاً واننا نميل الى انكارها بشدة ، بيد أنا نشير اليها فقط باعتبارها طوراً من أطوار الخفاء الذي اتخذ في القرن الثامن عشر آلة نافذة لبث الدعوات السرية ، وقد لا يكون من المستحيل أن وراء هذه الحركة الخفية دعوة لا يستطيع الجيل الحاضر ان ينفذ الى سرها الدفين

الكتاب الثالث



في الجمعيات السرية المعينة

الفصل الاول

جمعية البناء الحر "الماسونية"

La Franc-Maçonnerie

(١) أصل البناء الحر . مختلف النظريات التي قيلت في ذلك . العنصر الشكلي في البناء الحر وأصله (٢) العنصر الفلسفي في البناء الحر وأصله . على اليهودية مصدر تعاليمه السرية . الاسطورة السليمانية . انتقالها الى البناء الحر (٣) قرسان المعبود وسيلة انتقال الاسطورة السليمانية . على اشتق البناء الحر نظمه من الاسماعيلية (٤) البناء الحر والصليب الوردي . تمدد المصادر التي اشتق البناء منها (٥) النظم السرية وسيلة للنضال . انشاء المحفل الاكبر وسببه . دستور اندرسون والدين . الخلاف على المراتب (٦) تمدد المحافل . محفل باريس وخصومته مع الكنيسة . انتساب البناء الى الصليبيين (٧) مراتب البناء العليا ومراتبه كلها . انشاء المشرق الاعظم (٨) غايات البناء الحديث ومبادئه (٩) الدين والسياسة في البناء الحر . شعائر المشرق الاعظم ومثله (١٠) عداوة المشرق الاعظم للدين . انكاره واخاذه . غايته الهدامة (١١) المثل الاشتراكية مثل البناء الحر . البناء الحر والفاشيزم . البناء الحر في اسبانيا والبرتغال (١٢) غلبة الشيوعية على البناء في شرق أوروبا . البناء في الشرق (١٣) البناء البريطاني

— ١ —

اصل البناء الحر

١ - البناء الحر^(١) من أعظم وأقدم الجمعيات السرية التي ما زالت قائمة ولها شعب وفروع في معظم الامم المتمدنية . ولكن منشؤها ما زال غامضاً مجهولاً ، وغاياتها الحقيقية ما زالت سرّاً حتى على أعضائها أنفسهم . لا يعنى معظم البنائين الاحرار بأن يعرفوا شيئاً عن تاريخ جمعيتهم ، ويعظم الخلاف على ذلك بين ثقات الجمعية أنفسهم . وقد أشار الى ذلك مؤلف بناء هو المستر البرت تشيرشوارد في كتاب حديث كتبه عن « الاشارات والرموز » فقال : « أذيعت حتى الآن آراء ونظريات كثيرة متناقضة عن أصل جمعية اخوان البناء الحر وعن زمان نشأتها ومكانه ، وعن السبب الذي قامت من أجله ، وعن الاقسام والرسوم المختلفة التي تنقسم اليها درجاتها المختلفة . بيد أن كل ما كتب عن ذلك حتى الآن ليس الا نظريات لا تستند الى أسس حقيقية »

(١) وتسمى بالمرية أحياناً بالماسونية غير أن هذه ليست ترجمة وليست أصلاً ، ولذلك آثرنا ان نترجمها بمعناها الحقيقي وهو البناء الحر

وتتلخص هذه الآراء والنظريات في أن البناء الحر يرجع أصله الى واحد من اثني عشر هي : (١) الى البطارقة (٢) الى أسرار الوثنيين (٣) الى بناء معبد سليمان (٤) الى الصليبيين (٥) الى فرسان المعبد (٦) الى جمعية الصناع الرومانية (٧) الى عمال البناء في القرون الوسطى (٨) الى اخوة الصليب الوردي (٩) الى أوليفر كرمويل (١٠) الى البرنس تشارلس ستوارت أنشأها لأغراض سياسية (١١) الى السير كرسطوفر رن عند بناء كنيسة القديس بول (١٢) الى الدكتور دزاجليه وأصدقائه في سنة ١٧١٧

وليس معنى ذلك أن أصل البناء الحر يرجع حتما الى واحد من هذه ، ذلك لأن البناء الحر الحديث يستند الى أصليين مختلفين ، الى صناعة البناء ذاتها ، وإلى نظرية فلسفية عن أسرار الحياة والموت . وقد عبر عن ذلك بناء حر معروف هو السكونت دالفيلا في قوله : « ان فكرة البناء الحر الفلسفية هي ثمرة مزج طائفة البنائين في القرون الوسطى ، وفرقة سرية من تلاميذ الفلسفة ، قدمت الاولى إليها الشكل ، وقدمت الثانية إليها الذهن »

أما عن الاصل الاول وهو طائفة البنائين أنفسهم ، فقد وجدت جماعاتهم منذ القرون الغابرة في أقدم أُمم التاريخ مثل مصر واليونان . ووجدت في أوروبا الغربية منذ بدء النصرانية ، وذاعت في جميع الأمم الغربية خلال العصور الوسطى . وقد نقل الرهبان رسومها وتقاليدها من مصر القديمة الى أوروبا . ووضع الرومانيون منها نماذج جديدة ، وأنشأوا جمعية عرفاء البناء المعروفة . ومن ثم يرجع بعض الباحثين أصل البناء الحر الى هذه الجمعية الرومانية ، ويقولون ان أول جمعيات بناء عرفت في بريطانيا قامت على أثر الاحتلال الروماني وبلغت من الاهمية أن كان يرعاها كثير من العظماء مثل سنت البسان والملك الفرد والملك ادوين حتى أصبحت بمرور الزمن هيئات متميزة وجمعيات حرة ثم انتشرت بعد ذلك في أنحاء الجزر البريطانية . بيد أنا لا نستطيع أن نؤكد وجود هذه الجمعيات في أوروبا الغربية قبل عهد الهندسة القوطية حيث أنشأ البنائون في فرنسا جماعات كانت تسمى بجماعات الرفاق Compagnonnages وفي ألمانيا جماعات تعرف « بنغواني الحجارة » Steinmetzen . وكانت هذه الجماعات تحرص على كتمان أسرار مهنتها ، وقد كان للمهنة حينئذ أسرار ، وكان لها مكانة تشهد بتفوقها تلك السكنائس الفخمة التي خلفها عهد البناء القوطي في كثير من مدن أوروبا الغربية . وذكر الاب جراندييه في رسالة كتبها سنة ١٧٧٨ : « ان جمعية البنائين

الاحرار هذه التي تفيض كبرياء ليست الا تقليداً وضيقاً لآراء قديم نافع كان يضم البنائين الحقيقيين . وكان مركز هؤلاء الاخوة في مدينة شتراسبورج بادىء بدء ، وقد صادق الامبراطور مكسيليان على جمعيتهم في سنة ١٤٩٨ « وهناك أيضاً ما يدل على أن هذه الجمعيات كانت تفوز بكثير من الامتيازات في فرنسا وانجلترا والمانيا في القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر

٢ - واما عن التعاليم والاسرار الفلسفية التي تستند اليها جمعية البناء الحر فيقال ان رجلين من رجال الدين هما الدكتور ديزاجليه والدكتور أندرسون هما اللذان ابتكرا المبادئ والنظم الجديدة وأسساً محفل انجلترا الاكبر وكان ذلك في سنة ١٧١٧ ، وانه لم يسمع قبل ذلك بأسرار البناء الحر . بيد أن بعض الباحثين ينكرون هذه الرواية ويدللون على بطلانها ، ويرون أن النظام الجديد لا بد أن يكون ثمرة لحركة كبيرة لبثت عصوراً تآختر وتضج ، فإذا كان للعالمين الانجليزيين فضل فليس في ابتكار النظام وإنما في اصلاحه وتهذيبه

وهذا هو الرأي الذي يرجحه سواد الباحثين في أصل البناء الحر اذ يقولون ان أصل التعاليم الفلسفية لهذه الطائفة قديم جداً قد يرجع الى الكابالا اليهودية ، والى بطارقة العصور الاولى حيث كانت تنظم جمعيات الحكماء في مصر وكالديا وفارس واليونان . ويرجع المستر البرت تشرشوارد بالاخص أن عنصرها الفلسفي مصري محض فيقول في كتابه سالف الذكر : « كان للبطارقة والسحرة في الهند وفارس وكالديا وأشوريا نفس الرسوم الدينية ، يتبعها كل من التحق بطائفتهم من الكهنة .. وكان هؤلاء يقسمون الايمان الخاشعة أن يحرسوا على اخفاء التعاليم وأن يكتبوها عن بقية العالم . أما هذه التعاليم فترجع كلها الى مصدر واحد هو مصر » . ويشير هذا الكاتب ايضاً الى عبارة وردت في خطاب ألقاه الدكتور وليم دود في حفلة افتتاح معبد بنائي في سنة ١٧٩٤ رد فيها أصل البناء الحر الى « العرافين الاوائل في سهول كالديا ، وملوك مصر وكهنتها المتصوفة ، وحكماء اليونان ، وفلاسفة رومة » ثم يقول أصحاب هذا الرأي ان هذه التعاليم والرسوم القديمة نقلت الى الغرب على يد جمعيات البنائين ، ونقلتها الى انجلترا جمعية الصانع الرومانية

على أن مبادئ البناء الحر وتعاليمه لا تحمل طابع هذه الامم القديمة وان كانت رسوم محافلها تشير بعض اشارات موجزة الى خفايا مصر وفينيقيا ، والى تعاليم فيثاغورس السرية ، والى اقليدس ، والى افلاطون في رسوم مراتب المهنة وتعاليمها .

ذلك لان التعبيرات وكلمات التعارف المستعملة ليست مصرية او يونانية او فارسية او كلدية بل يهودية ، وعلى ذلك فاذا كان قد تسرب الى الغرب شيء من التعاليم السرية القديمة على يد الاحبار والرومان المتفقيهن في اسرار اليونان ومصر ، فلا ريب أن الكابالا اليهودية كانت طريقاً أخرى لنقلها . وهذا ما يقرره بعض الكتاب البنائين أنفسهم اذ يسندون تقاليد الطائفة الى مصر واليونان وكالديا من جهة وإلى الاسرائيليين من جهة أخرى ، وينسبون نظمها الى المصدر الثاني ، ويردون أصولها من بعد آدم ونوح و ابراهيم الى موسى وداود وسليمان ، بل تقرر الطائفة ذاتها أخذ نظمها عن سليمان ، وهو ما تحتويه تعاليمها التي تلفن الى مرشحي الالتحاق بالدرجة الاولى ، وهذه النسبة ذاتها هي التي يقررها اليهود بشأن الكابالا ، هذا الى ان البناء الحر الحديث يرد يرمته الى الاسطورة السليمانية او بالحري الى الاسطورة الحيرامية التي يحسن أن نلخصها فيما يلي :

لما بنى سليمان معبده استخدم صانعاً للنحاس يدعى حيرام وهو ابن أرمل من قبيلة نفتالي أرسله اليه حيرام ملك تير Tyr . تقول اسطورة البناء الحر ، وحيرام هذا هو حيرام ايف ، كان عريقاً للبنائين . ومن اجل المحافظة على النظام قسم البنائون الذين يشتغلون في المعبد الى ثلاث طبقات هي : المتمرنون ، وأبناء المهنة ، وعرفاء البنائين . تتميز الاولى من الثانية منها برموز وأقوال مختلفة للتفاهم وتتفاوت في الأجر ، وتشمل الثلاثة ثلاثة اشخاص فقط هم سليمان نفسه وحيرام ملك تير الذي أمدّه بالخشب والاحجار الكريمة وحيرام ايف . وقبل ان يتم بناء المعبد اثنتي عشرة من « أبناء المهنة » معاً على استكشاف أسرار « عرفاء البنائين » واعدوا ان يكمنوا لحيرام ايف عند باب المعبد ، ولكن اثني عشر منهم انشقوا في اللحظة الاخيرة ، وقام الثلاثة الباقون بتنفيذ المشروع ، وعيناً هددوا حيرام للوقوف على السر ، فعندئذ قتلوه بثلاث ضربات على الرأس ضربه كل واحد ثم حملوا الجثة خارج بيت المقدس ودفنوها في جبل مرياح . ولما علم سليمان باختفاء عريف البنائين أرسل للبحث عنه خمسة عشر من « أبناء المهنة » فوصل خمسة من هؤلاء الى الجبل ولاحظوا موضعاً فيه غيرت معالم أرضه وهناك عثروا بجثة حيرام ، فعلموا المكان بغصن وعادوا فقصوا على سليمان ما شاهدوه ، فأمرهم سليمان بان يدفنوا الجثة ففعلوا .

ومقتل حيرام ودفنه او بالحري « رفعه » وما يقتزن بذلك من ضروب الأسى والتحسر عند البنائين ذروة الخشوع والاجلال ، كما ان مقتل الحسين هو الذروة

عند الشيعة ، واذا لم يك ثمة دليل تاريخي يؤيد وقوع مثل هذه المأساة ، فان ابتكارها يعتبر على الاقل قرينة على وجود مذهب قديم لا يستند الى واقعة حقيقية ولكن الى نظرية سرية . والواقع اننا نجد امثال هذه المأساة والرسوم ماثلا في جميع الاساطير الدينية القديمة ، وفي وسعنا ان نقارن قصة مقتل حيرام ، بالاسطورة المصرية القائلة بمقتل أوزيريس وبمبحث إيزيس عن جثته ، والعويل الذي نأر حول قبره برسوم الحداد التي أقيمت لأوزيريس وأدونيس ، وقد « رفع » كلاهما ، وايضاً بما وقع حول نابوت مانيس الذي قتل غيلة كما قتل حيرام ، وقد كان ابن أرمل على قول المانوية ، بيد أن الاسطورة كما يتناولها الاخوة البناءون مصوغة في قالب وأسلوب يهوديين مما يدل على انها اشتقت من الصيغ اليهودية للتقاليد الغابرة

اما طريق انتقال هذه الاسطورة الى البناء الحر فيوضحه اصحاب هذه النظرية فيما يأتي :

لما بني معبد سليمان تفرق البناءون الذين اشتركوا في بناءه فزح بعضهم الى اوربا واستقر نفر منهم في رومة حيث انشأوا جمعية الصناع الرومانية التي نقلت نظمتها ورسومها بعد الى جميعات الصناع في انجلترا وفرنسا والمانيا في العصور الوسطى ، وتناقلت بعضها اسطورة مقتل حيرام ، بيد اننا لا نستطيع ان نحدد بالضبط متى نشأت هذه الاسطورة . فيقول البعض ان الحقايا العبرية وجدت منذ وجود الجمعية الرومانية وان الجمعية كانت تصطبغ بالصبغة اليهودية الى حد كبير . ويدحض آخرون الفكرة ويقولون ان مثل هذه التقاليد والحقايا لم توجد حتى في عصور السكسون وان فكرة نسبة البناء الحر الى اسطورة معبد سليمان لم تعرف الا بعد الحروب الصليبية ، حوالي القرن الرابع عشر . والى هذا العصر كانت محافل البناء لا تعنى الا بالتعالم السرية المصرية واليونانية في حين انها كانت ترجع تقاليدھا الى آدم وبابل وهرمس وفيثاغورس . ولم تكن هذه التعاليم يهودية في شيء . ويضيفون الى ذلك ان الحقايا اليهودية والنصرانية لم تكن تعرف حينئذ في محافل البناء فتراتھا السرية خلو من آثار هذه الاساطير ، ولم تعرف مراتب العرفاء وانباء المهنة والمتمرنين ، ولم تعرف رمزاً من رموز المعبد ، بل كانت كل رموزھا تشير الى اعمال البناء وبعض الحكم الفلسفية الاخلاقية . والخلاصة ان العنصر اليهودي لم يتسرب الى المحافل الا في نهاية الحروب الصليبية

٣ — واذا لم يك ثمة دليل على ان الاسطورة السليمانية أو الرموز اليهودية قد

عرفت في محافل البناء قبل القرن الرابع عشر، فمن المعقول ان نرتد الى فرسان المعبد باعتبارهم حملة هذه العناصر اليهودية الى البناء الحر . وقد أخذ الفرسان اسمهم كما رأينا من معبد سليمان . فالمرجح إذاً أنهم وقفوا أثناء وجودهم في بيت المقدس على الاساطير اليهودية المتعلقة ببناء المعبد . وهذا ما تقرره القصصية الفرنسية جورج ساند وقد كانت متبحرة في تاريخ الجمعيات السرية حيث تقول في إحدى رواياتها مشيرة الى الفرسان : « كانوا يكون ضعفهم في شخص حيرام ، وكانت كلمة ضاعت وردت تشير الى دولتهم . . . » . وكان الفرسان يكون أستاذهم الاعظم جاك دي مولاي ، وكانت تبكي جماعات أخرى هي جماعات « الرفاق » التي سبق ذكرها ، وكانت جماعات الفرسان والرفاق تتناقل أسطورة معبد سليمان ، فمعقول إذاً أن تكون التقاليد اليهودية قد نقلت الى جماعات البناء بواسطة الفرسان

ويدلل أصحاب هذا الرأي على قولهم بأن أهم رموز البناء الحر مثل المثلث ، والمربع المحمول على عمودين ، والنجمة ذات الحدود الخمسة ، والنجمة المضئئة وغيرها ، يمكن ارجاعها الى الفرسان ، وان الفرسان كانوا بنائين بارعين أقاموا عدداً من الكنائس الفخمة ، هذا الى ان بعض تقاليد البناء الحر تشير الى ان مخالفة عقدت في ذلك الحين بين الفرسان وجماعات البنائين ، فلما كانت محاكمة الفرسان في فرنسا فر جماعة منهم في نكيرة البنائين الى ايكوسيا ، وانضموا الى روبرت بروس وحاربوا تحت لوائه ضد ادوارد الثاني الذي طارد جماعتهم في انجلترا ، ثم أسس روبرت بروس الجمعية الملكية وفرسان الصليب الوردي ، وقد نشأت مرتبة الصليب الوردي على قول بعضهم في جمعية الفرسان في عهدها الاول ، ثم يقال أيضاً ان روبرت بروس ضم البنائين الى الجمعية الملكية مكافأة لهم على محاربتهم الى جانبه ، فتسربت بهذه الطريقة مبادئ الفرسان الفلسفية الى محافل البناء

يقولون أيضاً ان مراتب المتفرجين وأبناء المهنة والعرفاء قد نقلت من ايكوسيا وبين هذه المراتب ومراتب الاسماعيلية شبه كبير ، وقد احتك الفرسان بالاسماعيلية ودرسوا أنظمتهم وتعاليمهم ، يقول الدكتور بروسيل في كتابه عن التفكير الديني والاحاد في القرون الوسطى ما يأتي : « لا ريب ان كثيراً من الرموز المعروفة اليوم قد عرفت منذ أقدم العصور الى جانب شيء من الهندسة كان يعتبر سرّاً خفياً ولكن المثل المحقق الذي اقتني أثره هو محفل الاسماعيلية الاكبر في القاهرة » . ويقول السيد امير علي في كتابه « روح الاسلام » : « ان رواية المقرئ في عن مراتب

الاتحاق المختلفة بهذه الهيئة تاريخ قيم للبناء الحر . والواقع ان محفل القاهرة هو نموذج كل المحافل التي أنشئت بعد ذلك في النصرانية . ومحفل القاهرة المشار اليه هو دار الحكمة الاسماعيلية التي انشاها الحاكم بامر الله والتي أنشأ على نظامها ومراتبها في كلامنا عن الاسماعيلية . فمن المحتمل اذاً ان تكون هذه النظم قد نقلت الى البناء الحر على يد الفرسان الذين تلقوها عن الاسماعيلية دعاء دار الحكمة . وهذا ما يفسر تمجيد محافل البناء الحر لذكرى الفرسان ، واعتبارها ايام ارباء وشهداء ويؤثر سواد البنائين في القارة (أوربا) الاخذ بهذا الرأي ، كما يؤثر البنائون البريطانيون القول بارجاع البناء الحر الى الجمعية الرومانية . وقد اعتنق الرأي الاول البنائون الاحرار في القارة في القرن الثامن عشر ، وذلك مهم لان محافل البناء الحر اصلحت ووضعت أسس نظامها الحاضر في ذلك العصر ، فكان اعضاؤها وقتئذ أقرب الى معرفة الحقيقة من الباحثين المعاصرين

٢ — نتقل بعد ذلك الى الرأي القائل بان نظم البناء الحر اشتقت من نظم الصليب الوردى . يقال ان فرنسيس يكون الفيلسوف الانجليزى كان بناءً حراً ، وقد كان مع ذلك من اخوة الصليب الوردى . وتدل بعض كتاباته على انه كان ملماً بتقاليد سرية قديمة جداً ، بل يقول بعضهم انه مؤسس الصليب الوردى والبناء الحر معاً . بيد ان يكون لم يكن مبتدعاً للتقاليد السرية التي قامت عليها هاتان الهيئتان وانما كان ناقلاً ، يقول الاستاذ بيه الالماني : « ان نظم البناء الحر هي نظم الصليب الوردى بعينها ولم يطرأ عليها تغيير الا ما استحدثه أولئك الذين نقلوها الى إنجلترا » . ويقول تشامبرز في دائرة معارفه التي ظهرت لأول مرة في سنة ١٧٢٨ « ان بعض خصوم البناء الحر يقول بان جمعية البناء الحر العظيمة الحاضرة ليست سوى فرع من جمعية الصليب الوردى ، أو هي جمعية الصليب الوردى بعينها في ثوب جديد . ومن الحق ان هنالك من البنائين الاحرار من يتصف بجميع خواص الصليب الوردى » . ولكن الدكتور ماكي مؤلف قاموس البناء الحر يعارض هذا الرأي بشدة ويقرر ان ليس من علاقة ما بين الصليب الوردى والبناء الحر

وهناك طريق أخرى لعلها سبيل الاساطير اليهودية الى البناء الحر هي الاحبار اليهود في القرن السابع عشر . يقول الكاتب اليهودى برنار لازار : « لقد كان حول مهد البناء الحر يهود » واذا طبقنا هذه الرواية على العصر الذي سبق انشاء المحفل الاكبر في سنة ١٧١٧ الفيناها مؤيدة بالحقائق . يقال مثلاً ان الدرع التي تستعمل

الآن في المحفل الاكبر قدر سمها يهودي، وصورها على مثل الرموز والاساطير اليهودية فدرع البناء الحر كالبالية محضة ، وكذلك ختم المهنة الذي تختم به الشهادات يمثل ايضاً رمزاً كالبالياً هو صورة رجل وامرأة متعانقين

والخلاصة ان أصول البناء الحر لا ترجع الى مصدر واحد ، واعلمها قد اشتقت من جميع المصادر التي ذكرناها باديء بدء ، فقد تكون النظم المادية اشتقت من الجمعية الرومانية وجماعات البنائين في القرون الوسطى ، والمبادئ الفلسفية من تعاليم البطارقة واسرار الوثنيين . بيد ان المصدر الذي لا ريب فيه هو السكابالا اليهودية وذلك سواء كان انتقال اسرارها الى البناء على يد الجمعية الرومانية ، أو الفرسان ، أو الصليب الوردى ، أو يهود القرن السابع عشر . وأقطع حجة على ذلك هو ان النظم والتعاليم اليهودية هي التي اتخذت اساساً لانشاء المحفل الاكبر في سنة ١٧١٧ ووضع رسومه ورموزه ، وان كانت قد مثلت فيها ايضاً بعض التعاليم المصرية القديمة ونظريات فيثاغورس

عهد المحفل الاكبر

٥ - رأينا ان جمعية الصليب الوردى كانت تقوم على فكرة سرية أخذت عن التعاليم السرية الشرقية ، تربط الاخوة معاً لغاية مشتركة . ولا ريب ان فكرة كهذه تمكن الخوارج والناقلين أفراداً كانوا أو أحزاباً من حشد جموع كبيرة تعمل سرّاً في سبيل ما ربههم وغاياتهم كانت ذائعة محمودة خصوصاً في عصر استعرت فيه لظى المعارك الفكرية ، فاللوريون ينشطون الى سحق البابوية ، والكثلكة تحشد جموعها لمحاربة البروتستانتية ، والجمهوريون يأتمرون حول اوليفر كرمويل ، والملكيون في مختلف الامم يشابعون الاسر المختلفة ، وكل جماعة تلجأ الى هذه النظم والتعاليم تحقيقاً لغايتها الخاصة . فقد لجأ اليها اخوة الصليب الوردى في محاربة البابوية ، ولجأ اليها اليسوعيون لتحقيق غاية مناقضة هي حماية البابوية وتأييد طغيان الكثلكة ، ثم يقال ايضاً ان كرمويل ألد خصوم الكثلكة كان من أكبر دعاة البناء الحر ، وانه استعمل نظمه وتعاليمه للوصول الى السلطان والحكم ، وان خصومه من الجمهوريين الثوريين لجأوا الى نفس هذه النظم في حشد الانصار والجند لمحاربتة ، وان محافل البناء الحر كانت

ملكية في أواخر القرن السابع عشر تقاصر آل ستوارت وتعمل لاعادتهم الى الملك
بيد ان تاريخ النظم الحاضرة التي أسس عليها البناء الحر يبدأ في سنة ١٧١٧ ،
ففي ذلك العام جمع شتات التعاليم والوثائق التي كان يستند اليها البناء الحر وأصلحت
ونظمت على قواعد حاسمة ثابتة ، واستبقى البناء الحر مساحة من نظمه المادية ،
ولكنه تحول من ذلك الحين الى جمعية سرية مختارة تضم أبناء الطبقات الوسطى
والعالية وتعتق التعاليم الفلسفية . ثم ذلك الانقلاب الكبير في أواخر سنة ١٧١٧
حيث اجتمع اخوة أربعة من محافل لوندرة في حانة من حي كوفت جاردن ، وانشأوا
المحفل الأكبر بصفة رسمية ، ولم يكن هذا الانقلاب ضربة فجائية عنيفة بل كان ثمرة
تطور لبث يتخمر حيناً في معظم المحافل ، ويغالب العنصر المادي في نظم البناء الحر
وفي تلاميذه وجنوده ، ولهذا تم الانقلاب في سلام وسكينة ، ولم يكن ثمة كبير شأن
لمعارضة الاخوة من أبناء المهنة الحقيقيين في تحويل البناء الحر الى وجهة جديدة ،
واختيار أنصاره وجنوده من غير أبناء المهنة (مهنة البناء) ، من ذلك الحين اضمحل
نفوذ المهندسين والبنائين وانتقلت زعامة الحركة كلها الى أبناء الطبقة الوسطى
على ان الذي لم يوضحه تاريخ البناء الحر هو العوامل التي أدت الى ذلك الانقلاب .
ما الذي حدا باخوة لوندرة أن يؤسسوا فجأة محفلاً أكبر ، وأن يضعوا له نظماً وتعاليم
جديدة ؟ يحيب بعض الباحثين ان المفكرين من اخوة البناء الحر لما رأوا ان الجمعية قد
غدت آلة في يد الدسائس والاهواء السياسية اعزموا أن يتزعموها من برائن الفوضى
والاعيب المطامع الشخصية وأن يردوها الى غايتها السلمية الاولى ، وان هذا الغرض
السلمي هو الذي التف حوله الاخوة الانجليز في عهد الاستاذ الاعظم السير كرسنوفر رن
حيث كان غرض البناء الحر في ذلك الحين « أن يخفف من حدة البغضاء الدينية التي
بلغت ذروتها في عهد جيمس الثاني ، وأن يحاول انشاء نوع من الوئام والاخاء بالعمل
على قتل الاحقاد التي تثيرها الخلافات الدينية ، وتفاوت المراتب والاعراض » . ومن
ثم اعتنق البناء الحر في مسألة الدين سياسة حرة غير طائفية ، وجاء في الدستور الاول
الذي وضعه الدكتور اندرسون في سنة ١٧٢٣ ما يأتي : « البناء ملزم بحكم صفته أن
يتبع قانون الاخلاق ، واذا استطاع أن يفهم الفن حقاً فلن يغدو قط ملجداً غيباً
أو فاسقاً زنديقاً . وقد كان البنائون في العصور القديمة يلزمون اعتناق دين هذا
البلد أو هذه الامة مهما كان . وأما الآن فقد رؤي حضهم على اعتناق ذلك الدين
الذي يتفق فيه جميع الناس تاركين آراءهم الخاصة جانباً أعني أن يكون المرء فاضلاً

صادقاً ذائعاً وشرفاً . ولهذا صار البناء مهدياً للاتحاد وسبيلاً لبث الصداقة الخالصة بين الناس .

وقد اعتبر البعض إشارة الدكتور اندرسون الى دين يتفق فيه جميع الناس دعوة الى نبذ الصراية وان البناء الحر أصبح من ذلك العهد جمعية هادمة تعمل كمعظم الجمعيات السرية الاخرى لسحق التعاليم الدينية . ونازت حولها الظنون منذ البداية نظراً لشديد حرصها في كتمان أسرارها وتعاليمها ، وأهمت بأنها تدس الدسائس ، وتعمل من هدم السلطات السياسية والدينية تحت ستار الدعوة الى الاخاء والصداقة ، هذا الى أن الخلاف على أمر المراتب الجديدة التي أدخلت الى الطائفة كان يمزق جماعات البناء الحر عندئذ .

وبذلك أن المراتب السرية التي كان يقرها البناء الحر حتى انشاء المحفل الأكبر والتي أقرها هذا المحفل في دستور البناء الجديد كانت ثلاثة هي : المتمرنون ، وأبناء المهنة ، والعرفاء ، وهي التي اتخذت أساساً لانشاء جمعيات البناء الحديثة . وفي نحو سنة ١٧٤٠ وضعت فوق هذه المراتب مرتبة جديدة هي « القبة الملكية » وهي اولى المراتب العليا التي تعرف اليوم بالرسوم الايكوسية . فكان هذا الابتكار الجديد في شأن المراتب مثار خلاف شديد في جماعات الطائفة أدى الى انقسام البناء الحر الى فريقين متعارضين فريق القدماء وفريق المحدثين ، واستمرت هذه المرتبة الجديدة تطبق منذ سنة ١٧٥٦ حتى اغاها المحفل الأكبر نهائياً في سنة ١٧٩٢ ، بيد أنها أعيدت الى جماعات البناء الحر الانجليزية في سنة ١٨١٣ . وترجع هذه الدرجة الى اصل يهودي ايضاً فهي تمجيد لاسرائيل وتخليد لذكرى المعبد الثاني . ويقول عنها مؤرخ للبناء الحر : « ان درجة القبة الملكية كانت بلا ريب من وضع يهودي كابالي في نحو سنة ١٧٤٠ ولنا ان نفرض ان التعاليم السرية أضيفت من ذلك الحين الى دستور اندرسون »

٦ وكان انشاء المحفل الأكبر في لوندرة فاتحة لقيام محافل كثيرة في القارة ، في مون سنة ١٧٢١ ، وفي باريس سنة ١٧٢٥ ، وفي مدريد سنة ١٧٢٨ ، وفي لاهاي سنة ١٧٣٣ ، وكذلك في هامبرغ وغيرها . وحصل كثير منها على مصادقة المحفل الإنجليزي الأكبر الا محفل باريس فإنه لم يحصل على هذه المصادقة الا في سنة ١٧٤٣ وذلك لان محفل باريس كان يغلب عليه العنصر السياسي وكان يعمل خفية على رد أسرة ستوارت الى العرش الإنجليزي . وكان زعيمه تشارلس رادكلف قد فر من إنجلترا الى فرنسا وتسمى باللورد دروتوار ، ويقال انه هو الذي أسس هذا المحفل في

سنة ١٧٢٥ وانتخب له أستاذ اعظم . وقد كان البناء الحر لأول عهد ملكيا كمارانيا
أو كان آلة في يد الاحزاب الملكية ومطية لمطامع الأسر، ولم يكن ممنوعاً من الاشتغال
بالسياسة قبل صدور دستور الدكتور أندرسون في سنة ١٧٢٣ وقبل ان يعزم المحفل
الاكبر تطهير المحافل من الاهواء والمنازعات السياسية وتحويلها الى طائفة اخاء ،
ووافق عام

وكان محفل باريس منذ نشأته موضعاً لشكوك الملكية ، والكنيسة بالخاص ، حيث
كان يعتقد ان الجمعية الجديدة التي نظمت باسم البناء الحر ليست الا جمعية فرسان
المعبد أعيدت رسوم ونظم جديدة . ولذلك اسنار المحفل خصومة الملكية والكنيسة
منذ البداية ، وذكّت هذه الخصومة حتى صدر في سنة ١٧٣٧ امر ملكي بحل الجمعية .
وفي السنة التالية أصدر البابا كليمنضس الثاني عشر قراراً بردة البناء الحر وردة كل
كاثوليكي يلتحق به

على ان هذه المطاردة لم تكن ذات أثر يذكر ، لان البناء الحر لم يتعثر بل استمر
في تقدمه وانشاء مراتب جديدة ، ولم ينزل عن القول بصلته بالفرسان ، بل جاهر
بعض زعمائه بهذه الصلة وزعموا ان مؤسس طائفتهم انما هو جودوفروا دي بويون اول
ملك من الامراء الصليبيين لبيت المقدس . ويقول البارون تشودي البناء الحر في رسالته
« السكوكب المشتعل » ان نسبة البناء الحر الى الصليبيين هي النسبة التي تلقن في المحافل
بصفة رسمية حيث يعلم المرشحون للاتحاق ان جماعة من الفرسان اخذت على نفسها
ان تنقذ البقاع المقدسة من ايدي العرب ، ألفت جمعية اسمها البناء الحر معربة بذلك
عن ان غايتها الاولى هي اعادة بناء معبد سليمان ، وانها اتخذت طائفة من الرموز
والاشارات وكلمات المرور اتقاء لعدوان العرب ، وان اخوة البناء الحر احتفظوا
برسومهم وطرقهم وخذلوا الف الملك (البناء) بانشاء محافل في انجلترا
وايكوسيا وغيرها

في هذه الرواية اشارة بان البناء الحر أنشئ للدفاع عن تعاليم النصرانية . وهذا
ما يزعمه كثيرون غير البارون تشودي ومنهم دي راج حيث يقول : ان غاية هؤلاء
الصليبيين من الارتباط والتعاون كانت حماية انفسهم من العرب بحجب تعاليمهم المقدسة
باغشية من الحفاء ، ولهذا اتخذوا الرموز اليهودية وجعلوا لها معاني نصرانية ، ويذهب
البارون تشودي الى ابعد من ذلك فيقول ان البناء الحر نشأ قبل الصليبيين بزمان

طويل « وان آبائنا وأجدادنا الحقيقيين الذين أنشأوا البناء الحر ، أولئك الرجال الاعلام الذين لا أعين توارثهم ولا أخون سرهم كانوا جماعة منظمة تسمى بفرسان الفجر وفلسطين » ، ويضيف أن هؤلاء الآباء كانوا يقفون على العلوم الخفية ومنها السيمياء ، وانهم نبذوا تعاليم اليهودية ليستنبوا بهدى النصرانية . فلما كانت الحروب الصليبية خرج أولئك الفرسان من عزلتهم ومحببتهم في تحاري فلسطين وانضموا الى بعض الصليبيين في بيت المقدس ، وأعلنوا اليهم أنهم من ذرية البنائين الذين بنوا معبد سليمان وأنهم يعنون بالهندسة والتعاليم الفلسفية ومن ذلك الحين اتخذوا اسم البناء الحر وقدموا أنفسهم بهذا الاسم الى الجيوش الصليبية وانضموا تحت ألويتها

وهذا كله حديث خرافة لا يحتاج الى تفنيد ولا تعليق

٧ - نرى مما تقدم ان البناء البريطاني يرتد في أصوله الى جماعات البنائين في العصور الوسطى ، وان البناء الحر الفرنسي منذ سنة ١٧٣٧ يرجع أصل الطائفة الى الفروسية الصليبية، وان المراتب العليا التي تعرف بالرسوم الايكوسية قد نشأت في مهد البناء الفرنسي فضلا عن أنها كما سنرى تتشعب بثوب من تقاليد الفرسان والظاهر أن المراتب العليا الاولى كانت على قول براج كما يأتي :

Parfait Maçon Elu	(١) بناء كامل مختار
Elue de Perignan	(٢) مختار برنيان
Elu des Quinze	(٣) مختار الخمسة عشر
Petit Architecte	(٤) المهندس الصغير
Grand »	(٥) المهندس الاعظم
Chevalier de l'Epée et de Rose-Croix	(٦) فارس السيف والصليب الوردي
Chevalier Prussien	(٧) الفارس البروسي

والسادسة من هذه الدرجات هي أول ما ظهر منها ، وهي التي تعرف في البناء الحديث « بأمير الصليب الوردي لهيردوم أو فارس الجارح والنسر » . والخلاف كثير في أصلها وسبب نسبتها الى الصليب الوردي . ولما نزل اللورد درونتوار عن رئاسة المحفل الفرنسي للدوق دانتان في سنة ١٧٣٨ ، أنشئت المراتب الاخرى لأول مرة ، بيد أنها لم تستقر نهائياً الا في سنة ١٧٥٤ . واليك ثبتها مرتبة :

(١) المتمرن البادىء (٢) ابن المهنة (٣) عريف بناء (٤) أستاذ للسر (٥) أستاذ كامل (٦) أمين ثقة (٧) مشرف على البناء (٨) حبر او قاض (٩) مختار التسعة

(١٠) مختار الخمسة عشر (١١) زعيم القبائل الاثنتي عشرة (١٢) أستاذ أعظم مهندس
(١٣) فارس القبة التاسعة (١٤) مختار قديم أعظم (١٥) فارس السيف (١٦) أمير
بيت المقدس (١٧) فارس الشرق والغرب (١٨) فارس الصليب الوردي (١٩) الحبر
الأعظم (٢٠) البطريرق الأعظم (٢١) الأستاذ الأعظم لفتح البناء (٢٢) أمير ابناس
أو فارس الفأس الملكية (٢٣) أمير سيد ملتحق (٢٤) قائد الفسرين الأسود والابيض
(٢٥) قائد السر الملكي

وظاهر من تلاوة هذا اثبت أن درجته مزيج من تقاليد الفروسية الصليبية
والثقافة اليهودية ، أو بالحري صدى لتقاليد فرسان المعبد . وقد كان لإنشاء المراتب
العليا صبغة سياسية وصبغة عداء للصراية ، أو بعبارة أخرى كان خروجاً على المبادئ
الاساسية التي اعتنقها البناء الحر منذ انشاء الحفل الاكبر و صدور الدستور الجديد في
سنة ١٧٢٣ وهو الذي قضى « بالألحادي في الحفل حديث ما بشأن الدين او
الحكومة »

وقد ألقى خصوم البناء الحر في هذه الخطوة مادة جديدة للطعن والخصومة ،
وسخط لها كثير من البنائين أنفسهم ، واعتبرها كتاب البناء الحر خطراً على الطائفة ،
وانحرافاً بها عن طريقها الاصلية . ونشأ بسبب ذلك خلاف كبير بين المحافظين الى
انقسامها الى فريقين متخاصمين ، واشتد التناوب والتنافس بينهما ، حتى تدخلت الحكومة
الفرنسية وقضت بحل الحفل الفرنسي الاكبر في سنة ١٧٩٧

على أن حل الحفل الاكبر لم يمنع استمرار الحركة واجتماع المحافظين . وفي سنة
١٧٧٢ أنشئ « المشرق الأعظم » ، وانتخب الدوق دي شارتر له أستاذاً أعظم . ثم
استدعى « المشرق الأعظم » الحفل الاكبر الانعقاد وعدم الاذعان الى قرار الحل ،
فلبى الحفل الاكبر الدعوة واتحد المحافظون ، وأعلن الدوق دي شارتر أستاذاً أعظم لجميع
الحافظ والمجالس الفرنسية . ويرجع هذا الفوز الى نشاط العنصر الثوري في المحافظين .
وقد كانت معظم المحافظين في المبدأ ملكية ، ولكن سيلاً من الناقمين والساخطين بدأ
يجتاحها في أواسط القرن الثامن عشر ، وأولئك هم الذين تغلبوا على البنائين الاصلين
وغدوا أغلبية في المحافظين قبيل الثورة الكبرى

البناء الحر الحديث

٨ - يكثر الجدل حول غايات البناء الحر وأغراضه الحقيقية . ومن الصعب أن نستخلص من هذا الجدل نتيجة حاسمة مؤكدة ، فنقطع بأن للبناء الحر أغراضاً مشتركة معينة ترمي إلى تحقيقها محافله في جميع الأمم . وكل ما يمكن قوله هو أن البناء الحر نظام يربط أعضاءه معاً لتحقيق غاية لا بعينها ، بل تختلف باختلاف الزمان والمكان والظروف . وليس أدل على ذلك التباين من تباين المعاني التي تنسب لرموز البناء الحر وتباين الشروح التي تنسب إلى أساطيره وتقاليده ، فالمثلث قد يعني مبدأ التثليث ، أو الحرية والأخاء والمساواة ، أو غيرها ، وقد يعني العمودان ، القوة والثبات ، أو الرجل والمرأة ، أو النور والظلام أو غيرها . وأما الأساطير فقد تمثل خرافة معبد سليمان سير أي مشروع ، ومقتل حيرام فريسة خصومه ، وقد يقصد بالإشارة السرية إلى « خسارة أصابت المجتمع البشري » وإلى تدميرها ، اذكاء الهمم ، وبث روح التضحية ، إلى غير ذلك من التفسير والحلول

وعلى ذلك فإن نظم البناء الحر كلها في ترشيح الأعضاء إلى المراتب المختلفة ، وحملهم على الكتمان بالآيمان الوثيقة ، قد تستخدم لأي غرض اجتماعي أو سياسي أو إنساني أو ديني ، وقد تستعمل للبناء أو الهدم ، لحماية نظام أو سحقه ، لحماية الدين أو هدمه ، لتأييد القانون والنظام أو بث الإباحة والفوضى

هذا ولما كان للبناء الحر تقاليد شفوية سرية على طريقة السكابالا اليهودية تأتم بهم الطائفة وتسترشد في سيرها وتصرفها ، فمن الخطأ أن نقرر اللون الحقيقي لشكل من أشكال البناء الحر بالرجوع فقط إلى مبادئه ورسومه المنشورة ، بل يجب الرجوع أيضاً إلى التعاليم الشفوية التي يعتنقها الأعضاء وإلى التفسير والمعاني التي تنسب إلى الرسوم والرموز : وطبيعي أن تختلف هذه التفسير باختلاف الزمان والمكان . يوصف البناء الحر في دستوره « بأنه نظام خاص للأخلاق ، محجب بالخيال ، مفسر بالرموز » بيد أن المعيار الذي يرتسمه البناء الحر للأخلاق لا يمكن تعينه أو تكيفه ، فليس من معيار خلقي عام لجميع المحافل ، ومنها ما يتخذ معياراً صارماً للأخلاق ، ومنها ما لا معيار له أصلاً . كذلك يقال إن فلسفة البناء الحر نظريتان هما وحدة

الآله وخلود الروح . ولكن هذا الضرب من الفلسفة لم تعتقه جميع المحافل ، بل منها ما رفض النظريتين معاً « كالمشرق الاعظم »

فالبناء الحر يختلف اذن باختلاف الامم ، وليست له من مبادئ أو غايات عامة مشتركة . بيد اننا نستطيع أن نقسم البناء الحر الحديث الى قسمين كبيرين : البناء الحر في بريطانيا العظمى واميركا وهولاندا والسويد والدانماركة ، وبناء « المشرق الاعظم » الذي يغلب في الامم الكاثوليكية ، وأعظم محافله هو المشرق الاعظم في باريس

٩ - يتخذ دعاة السكثلكة من كون البناء الحر في الامم البروتستانتية ليس تورياً أو خصيصاً للدين دليلاً على ان البروتستانتية تؤيد غايات البناء الحر ، ويتخذ البناءون من ذلك دليلاً على ان عصف كنيسة رومة قد اضطر البناء الحر أن يتبع سياسة العداء نحو الكنيسة والدولة . وقد أعلن المشرق الاعظم منذ البداية انه يعتق مبدأ البناء البريطاني من عدم التعرض للدين أو الاخلاق ، بيد انه لم يكن في تصرفاته العملية حريصاً على تطبيق هذا المبدأ . فهو في احدى نشراته العتيقة بصرح بما يأتي : « انه لا يتدخل اطلاقاً في مسائل الحكومة أو التشريع المدني والديني ، وهو يحمل أعضائه على الاشتراك في ترقية جميع العلوم ، غير انه يستثنى قبول المشتغلين بفرعين من أعمل فروعها ، هما السياسة والدين ، لان هذين العلمين يفرقان بين الافراد والامم ، والبناء الحر يعمل بالعكس على اتحاد الافراد والامم » ومع ذلك فان « المشرق الاعظم » قد رفع القناع في العهد الاخير ، وأثبت بأعماله وتصرفاته انه يسعى الى تحقيق ما رتب سياسية . ففي سنة ١٨٨٧ صرح بناء مشهور هو الاخ بلان في محاضرة وزعت على المحافل بما يأتي : « رون معي ايها الاخوة ضرورة تحويل البناء الحر الى جمعية سياسية اجتماعية هائلة قوية يكون لها أثر حاسم في قرارات الحكومة الجمهورية » . وصرح البناء فرنان مورييس سنة ١٨٩٠ بقوله : « يجب ألا يحدث شيء في فرنسا دون أن يكون لعمل البناء الخفي أثر فيه ، ولئن اعزم البناءون أن ينظموا أنفسهم فلن تمضي عشرة أعوام حتى لا يستطيع أحد في فرنسا أن يتحرك دون اشارتنا »

وفي كل ذلك ما يكشف أمر المعارضة القوية التي نظمها « المشرق الاعظم » لمقاومة الكنيسة والحكومة مؤيداً بذلك خروجه على دستور البناء الاصلي . هذا الى ان « المشرق الاعظم » ثوري في نزعه هدام في جهوده السياسية ، فهو خلافاً للبناء البريطاني الذي يجعل شعاره : « الحب الاخوي والغوث والحقيقة » يعتنه

شعاراً ابتدعته المحافل الفرنسية القديمة وغداً فيما بعد صيحة الثورة، الفرنسية وهو : « الحرية والمساواة والأخاء » . وشعار المساواة هذا هو الذي يحجب البناء الى الفرنسيين . وإذا كان « المشرق الأعظم » مخلصاً في اعتناق هذا الشعار فإنه يري اذن الى أن يحقق المساواة العامة على النحو الذي نادى به روبسبير وباييف . أما مبدأ الحرية ، وهو صيحة روسو التي أدمجت بعد في اعلان حقوق الانسان ، فيقول « المشرق الأعظم » بشأنها كما قال روسو من قبل : « ان كل الناس أحرار بالطبيعة وعلى ذلك فيجب ألا يخضع انسان لآخر أو ينتحل لنفسه حقاً في حكمه » . وأما مبدأ الأخاء فهو فكرة ثورية بالاريب وهي شعار الاشتراكية الثورية ، وشعار الشيوعية ، وليس لاعتناقه من معنى سوى ان البناء الحر الأعظم يقصد كباقي الجمعيات الثورية الهادمة الى محو كل شعور وطني وكل نزعة قومية على النحو الذي تنادي به اليوم دعاية :وسكو الشيوعية . وهذا ما يقرره البناء راجون في كتابه بوضوح حيث يقول : « ان البناء هو الذي يستطيع دون غيره أن يصوغ هذا القانون الانساني الذي يفضي نشاطه المضطرد في سبيل انشاء تناسق اجتماعي عظيم الى مزج جميع الاجناس ، والطبقات المختلفة ، والاخلاق ، والقوانين ، والعادات ، واللغات ، والازياء ، وستعدو دعوته الفاضلة قانوناً انسانياً لكل الضمائر » . ثم يقول في موضع آخر : « ان كل اصلاح خير ، وكل فائدة اجتماعية تترتب عليه ترجع الى مؤازرة البناء . وهذا اللغز يرجع الى قوة تنظيم البناء ، فهو يسيطر على الماضي . ولن يستطيع المستقبل افلاتاً منه . هذه القوة وحدها هي التي تستطيع تحقيق تلك الوحدة الاجتماعية البديعة التي تخيلها سان سيمون وأوين وفورييه ، ولئن شاء البناءون فان آراء أوائك المفكرين الانسانيين لن تبقى بعد مثلاً خيالية »

أوائك المفكرون الانسانيون هم الذين وصفهم كارل ماركس بالاشتراكيين الخياليين فشعار المشرق الأعظم اذاً هو الاشتراكية الخيالية « يتويا » ، وقد كان سواد أوائك الاشتراكيين من اخوة البناء ، أو من أعضاء جمعيات سرية اخرى . وهذا ما يؤيده البناء كلافل بوضوح حيث يقول : « ليمح من بين الناس فروق الجنس والمراتب ، والمذاهب والآراء والوطن ، ليمح التعصب ، وليقض على وباء الحرب ، وبالجملة ليجعل من الجنس البشري أسرة واحدة يوحدتها الحب والاخلاص والعمل والعلم . هذا هو العمل العظيم الذي أخذه البناء الحر على عاتقه . . . »

هذه المبادئ والغايات ، هي التي ينادي بها اليوم تلاميذ ماركس ولين ودعاة الثورة العالمية !

١٠- أما فيما يتعلق بالدين فإن «المشرق الاعظم» قد خرج أيضاً على دستور المحفل الاكبر البريطاني الذي يقضي ، كما رأينا ، بعدم التعرض للمسائل الدينية. وقد أضحى البناء قوة في الامم الكاثوليكية يضطرم النضال بينه وبين الكنيسة ، وقد صرح بناء مشهور هو البانيسي بقوله : « ان البناء الحديث عدو الكنيسة وعدو الكنيستة ، هو كنيسة الاتحاد » . بل صرحت مجلة المشرق الاعظم في سنة ١٨٨٥ بما يأتي : « نحن البناؤون الاحرار يجب أن نقصد الى هدم الكنيستة هدماً تاماً » ، ولا يقتصر «المشرق الاعظم» على مناصبة الكنيستة العدا بل يهاجم كل المذاهب والنحل الدينية ، وكل ضروب الايمان الروحي. وقد قرر «المشرق الاعظم» في سنة ١٨٤٩ اعتناق فكرة المهندس الاعظم للكون ، وخلود الروح اذ صرح « بأن قاعدة البناء الحر هي الاعتقاد في الله ، وفي خلود الروح ، وتضامن الانسانية » بيد أنه لم يمض زمن طويل على ذلك حتي محا هذا النص من مبادئه وأغفل كل اشارة للمهندس الاعظم ، واستحدث النص الآتي « ان قاعدة البناء الحر هي حرية الاعتقاد التامة وتضامن الانسانية » . وقد حدا ذلك بالمحفل البريطاني الذي لا يذهب في حرية الاعتقاد الى حد الاتحاد والانكار ويحتم أن ينتمي كل بناء الى دين ما وأن يوضع فوق المائدة في المحافل كتاب مقدس - كالتوراة في انجلترا ، والقرآن في البلاد الاسلامية - حدا به ذلك الى أن يقطع علائقه مع المشرق الاعظم في سنة ١٨٧٨

ولم يقف المشرق الاعظم في عدائه للدين عند هذا الحد بل طلب الى كل اعضاءه أن يعلنوا اعتقادهم بأن المهندس الاعظم (الله) ليس الا خيالاً وحديث خرافة ، وصرحت المحافل بالمطاعن الحادة في الدين ، ونقده ، وهدمه والسخرية من مبادئه ونظرياته ، مثال ذلك أن بناء حراً هو دلبش التي في سنة ١٩٠٢ في مادة بنائية خطاباً حماسياً شدد فيه الحملة على النصرانية ، وقال فيه : « لقد استمر الظفر الحليلي عشرين قرناً . غير أنه أخذ يحترق بدوره . واليوم يعلن ذلك الصوت الحفي - الذي أعلن ذات يوم موت بان في جبال ابيروس - موت ذلك الاله الدعي الذي وعد المؤمنين بعهد عدالة وسلام . لقد استمرت الخرافة طويلاً جداً ، ولكن الاله الكاذب يخفي بدوره ، ويذهب ليغيب في غبار القرون الى جانب آلهة الهند ومصر واليونان ورومة ، تلك الامم التي شهدت كثيراً من هذه المخلوقات الزائفة تهبط

الى اسفل هياكلها . ونحن البنائين الاحرار نغبط بأن نجاهر بأننا لا نغني بسقوط أولئك الانبياء الزائفين . وقد أخذت الكنيسة الرومانية التي أسست على دعائم الخرافة الخيلية تدهور بسرعة منذ أن أنشئت جمعية البناء . وكثيراً ما اختلف البنائون الاحرار على الوجهة السياسية ، ولكن البناء الحر قد أجمع في كل العصور على هذا المبدأ وهو : محاربة كل الخرافات الدينية وكل ضروب التعصب الديني «
والخلاصة أن «المشرق الاعظم» على ما يؤكد خصوم البناء الحر ، هيئة هدامة ، تقصد الى سحق جميع المبادئ الدينية والاخلاقية ، بيد أن بعض الباحثين لا ينسبون هذه النزعة الثورية الهدامة الى البناء الحر ذاته بل الى قوة خفية تعمل من ورائه ، وان المشرق الاعظم ستار فحسب ، وعلم ينضوي الاعضاء تحته للعمل لغاية مجهولونها ، بل لا يقف سواد البنائين في المراتب العليا على غايات الهيئة الخفية ، ولا على القوى التي تعمل من ورائها . ثم يقولون ان هنالك ثلاثة أنواع كبرى من البناء الحر متدرجة في السمو هي البناء الازرق وفيه لا يكشف شيء من الاسرار الحقيقية للاعضاء ويعتبر فقط مكاناً لاختيار الاخوة المخلصين ، والمراتب العليا وفيها لا يكشف للاعضاء من الاسرار الحقيقية سوى اليسير ويفهمون مع ذلك أنهم قد وقفوا على كل أسرار الهيئة ، والهيئة الداخلية ، وهي مرتبة «الاساتذة الحقيقيين» وهم الذين يحتجبون وراء البناء الاعلى ، ولا تعتبر الدرجات في اختيارهم دائماً . وهذه الهيئة الداخلية ، أو البناء الحر الخفي دولية الصبغة الى حد عظيم

١١ - فما هي هذه القوة الخفية التي تسير البناء الحر ولا ترى ؟ يجب البعض أنها هي القوة «اليهودية» وان قادة المشرق الاعظم سوادهم من اليهود . ثم يقولون انه لا مرء في أغراض البناء الثورية ، بل لا مرء في أن هذه الأغراض هي غايات الاشتراكية الدولية نفسها . ويكفي للتحقق من ذلك أن نلقي نظرة على برنامج المناقشات في ٥ يونيو سنة ١٩٢٢ كما نشرته مجلة المشرق الاعظم :

(١) «الاتحاد وفرنسا» . قراءة تقرير اخينات . . . س . . . ف . . . شاردار عن «استثمار الثروات القومية لفائدة الجماعة»

(٢) «المجددون» : «استثمار الثروات القومية والمشاريع الكبرى لفائدة الجماعة»
محاضرة أخيتاف . . . جولدمشت عن نفس الموضوع

(٣) «الانسانيون المتحمسون» : «هل نعمة ضرورة لتغيير المجتمع الحاضر ؟»
محاضرة . . . الخ

(٤) «السلام والعمل والتضامن» : «دور البناء الحر في السياسة الحاضرة» ...

(٥) «الاشتراكية الفرنسية» ...

(٦) «القلوب المتحدة المجتعة» : «كيف نبث مثلنا البنائية في العالم الدنس» ...

(٧) «الارهاب والخطر الفاشستي في ايطاليا. الفاشزم والبناء الحر الايطالي» ...

نرى من ذلك أن البناء الحر يعتنق المثل الاشتراكية ، بل يبت الاشتراكية ذاتها ، وهو لذلك خصم الفاشزم والفاشزم خصيمة الاشتراكية كما نعلم ، وقد ظهرت هذه الخصومة واضحة منذ انتصار الفاشزم في ايطاليا ، وقيام الارهاب الفاشستي على يد موسوليني وشيعته ، حيث أصدر البناء الحر في ايطاليا عدة قرارات يعارض بها سياسة موسوليني ، وصفتها الصحف الفاشستية بأنها تأيد لنفس المبادئ التي كادت تؤدي بايطاليا أعني المبادئ الاشتراكية ، وعلى ذلك أصدر موسوليني أمره بأن يهجر المحافل كل فاشستي

وقد سلك البناء الحر في بلجيكا نفس هذه السبل السياسة وأبدى مثل هذه النزعة الهدامة ، واعتنق التفكير الحر . ولم يقف البناء الحر في اسبانيا والبرتغال عند بث الدعوة الهدامة بل خاض غمار الثورة خوفاً وقد أخفقت مساعيه الثورية في اسبانيا ، ولكنها كللت في البرتغال بفوز تام . فبعد سنة ١٩١٠ الى سنة ١٩٢١ كانت الثورات البرتغالية تنظم بإشراف البناء الحر وجمعية «الكوربوناريوس» السرية ، وهما اللتان دبرتا مقتل الملك كارلوس وولده والملكة اميلي وزوجها ، وكان من زعماء الجمهورية الجديدة مجاليس ليمبا الاستاذ الاعظم للمشرق الاعظم البرتغالي . والبناء الحر هو الذي دبر مقتل السنيور بايس رئيس الجمهورية في سنة ١٩١٨ ، وكذلك مقتل غيره من الزعماء والرؤساء ، بل ان الحكومة البرتغالية الحالية لا تخفي صبغتها البنائية ، فهي تطبع المربع والبرجل فوق أوراقها المالية

١٢ - وبينما البناء الحر في اسبانيا والبرتغال يخوض غمار الاضطرابات الثورية والفوضوية ، اذا به في شرق أوروبا يعتنق الاشتراكية المركسية (الشيوعية) ، ويعمل في الغالب بإشراف اليهود وتديرهم . وقد نشرت في المجر بعد سقوط حكومة بيلاكون الشيوعية وثائق تؤيد أن الاشتراكية اجتاحت جميع المحافل ، وان نظريات ماركس وانجلز كانت تلقن الى اخوة البناء الحر منذ بدء هذا القرن ، ويدعون الى نبذ المثل الخيالية «التوبيا» لان مصالح الكتلة العامة تعارض أشد المعارضة مع مصالح

الطبقات الاخرى ، ولا يمكن تحقيق هذه المصالح الا بالجهاد الدولي . وقد كانت حكومة كارولي ثمرة لهذه الدعوة ، ومن ثم استطاعت العناصر المتطرفة أن تنمو وأن تشق طريقها الى الثورة

كذلك اتخذ البناء الحر في أنحاء أخرى من شرق أوروبا صبغة سياسية قومية ، فقد نشأت حركة تركيا الفتاة في محافل سالونيك بإشراف المشرق الاعظم الايطالي ، وهذه الحركة هي التي اعتمد عليها مصطفى كمال بعد في وئده لتخطيم نير الاستثمار الاوربي الذي دفع باليونان الى غزو الاناضول ، وانقاذ البقية الباقية من الدولة العثمانية الذاهبة لينشئ منها تركيا الحديثة الناهضة . ومما يلفت النظر أنه ما زالت توجد في بلدان المشرق آثار من الجمليات السرية الشرقية القديمة ، كالدروز مثلاً ، وهم الذين يمكن وصفهم بحق أنهم بناؤو المشرق ، فنظامهم الخارجي ، ومراتبهم تشابه مراتب البناء الحر في الأمم الغربية ، ومع ذلك فقد بلغ من حرصهم في التكتّم أن قلما يستطيع انسان أن يقف على حقيقة مبادئهم السرية ، وان عرفت عنهم بعض أمور أوردنا خلاصتها فيما تقدم

١٣ - بقيت كلمة عن البناء الحر البريطاني ، فهو يختلف كما رأينا في نظمه ونزعته وغاياته عن المشرق الاعظم . والمعروف ان البناء في بريطانيا هيئة إنسانية تعمل لتخفيف آلام البشر وتحقيق التضامن والاخاء . وأهم من ذلك وهي نقطة الخلاف الجوهرية ان البناء البريطاني غير سياسي في نزعته ولا غايته في القول وفي الفعل ، وحدث دليل على ذلك ما ورد في تقريره الذي أصدره مجلس المحفل الاكبر في ٥ ديسمبر سنة ١٩٢٣ قيل إجراء الانتخابات التي أسفرت عن قيام حكومة العمال من انه « يحظر في الاجتماعات البنائية المناقشة في كل امر ذي صبغة سياسية ، ويجب ألا يستخدم البناء لاي غرض شخصي او سياسي متعلقاً بالانتخابات ، وان كل محاولة يقصد بها زج البناء الى غمار المعركة الانتخابية يعتبر خروجاً خطيراً على نظم البناء » وهذه النزعة قديمة في البناء البريطاني ، كذلك لا يعتق البناء البريطاني نزعة دولية ، وفكرة النظم الدولية للبناء ترجع الى سنة ١٨٨٩ حينما قرر مؤتمر البناء في باريس ان يحيي ذكرى الثورة الفرنسية ، بيد انها لم تخرج الى حيز الفعل الا في مؤتمر جنيف الذي عقد في سبتمبر سنة ١٩٠٢ إذ قرر مندوبو المحافل ، والمحافل العظمى ، والمشارك العظمى إنشاء مكتب دولي للشؤون البنائية ، ووافق على هذا القرار

محافل عشرين دولة . ولم يشترك البناء البريطاني في هذا المؤتمر او غيره من الحركات المماثلة

وعلى ذلك فقد خاصم البناء البريطاني المشرق الاعظم منذ البداية بسبب مبادئه وزعائه التي تعتبر خروجاً على تعاليم الطائفة الاصلية وان كانت هذه الخصومة شكلية في الظاهر ولم تقتزن بيوادر عنف ولا يعرف عنها العالم الخارجي سوى النزر اليسير وإذ كان البناء البريطاني بعيداً عن اهواء السياسة ، فهو بعيد عن النزعات الثورية ايضاً . اما زعته الدينية فهي حرية الاعتقاد كما رأيت ، وهو لذلك بعيد عن تعصيد هذه الدعوات العنيفة التي يقصد بها الى هدم التعاليم والمعتقدات الدينية

الفصل الثاني

فردريك الكبير والجمعيات السرية

(١) فردريك والبناء الحر . جمعية الرقة الصارمة (٢) تجديد جمعية الفرسان . الدور الذي لعبه فردريك وفولتير في ذلك . فردريك ينشئ مراتب جديدة للبناء ويجوز ان أرفعها (٣) آثار سياسة فردريك . دائرة المعارف من عمل البناء الحر . وحي البلاط البروسي (٤) جمعية صفوة الاحبار . رسومها ومراتبها . بعض الجمعيات الاخرى . استنارها بالبناء الحر . اتحاد الخافق . سافلايت دي لانج . الجمعيات مهبط وحي خفي

١ - كان فردريك الكبير قبل ارتقائه العرش البروسي يسخر من البناء الحر ويصفه بأنه لعبة لاعب ، غير أنه في سنة ١٧٣٨ أي حينما كان ولياً للعهد اعتزم فجأة أن يتعرف أسرار البناء الحر ، فجاز رسوم الالتحاق بالطائفة على عجل في ليلة ١٥ أغسطس أثناء مروره بمدينة برونسفيك . وتم الاحتفال في أحد الفنادق على يد وفد انتدبه لذلك كونت فون ليبه يكا بوج عضو محفل همبورج . ثم نرى فردريك في يونيو سنة ١٧٤٠ أي بعد أن ارتقى العرش رئيساً لمحفل كارلوتنبرج ، وزراه يضم الى المحفل اثنين من اخوته وصهره ، ودوق ولهم فون هولشتاين بك . ثم أسس البارون فون بيلفلد والمستشار يوردان بأمره محفلاً في برلين باسم « العوالم الثلاثة » ولم تأت سنة ١٧٤٦ حتى كان يسيطر على أربعة عشر محفلاً ثانوياً . وفي سنة ١٧٤٠ أيضاً دعا فردريك فولتير الى زيارته ، وكان يكتبه قبل ذلك بأعوام ، فلبى فولتير دعوته وزاره لأول مرة . ويقال ان فولتير لم يكن قد التحق حينئذ بالبناء الحر وانه لم يلتحق به الا في سنة ١٨٧٨ حينما انضم الى محفل الاخوات التسع في باريس ، غير أن الظاهر أنه كان ينتمي قبل ذلك الى هيئة بنائية أخرى . وعلى أي حال فقد تلى زيارة فولتير لالمانيا حادثان مهمان في البناء الحر الفرنسي أولهما انشاء الدرجات الاضافية ، والثاني قدوم مندوب الماني بناء هو فون مارشال الى باريس بمهمة انشاء هيئة جديدة من فرسان المعبد واحياء هذه الهيئة . ثم تبعه بعد ذلك بعامين البارون فون هونت ليم نفس هذه المهمة . وأذاع فون هونت حينئذ دعوة حاول أن يثبت فيها أن التهم التي أسندها فيليب الجميل والبابا الى طائفة الفرسان كانت تهماً كاذبة مزورة لفقها فارسان جردتهما الهيئة من امتيازاتهما لجرائم ارتكباها ، وانتهى في سنة ١٧٥١ بأن أسس هيئة

جديدة من الفرسان باسم « الرقابة الصارمة » Stricte Observance . وكانت « الرقابة الصارمة » في الواقع جمعية ألمانية محضة قوامها رجال من الطبقات المتنورة والارستوقراطية، وأنشئت مراتبها على نمط مراتب الفروسية القديمة ، مثل فرسان القمر ، والكوكب والشمس الذهبية وغيرها ، وانضم اليها جماعة من الامراء والوزراء الالمان مثل كارل أمير هاسه ، ودوق برونسفيك ، والوزير البروسي فون بشوفسفردر وغيرهم . وكانت الهيئة ظاهرة معروفة يقودها في الظاهر جماعة من ذوي الجاه والنفوذ ، غير أنها كانت في الواقع آلة في أيدي زعماء مستورين يسيرونها في الخفاء . وقد أشار ميرابو الى ذلك في كتابه عن تاريخ الملكية البروسية ، بقوله : « ظهر حوالي سنة ١٧٥٦ ، رجال كانوا خرجوا من بطن الارض ، يزعمون أنهم رسل رؤساء مجهولين وقد خولوا حق اصلاح طائفة البناء الحر ، واعادتها الى مقامها القديم . وقد وفد واحد من اولئك الرسل يسمى يونستون على فيار ويننا واستقر هناك ، فاستقبله الاخوة (البناءون) أحسن استقبال ، وقد خلبهم أمل الاسرار العظيمة ، والاكتشافات الهامة التي لم تكشف اليهم قط »

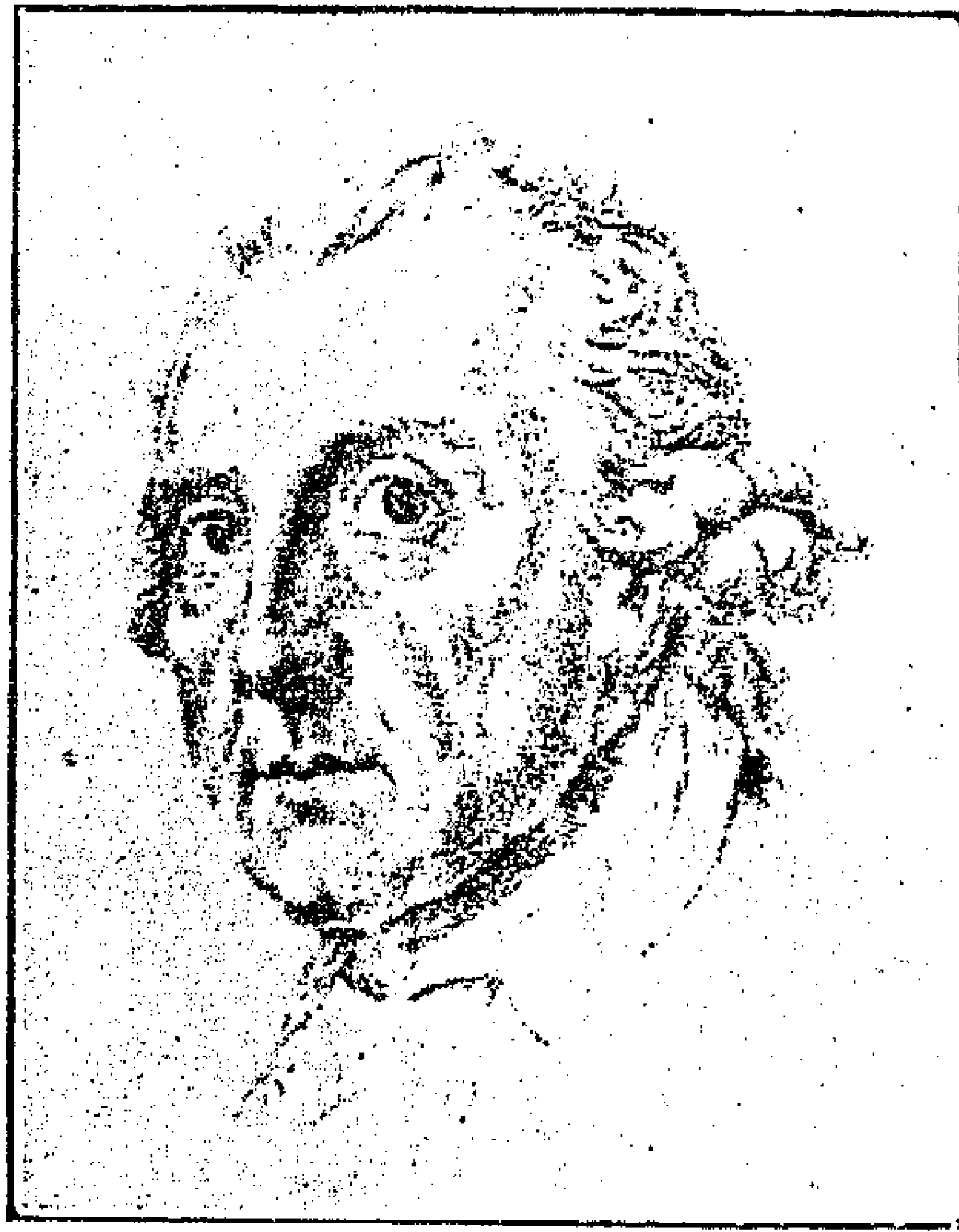
وقد ورد في مذكرات أمير هاسه ان ذلك الرجل المدعو يونستون الذي كان يلقب نفسه « بمقدم الطائفة الاكبر » هو يهودي يدعى لاينخت ، ويقول عنه جولد في تاريخه (البناء الحر) : انه كان أفقاً خبيثاً وداعية في الخداع والدس . بل كان في الواقع خطراً على الطائفة حتى ان فون هونت بعد أن استخدمه حيناً حرض به فزج الى قلعة فارتنبورج حيث توفي فجأة مسموماً على ما يظهر

٢ - ولتعاقب هذه الحوادث على هذا النحو مغزى ظاهر ، فهي كلها ثمرة الدعوات السرية المختلفة التي كانت تحتاح أوربا وقتئذ بلغايات وأغراض خفية ، ومن المهم أيضاً ما ورد بعد ذلك في تاريخ طائفة فرسان المعبد الذي ظهر في أوائل القرن التاسع عشر وأشرنا اليه في فصل سابق من أن فردريك الكبير كان من أعظم أعضاء هذه الطائفة ، وأنه قدس في سنة ١٧٣٨ أي في نفس الوقت الذي انضم فيه الى البناء الحر وهذا مما يؤيد علاقة فردريك بطائفة الفرسان في هذا العهد

وعلى ذلك فاما أن تكون هذه الوثائق التي أصدرت عن جمعية فرسان المعبد في أوائل القرن التاسع عشر صحيحة بمعنى ان الجمعية استمرت في الوجود حقيقة منذ الحروب الصليبية ، وان مرتبة الصليب الوردي قد نقلت على يد الفرسان الى ايكوسيا ثم نقلها الشفالييه رامسي الى فرنسا بعد ذلك بأربعة قرون ، وان الاستاذ الاعظم

للجمعية في ذلك الحين كان الدوق دورليان وصي المملكة ، وان فون هونت قد نقل بعد ذلك من ألمانيا درجات جديدة للفرسان بأمر فردريك الكبير
واما ان تكون هذه الوثائق مزيفة ، كما يرى البعض ، زيفها في أوائل القرن
الثامن عشر زعماء « الرقابة الصارمة » في ألمانيا ، وان فولتير وفردريك الاكبر كانا
أعظم أوائل الزعماء المستترين

وسواء صح القول الاول أو الثاني فان فردريك الكبير قد ادى في الحالتين اهم
دور في تجديد الفرسان بمساعدة فولتير الذي يشيد بقضية الفرسان في رسالته عن
الاخلاق Essai sur les Moeurs



فردريك الكبير ملك بروسيا

وظاهر ان الاهواء والدسائس السياسية هي التي حملت فردريك الكبير على
ان يزج بنفسه في هذه الحركات السرية ، فقد رأى بادية بدء ان البناء الحرقوة
سرية يمكن الاعتماد عليها ومن ثم كان التحاقه الفجائي به ، غير انه رأى تقوية لنفوذه
ان يستتر بالمعرفة العليا وان يستمسك باذيال الخفاء ورأى في نظام الفرسان حجاباً
نافعاً يحقق هذه الغاية . كذلك لا ريب في انه لم يجد بين علماء اوربا من هو اكثر

المأمن من صديقه فولتير باخبار العصور القديمة والوسطى ، واشد عداوة للكنيسة الكاثوليكية ، واوفر كفاية لاجلاء طائفة قديمة انشئت لمحاربة تعاليمها . ومن ثم كان استدعاؤه للفيلسوف تلي عجل ، ومن ثم كان تزيف الوثائق اللازمة على يد مزور ماهر . يؤيد ذلك ما رأيناه من قدوم فون مارشال الى فرنسا لتأسيس الفرسان من جديد ، وكذلك إدعاء فون هونت بعد ذلك أنه قد ظفر بأسرار الطائفة الحقيقية كما تنقلت منذ القرن الرابع عشر ، بل لعل هذه الأسرار والوثائق التي أشار إليها فون هونت هي بعينها التي نشرت في أوائل القرن التاسع عشر ، وأنها كانت من صنع فولتير نفسه بمعاونة يهودي مجيد كتابة السريانية ، وكثيراً ما كان فردريك الكبير يستخدم اليهود للقيام بمختلف المهام ولا سيما المريبة منها



فولتير

ومهما كان من الأمر فإن اهتمام فردريك الكبير بامر البناء الحر والسيطرة على حركاته يبدو مضطرباً خلال القرن الثامن عشر ، ففي سنة ١٧٨٦ حيناً أنشئت مرتبة الكمال كان فردريك على ما يقال هو الذي قام برسوم الاحتفال ووضع نظاماً جديدة للطائفة ، ونظم الدرجات ورفع عددها الى ثلاث وثلاثين على النحو الآتي :

(٢٦) امير الرحمة (٢٧) قائد المعبد الاعلى (٢٨) فارس الشمس (٢٩) الفارس الايكوسي الاعظم للقديس اندروز (٣٠) الفارس المنتخب الاعظم لكادوش (٣١) القائد

المفتش المحقق الاعظم (٣٢) الامير السامي للسر الملكي (٣٣) المفتش العام الاكبر الاعظم^(١)

وفي الدرجات الاربع الاخيرة يلعب فردريك وبروسيا دوراً عظيماً ، وفي الدرجة الثانية والثلاثين يوصف فردريك بأنه رئيس البناء الحر الاوربي ، ثم ينال لقب الدرجة الاخيرة فيغدو « المفتش العام الاكبر الاعظم » ويوصف فيليب دوق دورايان وصي المملكة الفرنسية والاستاذ الاعظم للمشرق الاعظم بأنه نائبه ومساعدته وقد كانت الدرجة الثانية والثلاثون اهم الدرجات الجديدة ، وكان إنشاؤها في الواقع وسيلة لاحتذاب شعب البناء الحر كلها الى مركز واحد ووضعها تحت سلطان رئيس واحد ، ومن ثم كان نفوذ فردريك العظيم في حركات البناء الحر ، واعتباره بطل الطائفة في كل ناحية ، وليس ذلك بمعنى ان فردريك كان اميراً محرفاً يخلص لحرافات البناء الحر ، فهو بالعكس لم ينقطع عن ازدرائه والسيخريّة منه سرّاً ، بيد انه لم ينقطع ايضاً عن التظاهر باجلاله واحترامه قط ، وذلك تحقيراً للسياسة التي رسمها من السيطرة على قوى البناء الحر كلها وحشدتها لخدمة ما ربه وغاياته السياسية

٣ - وقد فاز فردريك في سياسته فوزاً عظيماً ، فاشتد نفوذ البلاط البروسي في الدوائر والاعواسط الفرنسية واجتمعت الحركة العقلية في فرنسا حول فردريك على يد البناء الحر ايضاً ، واخرجت دائرة المعارف الفرنسية الاولى على يد ديدرو ودالمبر وهلفاتيوس وكوندوسيه وغيرهم ، فأثارت دعوة فكرية عظيمة كان لها اثر كبير في عقلية المجتمع الفرنسي قبل الثورة . وقد كان هذا القاموس الكبير مشروعاً فكر البناء الحر في اخراجه منذ بعيد اي منذ ان أسس المشرق الاعظم في سنة ١٧٣٧ والتي الشفاليه رامسي خطبته الشهيرة التي اقترح فيها ان يتعاون الاكابر العظام في جميع الامم على حث الاخوة على التعاون لجمع مواد قاموس عام يحتوي كل الفنون والعلوم الحرة المفيدة . فلما انتظمت احوال المشرق الاعظم ، واستطاع البلاط البروسي ان يملك زمامه وناصيته ، أوحى الزعماء المحجبون الى ديدرو وزملائه وكاهنهم من البنائين الاحرار ان يضعوا قاموسهم العظيم وامدوهم بالنصح والمال ، وطلع القاموس الكبير على المجتمع الفرنسي بكل جديد في العلوم والمعارف ، يفيض هدماً للمبادئ والتقاليد القديمة ، وطعناً في المعتقدات والحرافات الدينية حتى اضطرت الحكومة الى التدخل ووقف اتمامه

(١) عددنا المراتب الخمس وعشرين الاولى في كلامنا عن البناء الحر

وكون اخراج دائرة المعارف في القرن الثامن عشر عمل من اعمال البناء الحر ، امر لا ينكره البناؤون انفسهم بل يفخرون به ويشيدون بذكره ، ومن ذلك ما قاله البناء بونيه في مؤتمر المشرق الاعظم الذي عقد في سنة ١٩٠٤ :

« في القرن الثامن عشر كان الانسيكلوبيديون يؤلفون في معايدنا هيئة مضطربة كانت هي التي وحدها تستمد الصيحة الباعرة التي لم يكن يعرفها الناس يومئذ وهي : « الحرية والمساواة والاخاء » . وقد أمر البذر الثوري عاجلاً بين هذه النخبة ، وانهم اخواتنا البناؤون المشاهير دالمبر وديدرو وهلفاتياس ودولباخ وفولتير وكوندرسيه تطور العقول وهياوا العدة لمهد جديد . فلما سقط الباستيل ، كان للبناء الحر الفخر العالي في ان يهب الانسانية ذلك القرار الذي صاغه باخلاص : اعلان حقوق الانسان »

والواقع ان فردريك وخلفاءه من آل هوهنتسولرن كانوا جميعاً يحرصون على استخدام أية حركة أو جماعة تساعد على نشر النفوذ البروسي والسيادة البروسية . وقد استخدم فردريك البناء الحر لذلك الغرض ، واستخدم اليهود والفلاسفة والكتاب من مختلف الامم ، وكل ذلك سميّاً الى تحقيق مشروعه العظيم وهو سحق الملكية الفرنسية وفصم تحالفها مع النمسا الذي كان يرى فيه خطراً عظيماً على حياة بروسيا

٤ - في ذلك الحين ظهرت في فرنسا هيئة أخرى تتشعج برداء البناء الحر وليست منه . وكان شغف الحفء كما قدمنا يحتاج اوربا في أواسط القرن الثامن عشر ، وكان للمشعوذين والسحرة مكانة في بعض التصور مثل بلاط بطرسبورج في أيام الملكة حنه دي كورلاند . كذلك كانت الطبقات العالية في المانيا وفرنسا تشغف بدعاوي ما وراء الغيب ، والبحث لاستكشاف الاكبرالذهبي واكبرالحياة والشباب ، ومحاولة الاتصال بالارواح وغيرها من صنوف الحفء التي اتينا على وصفها . وقد انتظم هذا الشغف في فرنسا الى حركة منظمة ، رأت ان تستر بالبناء الحر لنشر دعوتها وإخفاء مقاصدها التي كانت تثير ريب السلطات . ففي سنة ١٧٥٤ أنشأ مارتين دي باسكالي او بسكاليس ، وهو بناء من مرتبة الصليب الوردي جمعية « صفوة الاحبار » Elus Cohens التي عرفت فيما بعد بجمعية المارتينيين أو « الشعلة الفرنسية » . وقد وصف باسكالي بأنه يهودي اسباني ، بيد انه اتخذ النصرانية شعاراً لطائفته . ولم تلبث هذه الجمعية ان غدت قوة كبيرة في فرنسا

وكانت رسوم « الشعلة الفرنسية » قسامين اولهما يمثل سقوط الانسان ، والثاني نهوضه ، وهي اسطورة البناء الحر بذاتها . وقد كانت الدرجات شبيهة بدرجات البناء الحر ايضاً ، وهي على الترتيب ، الحبر المتمرن ، الحبر الزميل ، الحبر الاستاذ ، ثم المهندس الاعظم ، والمنتخب الاعظم أو فارس الشرق . وقد بدأ باسكالي جمعيته في مرسيليا وتولوز وبوردو ثم انتقل الى باريس وانتشرت بعد ذلك في جميع مدن فرنسا ، وأنشئت لها محافل عدة كان مركزها الرئيسي في ليون ، وأنشئت على اثر ذلك عدة جمعيات أخرى للخفاء مثل « شعلة افنيون » التي أنشأها دوم برنتي في سنة ١٧٦٠ تحت ستار البناء الحر ايضاً ، وقصد أن ينشر بواسطتها تعاليم سويدنبورج . وكانت التعاليم اليهودية السرية نجثم وراء كل هذه الجمعيات ، وكلها تمجد تعاليم الصليب الوردي ورسومه التي رأينا أنها ترجع الى أصل يهودي . وأنشأ البارون فون اكهوفن في فيينا جمعية تعرف « باخوة آسيا » قيل انها تتمتع بجمعية « اخوة الصليب الذهبي الوردي » التي أنشأها في سنة ١٧٨٠ راهب سكسوني يدعى صويل رختر . بيد ان الغموض يحيط نشأة هذه الجمعية وغاياتها ، وكل ما يعرف عنها أنها كانت تضم يهوداً وتركاً وفرساً وأرمينيين ، وان درجاتها ورموزها كانت عبرية ، وانها كانت تعنى بمسائل الاخلاق والطبيعة وفك الطلاسم والرموز ، وان أعضائها كانوا يقسمون الاخلاص والطاعة العمياء لكل ما يلقي عليهم من التعليمات والاوامر دون معرفة مصدرها والغاية من تنفيذها

وقد ذاع أمر هذه الجمعيات والطوائف في كثير من الدول الاوربية ولا سيما فرنسا حيث شغف الناس بأسرارها وتعاليمها وهرعوا اليها رجالاً ونساءً ، وتدهورت رسوم البناء الحر ونظمه الى حفلات روحية تحضرها النساء فيصرخن ويغمى عليهن ، وغدت « الشعلة » قوة عظيمة تناهض البناء الحر ، حتى اضطرت جمعيات البناء على اختلافها الى التفاهم والاتحاد ، فانضمت جميعاً في سنة ١٧٧٨ الى محفل جديد يعرف « بالاخوة المتحدين » ، وكان ذلك الاتحاد على يد سافاليت دي لانج كبير الخزائن الملكية وكان سافاليت بناءً من درجة عالية ، عليمًا بأسرار المحافل ، متفقهاً في دسائسها وخفاياها فرأى توثيقاً لعرى الالفة والاتحاد بينها أن يمزج في المحفل الجديد بين طرق المارتينية والشعوذة ، وأن يجتذب اليه الارستوقراطية باقامة الحفلات والمراقص الشائقة فكان يهرع اليها النبلاء والسادة رجالاً ونساءً دون أن يعلموا أن وراءها تختفي جمعية

سرية هائلة ، ترمي الى تحقيق المساواة فيما وراء قصورهم وبذخهم . وأنشأ ساقايت دي لانج في نفس الوقت رسوماً جديدة هي مزيج من تعاليم سويدنبورج ، وباسكالي ، وأسرار الصليب الورددي ضم إليها زعماء « الاخوة المتجددين » مثل الكونت دي جيلان ، وأمير هاسه ، وكوندريسيه وغيرهم

من صميم هذه الحركة برز أقطاب السحرة والافاقين الذين حيروا قصور هذا العصر ومجتمعاته بافتنائهم في ضروب السحر والسيماه والشعوذة ، وقد كانوا جميعاً من البنائين الاحرار في الظاهر بيد أنهم كانوا جميعاً ينتمون الى جمعيات سرية أخرى . وقد أتينا على سيرتهم وأعمالهم في فصل سابق . بيد أن الذي يزيد أن نلفت اليه النظر هنا ، هو ان الوحي الذي كانت تتلقاه هذه الجمعيات ويتلقاه أوائك السحرة ، كان يرجع الى مصدر غير هذه الجمعيات نفسها ، وأنه كانت ثمة في الخفاء قوة أخرى تشرف على تلك الحركة برمتها ، وتديرها في كل بلد بما يتفق مع خططها وغاياتها

ما هي هذه القوة الخفية ؟ وما هي الغايات التي كانت تسعى الى تحقيقها ، وتحشد من أجلها الجمعيات السرية ، والسحرة والسيمايين والافاقين ؟ هذا ما سنحاول ان نبينه في الفصل القادم

الفصل الثالث

مدرسة الكابالا اليهودية

(١) أصل الكابالا . الروح النورية اليهودية (٢) انتشار التعاليم اليهودية . ظهور شاييتاي أو المسيح المنتظر . اسراييل البدولي . فركل وظائفه (٣) مبعث السحرة اليهود . الدكتور فوك وعجائبه (٤) حقيقة مهمة فوك . فوك والشاعر ليسنج . ماذا وراء البناء الحُر ؟

١ - ان الدور الذي قام به الدعاة اليهود في بث روح الثورة ، وانشاء الجمعيات السرية واثارة الحركات الهادمة عظيم جداً وان كان من الصعب أن نعيّنه بالتحقيق . منذ أقدم العصور نرى أثر التعاليم اليهودية الفلسفية السرية ظاهراً في معظم الحركات الثورية والسرية ، وقد أشرنا الى ذلك في فرص سابقة عدة ، وذكرنا أن المصدر الذي تجتمع فيه التقاليد اليهودية السرية إنما هو فلسفة الكابالا وهي كلمة عبرية معناها ما يتلقى ، أعني التقاليد . والكابالا هي مزيج من الفلسفة ، والتعاليم الروحية ، والشعوذة ، والسحر ، متعارف عند اليهود منذ أقدم العصور . وقد ظهر أثر تعاليمها واضحاً في المجتمعات الأوروبية . وبالأخص منذ القرن الثاني عشر . وخلاصة هذه التعاليم هي أن الله هو كائن مطلق ، ولما كان هذا الكائن يشعر بوجوده فهو ينفث نفسه الى عالم الارواح النقية والملائكة من طرق مختلفة ، وان روح الانسان تنتقل من جسم الى جسم حتى تعود في النهاية الى الله وتنفى فيه . وكان دعاة الكابالا يعلّون أهمية كبرى على السحر والشعوذة ، وأسرار الطالسم والرموز والأرقام . وقد أدمجت تعاليم الكابالا وأسرارها ورموزها في وثيقتين عبريتين هما « السفر جزيرا » أو كتاب الخلق ، وهو مجموعة من الأحاديث والخطب رويت على لسان ابراهيم ، و« السفر هازوهار » أو كتاب الضوء المعروف عادة « بزوهار » وقد كتب بأللوب ارامي يحمل على الاعتقاد بأنه قد وضع في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر ، ويرى بعض الباحثين الحديثين أنه من تصنيف موسى الايوني الاسباني

وقد رأيت أن أساطير الكابالا ، وتعاليمها ورموزها ، كانت مستترة لمعظم الجمعيات السرية الخفية عن فرسان المعبد الى البناء الحُر (الماسونية) في وضع نظمها ورموزها ، وانها كانت في الغالب مبعث الوحي لكثير من الطوائف الخارجية والهادمة كاخوة الشيطان ، وأصحاب القديس الاسود ، وطوائف السحرة على اختلاف طوائفهم

وغاياتهم ، وجمعية المسممين ، وغيرها من جمعيات الحفاء التي أتينا على سيرتها .
وكون اليهودية مبعث الروح الثورية على كل العصور ، وكون اليهود دعاة الثورة
وقادة التقويض والهدم ذلك مما يقزه البحث التاريخي السليم ، واليك ما يقوله كاتب
من أعظم كتاب اليهودية هو برنار لازار في كتابه عن « خصومة السامية »^(١) : « ان
لشكوى دعاة الخصومة السامية أساساً على ما يظهر ، فاليهودي يضطرم بروح ثوري ،
وهو داعية لثورة سواء شعر بذلك أو لم يشعر » ، والواقع ان الدور الذي لعبه
اليهود في الثورات الحديثة ظاهر لا سبيل الى انكاره ، وبالبحث والاستعراض ترى
انه دور مزدوج فهو يستند الى المالية والحفاء معاً . ذلك ان اليهود منذ العصور
الوسطى امتلكوا ناصية الشؤون المالية في معظم المجتمعات الاوربية ، وجردوا عليها
في نفس الوقت سيلاً من ضروب السحر والحفاء . وأمدوها بأقطاب المشعوذين
والسحرة . وكانوا حينها هبت ربح الثورة الاجتماعية أو السياسية يحشون من وراء
ستار ، ويميلون الى الجانب الظاهر ليسأخذوا نصيبهم من الاسلاب والغنيمة ، وحينما
كانت الشعوب النصرانية تنهض للخروج على نظمها كان الاحبار والفلاسفة والاساتذة
والمشعوذون اليهود يأخذون بناصر الثوار ويؤيدونهم في وثباتهم الهادمة . واذا كان
اليهود في معظم هذه الثورات لا يضرمون النار ، ولا يثيرون العاصفة ، فقد عرفوا
دائماً كيف يسيرونها لفائدتهم وتحقيق غاياتهم

٢ - في منتصف القرن السابع عشر كانت التعاليم الروحية اليهودية قد نفذت
الى جميع أنحاء أوربا . والظاهر ان تيار هذه التعاليم قد تسرب الى أمم الغرب من
شرق أوربا ، فمنذ القرن السادس عشر اجتمع اليهود واستقروا في بولونيا ،
وظهر هنالك جماعة من السحرة والمشعوذين اليهود تعرف « بالزاركيم » أو جماعة
« بعل شم » ، والكلمة الاخيرة معناها « سيد الاسم » ومصدرها نظرية كabbالية تزعم
ان بعض اليهود الذين تتوفر فيهم شروط معينة من القدسية يستطيعون ان يستخدموا
الاسم الاعظم دون وازع . « والبعل شم » هو شخص يملك هذه القوة ويستخدمها
في كتابة الطالسم ، ومخاطبة الارواح ، ومعالجة الامراض وغير ذلك . ثم غدت

(١) خصومة السامية L'Antisémitisme ، تعبير يقصد به عداء الشعوب الارية
لل يهود ومقاومتها لهم ، وهو تعبير خاطيء في الواقع لان اليهود ليسوا وحدهم بالساميين ، بل
يتخلل معهم العرب وغيرهم من قبائل سام الاثني عشرة بيد أنه يستعمل اليوم للدلالة على مخاصمة
الشعوب الغربية لليهود

بولونيا ، وبالأخص مقاطعة يودوليا مركزاً للحركة الكابالية التي تمخضت هناك عن سلسلة من قورات الحلقاء والشعوذة المدهشة . وفي سنة ١٦٦٦ اضطرب العالم اليهودي من أقصاء الى أقصاء للظهور داعية بسمى شايتاي تسبي وهو ابن تاجر أزيري يدعى مردكاي ، زعم أنه هو المسيح المنتظر ، وكانت فكرة المسيح المنتظر ذاتمة



شايتاي تسبي

عندئذ في المجتمع اليهودي ، وكانت الاوساط اليهودية الرجعية تؤمن بقرب ظهور هذا المسيح ، ولذلك صادقت دعوة شايتاي تأييداً كبيراً بين يهود فلسطين ومصر وشرق أوروبا ، بل أيدها كثير من اليهود المتنورين وأصحاب الاموال لاغراض سياسية ومالية ، وكان شايتاي متمكناً من تعاليم الكابالا ، علماً بأسرارها ونظرياتها الروحية ،

بارعاً في ضروب الشعوذة ، وقيل انه كان يأتي الخوارق ، وان جلده كان ينضح المسك ، وكان ينهك في الاستحمام في البحر ويعيش في حالة ذهول مستمر . وقد انقسم اليهود ازاء مزاعم شايتاي الذي اتحل لنفسه لقب « ملك ملوك الارض » الى قسمين : خصوم ، وأنصار . فأما الخصوم فهم الاحبار والدعاة وكان هؤلاء يناصرونه العداء ويكثرون من لعنه والهمة عليه . أما أولئك الذين استهوتهم دعوته وآمنوا بمزاعمه وتعاليمه فقد انقلبوا عليه حينما سخط منه السلطان وطلب اليه أن يثبت دعواه بأن يستقبل السهام المسمومة بصدره ، فارتد عن اليهودية فجأة وزعم أنه اعتنق الاسلام ، بيد أنه استمر يتقلب في مزاعمه وتعاليمه ازاء المسلمين واليهود طوراً بعد طور فيتظاهر أمام كل فريق بأنه من دينه وحزبه ، وبذلك الوسيلة استطاع أن يغمم مؤازرة تفر من اليهود والمسلمين معاً . غير أن الاحبار اليهود خشوا من دعوته على تعاليم اليهودية فسعوا به الى السلطان حتى أمر باعتقاله وسجنه في إحدى قلاع بلغراد ، وهناك توفي في سنة ١٦٧٦

على أن تحطيم المسيح المنتظر لم يخدم من حماسة أنصاره ، بل استمرت دعوة شايتاي في القرن الثامن عشر ، وأسفر نشاط المدرسة الكابالية عن فورة جديدة في بولونيا ، فظهر كثير من دعاة الزاركيم وبعلى شم ، وكان أشهر أولئك الدعاة اسرائيل البدولي الذي أسس طائفة « الحسديم » في سنة ١٧٤٠ . وكان اسرائيل يخاصم اليهودية الرجعية ، ويرجع تعاليمه الى « الزوهار » ، بيد أنه لم يسلم إطلاقاً بنظرية الكابالا في أن الكون هو صورة من صور الله ، بل زعم أن الكون كله هو الله ، وأن الشر عنصر من عناصر الله اذ ليس الشر خبيثاً في ذاته ولكن في علاقه بالانسان وعلى ذلك فليس للخطيئة وجود مادي . وكان اسرائيل بارعاً في ضروب السحر والشعوذة ، فالتف حول دعوته كثير من اليهود الذين خرجوا على تعاليم التلمود وتقاليده الاخلاقية . ثم ظهر في أثره داعية آخر هو هايلبرين المسمى بحويل بن أوري في ساتانوف وعكف على مزاولة الشعوذة والخوارق باسم الله وجمع حوله نفراً من الانصار ، استمروا بعد وفاته يستغلون سذاجة العامة حيناً

وقد كانت أشهر الجماعات الكابالية طائفة الفرنكيين ، الذين عرفوا أيضاً « بالزوهاريين » ، او اخوان الشعلة لانتمائهم الى الزوهار (كتاب الضوء) ، ومؤسسها هو يعقوب فرنك ، وهو داعية من أمهر دعاة الكابالا وأعلمهم بأسرارها وتعاليمها ، جمع حوله في منتصف القرن الثامن عشر في بودوليا جمهوراً كبيراً من الانصار

والدعاة، وعاش في بذخ شرقي هائل لم يهتد أحد إليه حقيقة مصدره، وأسس طائفته التي لبثت حيناً « تبث نظريات الألحاد والهدم بواسطة جماعات سرية تماثل في نظامها محافل البناء ». ونقم الاخبار اليهود من الزوهاريين نشاطهم في هدم اليهودية، واشتدت الخصومة بين الفريقين، حتى أعلن الزوهاريون في النهاية خروجهم على اليهودية علناً واعتنقوا النصرانية ومنهم فرنك نفسه، واتحدوا مع أسقف كامنيك على مقاومة الاحبار واليهودية. غير أن ارتدادهم لم يكن الا رياء، وسبيلاً من سبل الهدم خصوصاً وإن فرنك كان يذيع بواسطة دعاة في تركيا انه اعتنق الاسلام، وعلى ذلك قبض عليه في وارسو بتهمة الارتداد الكاذب ونشر الألحاد والكفر، وزج به الى السجن حيناً، فلما اطلق سراحه استمر في دعوته وتجول في أواسط أوروبا مع ابنته حوه التي استطاعت أن تؤثر في عقل الامبراطورة ماريا تريزا. غير أنه أتهم بالزندقة أيضاً وأخرج من النمسا، فانتقل الى ألمانيا واستقر في أوفنباخ بالقرب من فرانكفورت وتسمى بالبارون فون أوفنباخ، واستأنف بذخه الطائل مما كان يرد اليه من هبات انصاره والمعجبين به. وقد وصف ملهمان في كتابه « تاريخ اليهود » بذخ فرنك فيما يلي :

« كانت له حاشية من بضع مئات من الفتيان والفتيات اليهود ذوي الحسن الرائع، وكان يذاع أن صناديق الاموال تنهمر عليه في كل يوم ولا سيما من بولونيا، وكان يخرج كل يوم في موكب حافل ليقيم شعائره في العراء في عربة تجرها جياد مطهمة، ويحرسه عشرة أو اثنا عشر فارساً يرتدون الثياب الموشاة بالذهب، وقد رفعوا الرماح، ووضعوا في قبعاتهم أهلة أو شمساً أو أثماراً... وكان أنصاره يعتقدون فيه الخلود. بيد أنه توفي في سنة ١٧٩١، ودفن في بذخ يعدل بذخ حياته »

٣ - ونحن نذكر مما تقدم لنا سرده من سير أقطاب السحرة في القرن الثامن عشر أن البارون فون أوفنباخ لم يكن مثلاً وحيداً من نوعه، فهناك شبه عجيب بينه وبين زميله الشهيرين الكونت سان جرمان والكونت كاجليوسترو، وقد كان كل يدعي القدرة على الخوارق ويفتن في ضروب الشعوذة، ويعيش في بذخ عظيم لا يعلم مصدره، والاول يهودي بلا ريب، أما زميلاه فقيل انهما يهوديان أيضاً، وكلاهما من دعاة المدرسة الكابالية، ومن الراسخين في تعاليمها وأسرارها، وكلاهما اتفق أعواماً طويلة في ألمانيا. ثم ان كاجليوسترو انضم الى جمعية « الرقابة الصارمة » في كنف خفي يبعد قيد أميال يسيرة عن أوفنباخ حيث كان يقيم فرنك، ويقال فوق ذلك أنه

زار في شبابه بولونيا حيث ظهر فرنك . أفليس لنا بعد ذلك أن نستنتج أن أولئك الدعاة الذين عاشوا في عصر واحد وبأسلوب واحد كانت تربطهم رابطة خفية ؟ وأن ليس من ضرور المصادفة المحضة أن يظهر السحرة الكاباليون في بولونيا والمانيا في نفس الوقت الذي يظهر فيه السحرة في فرنسا ؟ وأن ليس من المصادفة أيضاً أن يؤسس فرنك طائفة الزوهاريين « اخوان الشعلة » في سنة ١٧٥٥ أي تمام واحد من تأسيس مارتين باسكوالي لطائفة « الشعلة » الفرنسية في سنة ١٧٥٤ ؟ أليس من المستطاع أن تتعرف المصدر الذي قذف بسيل السحرة هذا الى غرب أوروبا في طوائف المشعوذين التي أسسها هايلبرين واسرائيل البدولي وفرنك ، أو بعبارة أخرى في مهاد الكابالا اليهودية ؟ أخف الى ذلك ان أكبر داعية من دعاة الكابالا واخوة بعل شم وهو المعروف « بزعم الشعب اليهودي بأسره » كان طبقاً للأدلة والوثائق التاريخية عضواً في جمعية البناء الحر ، ومتصلاً بزعماء الجمعيات السرية ، وأنه يهودي لا سبيل الى الريب في يهوديته

هذا الداعية الغريب هو حاييم سمويل يعقوب فوك المعروف بالدكتور فوك ، أو دي فوك ، أو فوكون . وقد وُلد في بودوليا في بدء القرن الثامن عشر ، واتصل بالزوهاريين ، ولبت حيناً بزاول ضرور السحر والشعوذة في بودوليا والمانيا . وكان يزعم أنه ذو قدرة خفية ، وأنه يستطيع اكتشاف الكنوز الدفينة . ويروى المؤرخ ارشيهولتس أنه شهد فوك يأتي أعمالاً خارقة في برنزيك ينسبها الى تبحره في الكيمياء . ثم اضطهد فوك وطورد في فستفاليا وحكم عليه بالحرق لاثامه بالسحر ففر الى انجلترا ، وهناك استقبل بالترحاب وطار صيته ، وأذيعت عن قدرته أغرب الروايات ، من ذلك ما قيل من أنه يستطيع أن يبيتي شمعة صغيرة تضيء مدى أسابيع ، وأنه يستطيع بتلاوة عزيمة أن يملأ قبواً من الفحم ، وان أية حليمة يرهنها لدى المقرض تنسل ثانية الى منزله ، وأنه أنقذ البيعة اليهودية الكبرى من فتك النار حينما شبت فيها بأن كتب أربعة أحرف عبرية على أعمدة بابها

ظهر فوك في لوندرة في سنة ١٧٤٢ معدماً لا مورد له ، بيد أنه ما لبث ان أرى فجأة وبدت عليه امارات البذخ الطائل فاتخذ له قصراً فخماً أقام فيه بيعة خاصة وازدانت موائده بآنية الذهب والفضة ، وفي مذكراته التي ما زالت باقية ما يفيد أنه كان يخرج من قصره الى غابة ابلنج وهناك تعقد اجتماعات خفية في قاعة أعدت لذلك ودفن صناديق من الذهب ، وقبل أيضاً أنه كان يركب عربته ذات مرة فانفصلت

احدى عجلائها فارتاع السائق ولكن فوك أمره أن يسوق مطمئناً واستمرت العربية
في سيرها ، والعجلة المنفصلة تتبعها حتى الغابة



يعقوب فرنك

والروايات عن خوارق فوك وقدرته العجيبة كثيرة لا نهاية لها ، وكان مهيباً
مبجلاً من المجتمع اليهودي واجباره. ولكن شهرته اثار تهمة يهودي يدعى امدن
هجاه واتهمه بأنه من أنصار المسيح الكاذب وأنه يستغل سذاجة المؤمنين وكتب عنه
الى يهود بولونيا ما يأتي: « لقد نال فوك مركزه بادعائه الوقوف على أسرار الكابالا،

وزعمه القدرة على اكتشاف الكنوز ، وقد خدع بالكاذبية ضابطاً غنياً جرده من ثروته . ويهرع اليه النصارى الاغنياء ويصدقون أموالهم عليه ، ويشفق هو المال من جهته على دعاة طائفته لكي يذيعوا ذكره وشهرته . « ولكن الظاهر ان فوك كان حذراً في علاقته مع النصارى الباحثين وراء الاسرار الخفية اذ يقال انه انكر معرفته لتركيب الاكسير الذهبي من أمير ملكي سألته الارشاد عن تركيبه . وقد اشير في احدى صحف هذا العصر عام سنة ١٧٦٢ الى يهودي متصرف هو أعظم وأخبث محتال في العالم ، قد سجن ونفي من جميع الولايات الالمانية » ويقول الدكتور ادلر ان هذا اليهودي هو فوك بعينه ، بيد انه ليس ثمة ما يؤيد ان فوك كان من دعاة السحر الاسود

وتوفي فوك في ابريل سنة ١٧٨٢ واجتفل بدفنه احتفالاً فخماً في احدى مقابر لوندريه ومما نقش على قبره : « هنا يثوي الشيخ الشريف ، وهو رجل عظيم قدم من المشرق ، وهو حكيم متبحر ، وداعية كابالي . . . وقد طار صيته الى اقاصي الانحاء والجزر النائية . . . »

٤ - ومن ثم نرى الفرق واضحاً بين أساليب فوك . وأساليب سان جرمان وكاجليوسترو وفون اوفنباخ ، فبينما يخوض هؤلاء غمار مخاطرات عدة ، ويزاولون الشعوذة والكيمياء أينما حلوا ، ويزعمون انهم وقفوا على سر الاكسير الذهبي ، اذا بفوك يعمل في هدوء ، وينقطع لمزاولة الاسرار الخفية الهادئة ، ولا يجتثك بالدهاء وعامة المغامرين ، أفليس لنا أن نستنتج من ذلك ان فوك كان يشغل منصباً اسمي وارفع أعني منصب القيادة والارشاد ؟ كان فوك بلا ريب احد هذه الرؤوس الخفية التي تدبر في الخفاء شؤون الجمعيات السرية ، وتلجأ اليها الجمعيات السرية في استقاء النصيح والتعاليم . وقد ظهر ذلك مؤخراً في رسائل نشرت تبادلها سافالايت دي لامج والمركز دي شيدبيان ، ورد فيها النسبة لفوك ما يأتي :

« ان الدكتور فوك هذا معروف لكثير من الالمان . وهو رجل خارق جداً من كل وجه ، ويعتقد البعض انه زعيم كل اليهود ، ويرجعون كل ما هو غريب ومدهش في حياته وتصرفاته الى غايات سياسية محضة ، وقد اشير اليه في مذكرات الشفالييه رانتسوف باشارات غريبة فذكر انه من اخوة الصليب الورددي ، وقد كانت له وقائع مع الماريشال دي ريشيليو وهو بحانة كبير وراء حجر الفلاسفة ، وكذلك كانت له سيرة عجيبة مع البرنس دي روهان جنيه والشفالييه دي لوكسبورج فيما يخص بلويس

الخامس عشر الذي تلباً بموته . وهو قطب بين جميع الطوائف المتبحرة في العلوم الخفية . وفي وسع البارون دي جليخن أن يفيدك عنه بمعلومات نفيسة ، فحاول أن تقف على أكثر من هذا في قرنكفورت »

وإذا فهمنا نستطيع أن نظفر باللمحة عن واحد من أولئك الدعاة الحقيقين الذين كانوا يعملون من وراء الجهميات السرية والذين اخفوا شخصياتهم في غمار من الظلمات والغموض . ذلك ان فوك لم يكن حكيماً منفرداً بل كان له تلاميذ يتفقدون الى الحظيرة ، العليا من الاسرار . والظاهر ان كاجليوسترو وسان جرمان واضراهما لم يكونوا الا بعض هؤلاء التلاميذ

ثم ان هنالك ما يلقي شيئاً من الضياء على ذلك في حياة الشاعر الالماني جوتفولد ليسنج . قدمنا أن المؤرخ ارشنهولتس تكلم عن بعض خوارق شاهدها من فوك في برنزفيك ، وفي سنة ١٧٧٠ عين الشاعر ليسنج أميناً لمكتبة دوق برنزفيك . وكان يسخر من البناء الحر وتعاليمه بادية بده ، غير أنه تحول عن رأيه فجأة والتحق بأحد محافل همبورج في سنة ١٧٧١ ، وفي سنة ١٧٧٨ نشر قصته الشهيرة ناتان الحكيم Nathan der Weise عن مثل البناء الحر . ونظم خمس محادثات عن البناء الحر أهداها الى دوق برنزفيك كبير المحافل الالمانية عنوانها « ارنت وفوك ، محادثات للبنائين الاحرار » Ernest und Falk : Gespräche für Freimaurer ورد الحوار فيها على لسان فوك صراحة ووصف بأنه يشغل أسمى مراتب البناء الحر . هذا الى أن صداقة ليسنج مع موسى مندلسون الفيلسوف اليهودي البراني قد حملت بعض الباحثين على القول بأن مندلسون هو الذي أوحى الى ليسنج بموضوع القصة وصفات أبطالها ، ولكن لم لا يكون الموحى بذلك هو فوك نفسه وقد مر في برنزفيك وعرض فيها خوارقه ؟

هذه المحادثات تلقي ضياءً واضحاً على المؤثرات الخفية التي كانت تعمل من وراء البناء الحر ، ويوصف فيها عرض البناء الحر بأنه العمل على احداث نظام لا تكون الانسانية فيه ضرورية ، ويرمز فيها ليسنج لنفسه باسم ارنت ، ويشرح فوك فكرته في انشاء دولة عامة أو بالحري دول متحدة لا تفرق فيها بين الناس فوارق قومية أو اجتماعية أو دينية ، وفيها ينعم الانسان بأوفر قسط من المساواة . بيد أن أهم ما تلفت النظر فيها هو تكرار اشارة فوك الى أنه يوجد ثمة وراء البناء الحر شيء أعرق وأعظم في غاياته من جمعية البناء الحر ، وان البنائين الاحرار المحدثين

لا يعنون به في الغالب . ثم يحيب أرنتست حينما يشكو من عدم وجود المساواة الحققة في المحافل بالنظر لاقصاء اليهود عنها ، انه أي فوك لا يشهد لها ، وان البناء الحر الحقيقي لا يبدو في أشكال ظاهرة ، وان المحفل في علاقته بالنسبة للبناء الحر كالكنيسة في علاقتها مع الايمان أو بعبارة أخرى ان الدعاة الحقيقيين لا يظهرون في الميدان . وظاهر من تأمل هذه الشروح أن فكرة الدولة العامة هي المثل الذي اتخذه اللاحكوميون المحدثون قاعدة لتنظيمهم في تغيير الحياة البشرية ، وانها هي الجمهورية العامة التي غدت شعار الاشتراكية الدولية ، والشيوعية ، ودعاة الثورة العالمية

الفصل الرابع

جمعية الشعلة البافارية

Der Illuminatenorden

(١) طريقة ابن ميمون دعوة الشعلة البافارية . كيف اهتدى إليها فيسهاوبت . قصة كيلمر
(٢) من هو كيلمر . الشبه بين أساليب الشعلة وأساليب الاسماعيلية . الشعلة والاساطير القديمة .
نصيب فيسهاوبت في ابتكار نظم الشعلة وتعاليمها . رواية ميرابو عن قيامها (٣) غيات الشعلة
طبقاً لرواية ميرابو . قول السيور بارتو . غياتها طبقاً لوصف فيسهاوبت . أقوال هنري مارتان
ولوي بلان . وثائق الشعلة (٤) مثل الشعلة الجديدة . فلسفة فيسهاوبت . تحليله للمجتمع والقومية
والوطنية . وسيلته الى تحقيق مثله (٥) فيسهاوبت والنصرانية . طرق الشعلة الدينية (٦) طريقها
في حشد الانصار واذاعة الدعوة . استتار زعماء الشعلة . اقتفاء فيسهاوبت لطريقة ابن ميمون في
قيادة الدعاة (٧) استتار الشعلة بالبناء الحر . التحاق فيسهاوبت به وسعيه الى كشف أسرار .
روح الشعلة الثوري . فيسهاوبت من أقطاب الهدم (٨) اشتداد بأس الشعلة وانتشار دعوتها .
مراتبها ورسومها . اقتضاح أمرها وحلها

١ - أشرنا فيما تقدم الى أن طريقة ابن ميمون ونظمه كانت مستقى لكثير من
الجمعيات السرية الغربية في صوغ نظمها وحشد انصارها وبث مبادئها ، ورأينا كيف
كانت هذه الطريقة ترمي الى هدم النظام الاجتماعي وكل المبادئ الدينية والاخلاقية ،
وكيف نفذت على يد القرامطة والاسماعيلية وتلاميذ دار الحكمة . ونذكر أن
العناصر الجوهرية لهذه الطريقة شدة الحرص في قبول الانصار وحشدهم في درجات
متعاقبة متدرجة في الثقة والرفعة ، ثم العمل في نفس الوقت لحشد أكبر عدد ممكن من
الانصار في كل الامكنة وكل البيئات للاستعانة بهم في تحقيق الاغراض السياسية ،
وتلون الدعاة من أجل ذلك في عقائدهم وعواطفهم ليوافقوا بذلك ميول السواد
الاعظم ومشاربه ونزعاته لان ما يصلح الانضاء به للبعض قد يشير آخرون ، ويروع
نفوساً أقل جرأة وضماراً أشد تأثراً ، وبعبارة أخرى هي حشد جمهور عظيم من الدعاة
والانصار من جميع الطوائف والمعتقدات والميول والاخلاق ليعملوا جميعاً لغاية واحدة
لا يعرفها سوى الزعماء والقادة

هذه الطريقة الفذة التي ابتدعها ذكاء الفيلسوف الشرقي هي التي اختارها آدم
فيسهاوبت لتأسيس جمعية من أعظم الجمعيات السرية الحديثة هي جمعية « الشعلة »

Der Illuminatenorden أو الشعلة البافارية نسبة الى مكان ظهورها . بيد أنه يوجد ثمة خلاف على الطريق الذي وصل منه الاستاذ البافاري الى الوقوف على هذه الاساليب الشرقية ، فيقول بعض الباحثين انه تلقاها عن اليسوعيين حيث تربى في معاهدهم ، ودرس على مناهجهم ، وانهم هم الذين بثوا اليه فكرة الشعلة سرّاً . ويذكر ميرابو في مذكراته عن تاريخ بروسيا أن فيسهاوبت « كان يجب قبل كل شيء بنظام اليسوعيين الذي يحمل رجالاً متفرقين في جميع أنحاء العالم تحت رئاسة شخص واحد على العمل جميعاً لغاية واحدة ، وشعر بإمكان اتباع نفس هذا النظام في بث آراء وتحقيق غايات تناقض آراء اليسوعيين وغاياتهم تمام التناقض » والواقع أن فيسهاوبت نقل في تأسيس جمعيته شيئاً من نظم اليسوعيين تحقيقاً لخضوع تلاميذه ، وادعائاً لنفوذه ، وان عمل لغايات تخالف غايات اليسوعيين مخالفة تامة وهي غايات كان يجهلها أنصاره ويعملون لها في نفس الوقت دون أن يشعروا بذلك

وهناك رواية أخرى هي أن فيسهاوبت تلقى وحيه من تاجر يوتلندي يدعى كيلمر وان كيلمر هذا قد تجول في المشرق حيناً وأتقى في مصر عدة أعوام ثم عاد الى أوروبا ليحشد الانصار لتعاليم سرية مانوية وقف عليها في المشرق ، فخرج أثناء عودته على مالطة وهناك التقى بكاجليوسترو (يوسف بلسمو) ، وأثار بدعوته اضطراباً في الجزيرة اضطر فرسانها الى ابعاده عنها فسافر الى افيون وايون حيث استمال بعض التلاميذ من طائفة « الشعلة » الفرنسية . ثم سافر بعد ذلك الى المانيا فالتقى بفيسهاوبت ولقنه تعاليم السرية فانقطع فيسهاوبت أعواماً لدرسها ، وتنظيم مذهبه . وفي أول مايو سنة ١٧٧٦ أسس طائفته باسم « الشعلة » ، واتخذ اسم « سبارتاكوس »

٢- فمن كيلمر هذا ؟ ان أشد ضروب الفسوس تحيط بحقيقته ، بيد أنه يوجد ثمة ما يدل على أنه يهودي من دعاة الكابالا الذين كانوا يحركون السحرة والمتأمرين في الحفاء من وراء الجمعيات السرية التي ينتمون اليها ، ويرى دي كاتليه مؤرخ الجمعيات السرية أن كيلمر هو نفس التوتاس الذي يصفه فجيه في كتابه « تاريخ الخوارق » « بأنه تلك العبقرية الشاسعة التي تكاد تكون سماوية ، والتي حدثنا عنها كاجليوسترو في منتهى الخشوع والاعجاب . ولم يكن التوتاس هذا شخصاً خيالياً ، فقد جمع مجلس التحقيق في رومة كثيراً من الادلة على وجوده دون ان يعرف متى وجد وأنى ذهب لأنه كان يختفي اختفاء الطيف ويتبدد كالسحاب » ويضيف دي كاتليه الى ذلك أن التوتاس كان أرمينياً وأنه استخرج مذهبه المشتق من تعاليم المانوية من مصر والشام

وفارس ، فاذا صحت هذه الرواية فقد يكون كيامر أو التوتاس هذا داعية من دعاة إحدى الجمعيات السرية الشرقية التي قامت على أنقاض الاسماعيلية واعتنقت تعاليمهم . بل ان في مذكرات « الشعلة » ذاتها ما يشير الى بعض التعاليم المانوية ، أضف الى ذلك ان مراتب « الشعلة » وأساليب فيسهاوبت تشبه مراتب ابن ميمون وأساليبه شهماً عجيباً ، فكلاهما يعني بالهدم والهدس السياسي أكثر مما يعني بالحفاء والشؤون الروحية ، ولذلك لا نجد في نظم فيسهاوبت ما نجد في البناء الحر من الخرافات والتعبيرات اليهودية ، بل ان فيسهاوبت لا يشير الى كل ضروب الشعوذة والحفاء والسحر وما اليها الا بالسخرية والاحتقار ، ولا يعتبر البنائين الصليبيين واليسوعيين سوى أعداء يجب القضاء عليهم . واذا كانت التعبيرات المشتقة من مصر القديمة تبدو في نظم الشعلة وتطلق الالقب القديمة على بعض المراتب مثل « ابوبت » « وهيروفانت » فان ذلك لا علاقة له بنظريات فيسهاوبت أو تعاليمه فلم تكن الصيغ العتيقة سواء كانت مصرية أو فارسية أو نصرانية الاحجاباً تتقنع به الشعلة لتخفي به غاياتها الحقيقية وهي غاية مادية ترمي الى هدم نظام المجتمع بأسره ، وعلى ذلك فما اشتقت الشعلة من القدم سوى روح الهدم الذي هو ظاهرة وخاصة للنظم الشرقية التي نقلت عنها وهو طور جديد للجمعيات السرية الاوربية بل هو في الواقع فاتحة عهد جديد في ميولها واتجاهاتها . ويشير فيسهاوبت نفسه الى ذلك في مذكراته حيث يكتب الى زميل يرمز اليه بكانو ما يأتي : « احرص قبل كل شيء على الاصل وعلى العلامة المبتكرة O . ما استطعت » ثم يقول في موضع آخر « ان ذروة الغموض والحفاء يجب أن تكون في جدة الشيء ، وكلما كان العالمون به قليلين كلما كان خيراً وأفضل »

هذا الزعم باكتشاف ضرب جديد من ضروب الحكمة والاسرار القديمة هو الحجة الخالدة التي يستتر وراءها أعضاء الجمعيات السرية والامر الوحيد الذي لا يذكر قط هو حقيقة الافراد الذين يتلقون منهم الوحي والاوامر : ويزعم فيسهاوبت أنه . استقى كل شيء بالدرس المستفيض والبحث العميق في الكتب القديمة وان نظم الشعلة كلها وأساليبها وتعاليمها انما هي من ابتكاره ، وانه هو المستأثر بادارتها وتوجيهها ، ويؤكد ذلك في مذكراته في فرص عدة . ولو ان الامر كذلك لكان فيسهاوبت عبقرية عظمى وعلماً طائر الصيت لان الشعلة في الواقع من أعظم الجمعيات السرية وأوفرها دهاء وكفاية ، ولكان اسمه ذائعاً بين الخلف بدلا من كونه غامضاً مجهولاً الا من الخاصة . والحقيقة أن فيسهاوبت كان داهية وكان عبقرية غير أنه

اختص بدهائه وعبقريته ما خفي وغمض من التعاليم والغايات . ولم تكن « الشعلة » ونظمها العجيبة مع ذلك من خالص ابتكاره ، ولم يكن سوى واحد من جماعة اختصته بالثقة والنفوذ اعتماداً على ذكائه ودهائه

وفي كتاب ميرابو عن المملكة البروسية ما يلقي بعض الضياء على ذلك . فميرابو يمدح « الشعلة البافارية » ويذكر فيسهاوبت بالاسم ويوضح كيف أن الجمعية نشأت في مهد البناء الحر على النحو الآتي :

« انتهى محفل تيودور في ميونيخ حيث كان يوجد قليل من الرجال ذوي الروس والالباب بأن سُم وعود البناء الحر الخلاب ، وعراكه المستمر ، ولذلك قرر الزعماء أن يؤسسوا على أنقاض محفلهم جمعية سرية أخرى أسموها جمعية الشعلة ، واشتقوا نظمها من نظم جمعية يسوع في حين أنهم يقصدون بتطبيقها الى غايات مناقضة »

وينسب ميرابو هذه الواقعة الى سنة ١٧٧٦ وهو نفس العام الذي أسس فيه فيسهاوبت جمعيته الجديدة . والواقع ان فيسهاوبت لم يلتحق بالبناء الحر بصفة رسمية الا في سنة ١٧٧٧ ، وقد التحق به ليكشف ما استطاع من أسرارهم ، وهذا مما يدل على أنه وان لم يكن عضواً في محفل تيودور قبل ذلك فقد تلقى الوحي بتأسيس « الشعلة » من ناحية أخرى

٣ - ماذا كانت أغراض الشعلة ؟

يقول ميرابو ان الجمعية الجديدة أنشئت للسعي الى تحسين نظم الحكومة والتشريع وان من قوانينها ألا تضم اليها أحداً من الامراء قط مهما كانت فضائله وخلاله وانها كانت ترمي الى ما يأتي :

« الغاء رق الفلاحين ، وكل العادات والامتيازات التي ترهق الانسانية . . . ، وتحقيق التسامح العام لكل الافكار الدينية . . . ، وسحق كل الاساطير والخرافات الروحية ، وتعزير كل ضروب الحرية . . . »

ويشير المسيو بارتو في كتابه عن ميرابو الى ان غاية الشعلة البافارية كانت هي « الاصلاح الاجتماعي والسياسي » ، على مثل يشبه العمل الذي قامت به الجمعية الدستورية الفرنسية أثناء الثورة ، وهو تصریح اذا صح كان غاية في الاهمية اذ معناه ان البرنامج الذي نفذته الجمعية الدستورية في سنة ١٧٨٩ قد وضع معظمه في محفل من

محافل البناء الحر الألماني وكان نواة لقيام الشعلة في سنة ١٧٧٦، وإن أثر الشعلة في الثورة الفرنسية كان عظيماً

ثم إن فيسهاوبت يشرح غاية الشعلة بنفسه في العبارة الآتية : « الجمع بين جميع البشر من جميع الانحاء برابطة خالدة لتحقيق مثل أعلى لجميع البشر من جميع الطوائف وجميع الأديان رغم تباين آرائهم وأهوائهم ، وحملهم جميعاً على تقديس هذه الرابطة ، وحب هذا المثل إلى حد أنهم يعملون جميعاً كرجل واحد »

فما هو هذا المثل الأعلى الذي يشير إليه زعيم الشعلة ؟ إن فكرة الإصلاح الاجتماعي التي يشير إليها ميرابو تغيب عن بيانات الشعلة وكتاباتهما منذ أن تولى فيسهاوبت زعامتها وإدارتها ، وتتحول مبادئ الشعلة إلى مذهب من الفلسفة الإباحية يلخصه المؤرخ الفرنسي هنري مارتن فيما يلي :

« إن فيسهاوبت قد صاغ من سخریات روسو الإنسانية من بدعة الملكية والمجتمع نظرية عامة ، ولم يحسب حساباً لقول روسو باستحالة سحق الملكية والمجتمع متى أنشأ ، بل اختار أن تكون غاية الشعلة إلغاء الملكية ، والسلطة الاجتماعية ، والقومية ، والرجوع بالجنس الإنساني إلى الحالة السعيدة التي كان فيها أسرة واحدة لم تكن ذات حاجات خصوصية وعلوم عقيمة ، وحيثما كان كل أب كاهناً وقاضياً . ولنا ندري كاهن أي دين إذ نجد بالرغم من إشاراتهم الكثيرة إلى آله الطبيعة ما يدل على أن فيسهاوبت مثل ديدرو وهو لباخ لم يكن له آله سوى الطبيعة ذاتها . وقد كان طبيعياً أن تثب من تعاليمه فلسفة ما فوق الهجيلية ، ونظم الفوضى التي عصفت حديثاً بفرنسا والتي تبدو عليها مسحة أصلها الاجنبي »

وقد أبد هذه الخلاصة عن أغراض الشعلة الكاتب الاشتراكي الكبير لوي بلان الذي يصف فيسهاوبت « بأنه من أعمق المتأمرين الذين عرفهم التاريخ » . وأشارت القصصية الكبيرة جورج ساند وهي اشتراكية من أصدقاء البناء الحر إلى « مؤامرة الشعلة الأوربية » ، وإلى النفوذ الهائل الذي تملكه الجمعيات السرية الألمانية

وهناك من ينفي عن الشعلة وعن فيسهاوبت تلك الغايات الهدامة ، ويقرر أن رجال الشعلة كانوا من ذوي الخلال الرفيعة والإنسانية الخالصة ، وكانت آراؤهم التي عملوا لغرسها هي التي كان يرحب بها مجتمع عصرهم . على أن هذا الرأي يناقض ما ورد في وثائق الشعلة الرسمية التي نشرت في ثلاثة أسفار هي :

- (١) Einige Originalschriften des Illuminatenordens - بعض الوثائق
الاصلية لجمعية الشعلة
(٢) Nachtrag von weiteren Originalschriften - تكملة من وثائق أخرى
(٣) Die neuesten Arbeiten des Spartacus und Philo in dem Illumina-
tenordens - أحدث أعمال سبارتاكوس (فيسهاوبت) وفيلاو في جمعية الشعلة



آدم فيسهاوبت

وقد نشرت هذه الاسفار الثلاثة في ميونيخ بأمر مختار بافاريا بين سنتي ١٧٨٧ ،
١٧٩٤ وتحتوي على صور الاوراق والمراسلات التي ضبطتها الحكومة البافارية في
منزل عضوين من أعضاء الشعلة هما سفاك وباسوس على أثر مطاردتها وحلها تنفيذاً لقانون
الحكومة البافارية الذي قضى بحل جميع الجمعيات السرية . ففي هذه الوثائق التي لم ينزع
في صحتها أحد يشير فيسهاوبت مراراً وتكراراً الى غايات التقويض والهدم التي ذكرناها
في عبارات شاملة غامضة

٤ - هذه الغايات هي المثل العليا للشعلة . وطبيعي أن يكون كتمان هذه المثل
والإظهار بعكسها من أساليب الجمعية السرية التي اشتقت من نظم ابن ميمون . ففي

بيانات الشعلة وكتابتها نقرأ عن الاخاء العالمي ، والكمال البشري ، وغيرهما من
المثل الشعرية الجميلة ، ثم نرى في ثبوت أعضائها نقرأ من أعلام الرجال استهوتهم هذه
المبادئ السامية ، ونرى فيسهاوبت يبدو في رسائله نصرانياً مخلصاً بينما يعمل في الخفاء
لهدم النصرانية ، ولا يكشف عن نيته الا نادراً ، وفي غموض وخفاء كذلك نرى
برنامج الشعلة الرسمي خلواً من الاشارة الى أية فكرة هادمة ، ونراه بالعكس يحتم على
الاعضاء التمسك بالامتناع عن مهاجمة الدولة أو الدين أو الاخلاق »

ومع ذلك فقد كان لفيسهاوبت مثل سياسية ودينية جديدة . أما المثل السياسية
فلم تكن سوى فكرة « الاحكومية » الحديثة القائلة بأن يحكم الانسان نفسه بنفسه
وبأن تسحق كل حكومة وكل حاكم . بيد أن فيسهاوبت بجانب كل فكره في الثورة
والعنف ولا يرى لتحقيق فكرته سوى الوسائل السلمية المحضة . واليك كيف يعرض
فكرته في احدى رسائله :

« ان أول مرحلة في حياة الجنس البشري بأسره هي الوحشية ، هي الطبيعة الحشنة
التي تكون الاسرة فيها المجتمع الوحيد ، وفيها يخمد الجوع والعطش بسهولة . . .
فيها يتمتع الانسان بأبدع وأتم النعم أعني المساواة والحرية بأوسع معاني التمتع .
وفي هذه الحياة كانت الصحة حالته الطبيعية . . . وكان البشر سعداء لم يتنوروا بعد
الى الحد الذي يفقدون فيه سلام العقل ، والى حيث يعانون من أسباب شقائنا النكدة
أعني شهوة السلطان . . . والحسد . . . والمرض ، وكل نتائج الخيال »

ثم يقول فيسهاوبت ، لما ازدادت الاسر ، وأخذت أسباب العول في القلة ،
غاضت الحياة البدوية ، وأنشئت الملكية ، واجتسعت الاسر بعضها الى بعض ، وأخذت
تنافس بعضها البعض . وهنا كان مصرع الحرية ، ومصرع المساواة ، وهنا شعر
الانسان بحاجات جديدة . ثم انضوى البشر تحت وصاية الملوك انضواء القصر ، ويجب
أن يبلغ الانسان رشده ، وأن يتحرر من هذه الوصاية ليحكم نفسه بنفسه . ثم
يتساءل : « ما هو وجه الاستحالة في أن يبلغ الجنس البشري غاية الاهلية لرعاية
نفسه ؟ ولماذا يقاد الى الابد مخلوق يستطيع أن يسير به تلقاء نفسه ؟ »

يجب على الناس أيضاً أن يعرفوا الاستقلال لأنهم لم يتنوروا فقط ، بل عن بعضهم
البعض ، يقول فيسهاوبت « فن يحتاج الى آخر فهو متوقف عليه ونازل عن
جقوقه . وعلى ذلك فقلة الحاجة هي أول خطوة في سبيل الحرية ، ولعل المتوحشين
وصفوة المتنورين هم بذلك الاحرار من البشر فقط . ان فن تحديد الحاجات البشرية

بالتدرج هو في نفس الوقت فن العمل على تحقيق الحرية »

ويصف فيسهاوبت شر القومية في قوله : « لما نشأت الشعوب والامم لم يبق العالم بعد أسرة كبيرة ، ومملكة واحدة بل مزقت علاقته الطبيعة الكبرى . . . وحلت القومية مكان الحب البشري . . . وغدت فضيلة أن يمجّد الانسان وطنه دون اعتبار لاي كائن آخر لم يوجد في حظيرة . وتطبيقاً لهذا المبدأ السخيف يحتقر الاجانب ويحمل عليهم . وقد سميت هذه الفضيلة « بالوطنية » . . . ثم وثب من الوطنية التركيز ، وروح الاسرة ، والاثرة أخيراً . . . فاسحق الوطنية يعرف الناس بعضهم بعضاً بحيث يفيض توقف بعضهم على بعض وتمظم صلة الاتحاد . . . » ثم يشير الى الوسائل التي يمكن أن تحقق بها هذه المثل في قوله : « ان هذه الوسائل هي مدارس سرية للحكمة هي من أقدم العصور محفوظات الطبيعة والحقوق البشرية ، وعلى يدها سوف ينجو الانسان من عثرته ، وتختفي الملوك والامم من الارض بغير ما عنف ، ويصبح الجنس البشري أسرة واحدة ، والعالم مأوى العقلاء ، والاخلاق وحدها هي التي تحدث هذا التغير بطريق غير محسوسة ، فيصبح كل أب هو المعلم والسيد الحر لاسرته ، ويصبح العقل وحده قانون الناس . وهذا هو سر من أعظم أسرارنا »

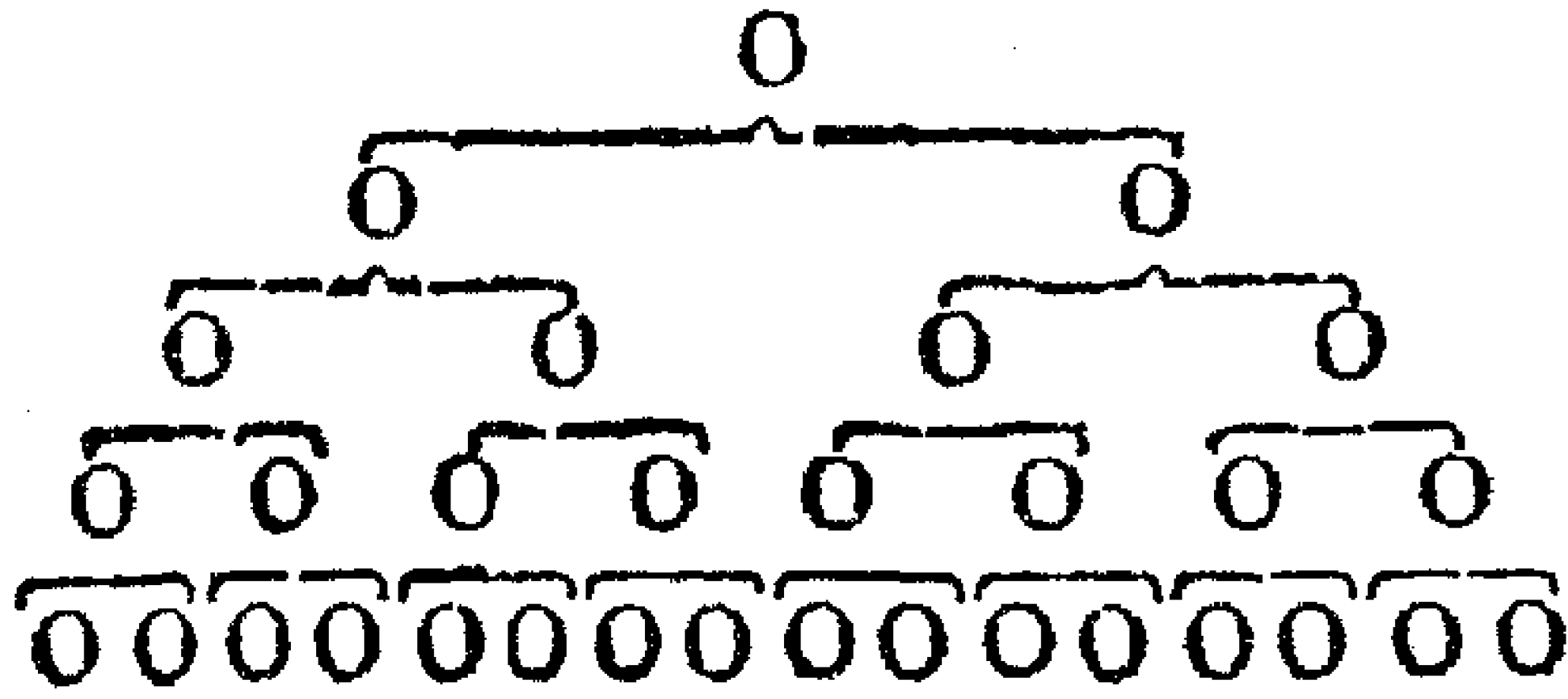
٥ - وتري مما تقدم أن فيسهاوبت لا يستند في طريقته الى أية فكرة روحية ، وانه يرجعها الى مبادئ سياسية واجتماعية محضة ، غير انه كان يحرص في نفس الوقت على ألا يتعرض لمعتقدات الناس وأوهامهم الدينية بالحملة الظاهرة على النصرانية ، وتعاليمها ، بل بالعكس نراه في كثير من أقواله يلتمس معونة المسيح بأساليب جميلة خلاصة قد تحملنا على الاعتقاد في صدقه واخلاصه . بيد أن النصرانية لم تكن سوى قناع يستتر به وميداناً يث فيه دعوته الهادمة ، لانه رأى بثاقب فكره أن روح الثورة أشد من غيرها في تعاليم النصرانية ، ولذلك نراه يحاول أن يصور المسيح شيوخياً وعضو جمعية سرية فيقول مثلاً : « اذا كان يسوع بحث على احتقار الغنى فذلك لانه يريد أن يعلمنا كيف نحسن استخدامه ، وبهي السبيل لشيوع الارزاق الذي ابتدعه » ثم يقول : « ان أحداً لم يحسن اخفاء مغزى تعاليمه السامي ، ولم يظفر أحد بتوجيه الناس الى طريق الحرية مثل سيدنا العظيم يسوع النصراني . وقد كان يخفي هذا المغزى السري . لان يسوع كانت له تعاليم سرية »

وهكذا يشرح فيسهاوبت تعاليم النصرانية بشرواح سياسية محضة ، ويرجع في النهاية كل أثر وكل قوة الى « العقل » ، فهو الدين الذي يجب أن يعتقه كل البشر ،

وهو الوسيلة الوحيدة لانقاذ الانسانية وحسم المعضلة الاجتماعية
ثم ان فيلو (البارون فون كينجه أحد زعماء الشعلة) في بعض رسائله يلقي ضياء
على طرق الشعلة الدينية فهو يشرح في احد رسائله لكانو (سفاك) ضرورة ابتكا
طريقة لارضاء المتعصبين وأحرار المفكرين معاً فيقول :
« يجب علينا اذا أردنا أن نعتمد على هذين الفريقين من البشر وان نؤلف بينهم
أن نبشرك تفسيراً للنصرانية ، نجعله سرّاً للبناء الحر ثم نحوله الى وسيلة لتحقيق
مقاصدنا »

ويشرح فيلو رأيه على النحو الآتي : « نقول اذاً : أراد يسوع أن يغير
ديناً جديداً ، ولكن ذلك لكي يعود الدين الطبيعي والعقل كل الى مكانته الاول
وعلى ذلك فقد أراد أن يدمج كل البشر في جمعية عالمية كبرى وأن يجعلهم بنشر الخ
الحكيم ، والعرفان ، ومحاربة التحامل والبغض أقدر على حكم أنفسهم . وهكذا كان
تعاليمه السرية ترمي الى توجيه الناس الى الحرية العامة والمساواة بغير ما ثورة »
٦ - وقد نجحت فكرة فيلو هذه أيما نجاح حتى أن فيسهاوبت كان يعتمد في نشر
طريقته بالاخض على رجال الدين والاسانذة . ويدس الاواين لمحاربة اليسوعيين
والاخيرين لبث مبادئ الشعلة في نفوس الطلبة والشبيبة ، وقد كانت الشبيبة مودعة
عناية فيسهاوبت اذ كان يرى انها اكثر أهبة لتلقي مبادئه وأشد تأثراً بها ، وأول
حرصاً على اذاعتها ونشرها . وكانت الشعلة تلجأ في حشد الاعضاء الى طرق الاساعيد
من التأثير على عقل الطالب واستثارة فضونه ودهشته بالاشارات والتلميحات الخفية
وذلك دون أن يكشف له شيئاً من حقيقة مبادئ الجمعية وغاياتها فهذه لا تكشف
الا الى دعاة المراتب العليا . يقول فيسهاوبت « يجب أن نختلط مع المبتدئين في مسائل
كتب الدين والدولة . وقد رأيت ان اخض بها المراتب العليا » . كان الداعية يقول
للمرشح مثلاً : « لا ريب انك بعد عامين من التأمل ، والتجارب ، والاختلاط ، ومطالعة
الكتب والاخبار ، قد اعتقدت ان غايات جمعيتنا الاخيرة ليست سوى اكتساب
السلطان والثراء ، وهدم الحكومة الدنيوية او الدينية ، ونيل سيادة العالم وما اليها .
فاذا كنت قد صورت جمعيتنا لنفسك من هذه الوجهة ، أو التحقت بها على هذا الامل
فربما تكون قد خدعت نفسك . . . » ، ثم يقول له الداعية ، انك حر في الانسحاب
اذا أردت ، وذلك دون أن يكشف له شيئاً من غايات الجمعية . وهذه الوسيلة استطاع
الزعماء أن يبعدوا عن الشعلة الطامعين الذين قد ينافسونهم في نيل النفوذ والقوة ،

وأن ينشئوا صفوفهم من رجال يسرونهم كيفما أرادوا من وراء ستار . وكان التمسك بأذيال الحفاء والكمائن أقوى سلاح للشعلة ، وكان يسيرها ويوجه خطواتها بضعة رجال على رأسهم فيسهاوبت . وقد كتب سبارتا كوس (فيسهاوبت) الى كاتو : « تفضي الظروف أن أبقى مستتراً عن معظم الاعضاء ما دمت حياً ، وأراني مضطراً أن أنفذ كل شيء على يد خمسة أشخاص أو ستة » . وبلغ من تكتم الشعلة أن أحداً من الناس سوى نفر من دعاة المراتب العليا لم يعلم أن فيسهاوبت هو رئيس الجمعية قبل مصادرتها وضبط أوراقها في سنة ١٧٨٦



Ich habe stoen unmittelbar unter mir , welchen ich meinen ganzen Geist einhauche , und von diesen stoenen hat wieder jeder stoen andere , und so fort. Auf diese Art kann ich auf die einfachste Art tausend Menschen in Bewegung und Stämmen setzen. Auf eben diese Art muß man die Ordres ertheilen , und im Politischen operieren.

صورة رمزية لبرنامج آدم فيسهاوبت

ويؤكد فيسهاوبت في كتاباته أنه كان السيد الأعلى للشعلة ، ويوجه في فرص عدة نظر المقرئين من أعوانه الى ضرورة توحيد القيادة في الجمعية ، ويشرح الطريقة التي يستطيع بها رأس نابه ذكي أن يقود المئات والالوف بصورة رمزية تثبتها للقارئ وفي ذيلها فقرة من كلامه هذه ترجمتها :

« يليني اثنان مباشرة أتقت فيهما كل عقلي ، ويليني كلا منهما اثنان آخران ، وهلم جرا ، بهذه الوسيلة أستطيع أن أحرك وأثير ألف رجل بأيسر أمر ، وبهذه الطريقة يجب أن يصدر الانبائ أوامره وأن يعالج شؤون السياسة »

فكانت النتيجة المدهشة لتلك الطريقة هي نفس النتيجة التي قصد اليها عبد الله بن ميسون في وضع طريقته السرية وهي أن جمهوراً عظيماً من رجال يعتقدون مذاهب ومبادئ مختلفة كانوا يعملون معاً لتحقيق غاية لا يعلمها سوى القليل منهم .

٧ - رأينا وجه العلاقة بين البناء الحر وأصل الشعلة . وسواء أكانت الشعلة قد نشأت في مهد البناء الحر أو كانت من عمل فيسهاوبت ومحض ابتكاره ، فإن تعاليم البناء الحر ونظمه قد لعبت دوراً هاماً في أعمال الشعلة . ذلك أن فيسهاوبت اختار أن يحتجب وراء البناء الحر ورأى المحافل خير قناع يستر به غايته « لان العالم قد اعتاد ألا ينتظر منها عملاً عظيماً يستحق الاهتمام » واتخذ من أساطير البناء الحر وسيلة لتأييد شرحه لتعاليم النصرانية ، فزعم أن النظرية السرية التي تخفيها تعاليم المسيح قد تناقلها على كر العصور دعاة وأولاً أن يخفوا نظريتهم تحت ستار البناء الحر ، وان حيرام هذا الذي تشير اليه الاساطير هو المسيح بذاته وعلى ذلك فالبناء الحر هو النصرانية المقنعة في رأي فيسهاوبت . ومن ثم اختار زعيم الشعلة لجمعيته مراتب البناء الحر ، ولا سيما مراتبه الدينية

ثم ان فيسهاوبت لم يقف عند الاقتباس من نظم البناء الحر وتقاليده ، ولكنه التحق به رسمياً في سنة ١٧٧٧ ، غير أنه لم يلتحق به مخلصاً لمبادئه وانما لكي يتدرج في مراتبه ويكشف أسرار نفسه ، وقد كتب لكاتو بعد عام من دخوله : « لقد ظفرت بمعرفة لمحة عميقة من أسرار البنائين الاحرار وقد وقفت على غاياتهم كلها ، وسوف أنقلها في الوقت المناسب الى احدى المراتب العليا » . ثم أوفد كاتو بعد ذلك الى ايطاليا ليقف على أسرار أخرى ، وأثبت كاتو في مذكراته ما يأتي : « تحدثت مع الاب ماروتي في شؤون البناء الحر ، فشرح لي السر كله واذا به مشتق من الدين القديم ومن تاريخ الكنيسة ، ووقفني على أسرار المراتب العليا حتى رتبة الفارس الايكوسي . وقد أخبرت سبارتا كوس بهذا »

وكتب فيسهاوبت بعد ذلك « سوف يكون لنا محفل بناء خاص بنا نعتبره حقيقة للتغذية . ثم انا لن نقضي لأولئك البنائين في الحال بأن لدينا شيئاً غير الذي يعتقدونه البنائون . وسوف نستتر بهذا الرداء في كل فرصة ، ونبقى أولئك الذين لا يصلحون للعمل في محفل البناء حيث يتدرجون في مراتبه دون أن يعلموا شيئاً آخر عن طريقتنا » ثم يحاول فيسهاوبت بعد ذلك ان ينزع محفل تيودور في ميونيخ من رياسة محفل برلين لكي يستأثر هو بإدارته والسيطرة عليه وييدي في كل ذلك كثيراً من

الدهاء والمقدرة على الدس . وبينما يحتقر في أعماق نفسه كل تعاليم البناء الحر والصليب الوردى وكل ضروب الروحية والتصوف اذا به يتخذها جميعاً شباكاً للصيد . وعلى ذلك فريضة الشعلة نحو البناء الحر أمر لا مرية فيه ، تؤيده وثائق الشعلة ذاتها والحلاصة أن الشعلة البافارية كانت تمثل روحاً نورياً هائلاً يضطرم بغضاً لكل نظام اجتماعي وخلقى كائن ، وقد اجتهدت في أن تستخدم كل حركة أخرى يمكن أن تفيد في تحقيق غاياتها . ولم تكن مبادئ الشعلة مجموعة من ضروب الدهاء النظري فقط ، بل كانت تغذي أيضاً كل طريق عملية لإثارة الناس ودفعهم الى العمل . وهذا ما أدركه فيسهاوبت بذكاء وبراعة ، فقد استطاع أن يستخلص من نظم الجمعيات الأخرى قديمها وحديثها كل ما أراد من مناهج وطرق وأن ينسقها ويستخدمها بمهارة . وقد استعرض لهذا الغرض مبادئ المانوية والفلاسفة المحدثين ، والاسماعيلية ، والفرسان ، واليسوعيين ، ودرس مبادئ البناء الحر وفلسفة ما كفافالي ، وأسرار الصليب الوردى وغيرها ، وعرف فوق ذلك كيف ينتقي العناصر الصالحة لجمعيته من جميع الطبقات والاهواء والافكار ، فتجد بين أعضاء الشعلة من شاعر عبقرى مثل جيته وغيره من أصحاب المثل العليا ، الى أخطر دساس ومتآمر ، وخيالى ، وطامع ، وناقم ، وساخط ، يجتمعون كلهم في حظيرة واحدة ، ويعملون لغاية واحدة وكل يجهل خلافه مع الآخر

وقد رأينا أن فيسهاوبت لم يكن مبتدعاً لتلك الطريقة المدهشة ، وانما نشأت في المشرق وابتدعها ذكاء الفيلسوف الشرقي عبد الله بن ميمون ، غير أن فيسهاوبت كان أول من طبقها في جمعية سرية غربية وطبقها بنجاح مدهش ، ومن ثم غدت طريقة لكل جمعية سرية أو ثورية غربية أخرى ، وهو ما يضع فيسهاوبت في صف زعماء الثورة وأقطاب الهدم والنظم والجمعيات السرية

٨ - لم تمض بضعة أعوام حتى اشتد ساعد الشعلة البافارية وأنشأت لها فروعاً في معظم المدن الأوروبية ، واجتذبت اليها جمهوراً كبيراً من المتورين ، وحظيت بمؤازرة نفر من أبطال الادب في ذلك العصر مثل جيته وهزدر وكذلك بعض الامراء والحكام مثل دوق فينار ودوق جوتا . وكانت مراتبها تجتمع في ثلاثة أقسام هامة . الاول قسم المبتدئين ، والعقلاء ، وصغار الدعاة . والثاني قسم البنائين الاحرار والفرسان العاديين والفرسان الايكوسيين . والثالث قسم الخفاء وفيه مراتب الكاهن والوصي والقطب والملك

غير أن فوز الشعلة لم يطل أمدّه حيث استجالت صرامة اجراءات القبول وغرابتها الى ضروب التجسس ، فعصفت بنظم الجمعية ، وصرفت عنها كثيراً من الانصار . ومن ثم كانت فكرة فيسهاوبت في تقوية علائق الشعلة بالبناء الحر ، والعمل باسمه ، والاستتار بنظمه وشعاره

وقد كانت هذه وسيلة صالحة لتجديد نشاط الشعلة وقوتها ، ولكن حادثاً مدهشاً فضح أسرار الجمعية فجأة ، وحطم صرحها ونشاطها . وذلك ان راهباً من أعضاءها يدعى لانتسه أوقف في يولييه سنة ١٧٨٥ الى سيليزيا كرسول للشعلة فأصابته أثناء المسير صاعقة قتلته ، ووجدت معه وثيقة بتعاليم الشعلة ، وقنت الحكومة البافارية منها على طرف من أسرار الجمعية ومناهجها ، فنشطت الى تحقيق الامر واقتحمت منزلي سفاك وباسوس وضبطت لديهما كثيراً من الوثائق والاوراق التي نشرت فيما بعد كما ذكرنا . هذا الى أن المختار أصدر قانوناً بحل جميع الجمعيات السرية التي توجد في بافاريا . وكان من أثر ذلك أن قبض على جماعة من أقرب أنصار فيسهاوبت وحوكموا . أما فيسهاوبت ففر الى جونا واحتتمى بأمرها الذي اعتنق مبادئه

غير أن الشعلة البافارية لم تحمد ، ولم تنحل ، بل نهضت في الحال من عثرتها تحت أستار وأسماء جديدة ، وظهر فيسهاوبت ثانية في ميدان العمل واستمر في نشاطه أعواماً مديدة كما سنرى

الفصل الخامس

تأثير الدعوات السرية

في الثورة الفرنسية

(١) بيد (٢) تحالف البناء الحر والشعلة البافارية . الجمعيات السرية وحديقة تنقد المذكرة . عودة الشعلة البافارية الى العمل . المحافل السرية قبيل الثورة . حقيقة التعاليم التي قصدت الى اضرار الثورة (٣) مخاوف بعض مفكري هذا العصر . نبوءة الكرديشال كابرارا . نبوءة المركيز دي لوشيه (٤) حنة ميرابو بالجمعيات السرية . برنامج الثورة كما وجد في وثيقة تنسب الى ميرابو . هل أريد بالثورة الفرنسية ان تكون فتحة لثورة عالمية ؟ أقوال المؤرخ لومبار دي لانجر . ماذا كان وراء زعماء الثورة والمؤتمر الوطني . عبقة الثورة القومية

١ - رأينا مما تقدم أن الهدم الشامل غاية نجم وراء جهود كل الجمعيات السرية سواء تلك التي قامت في المشرق لهدم الاسلام وتعاليمه بل هدم كل الاديان على الاطلاق وما حملت من نظم سياسية واجتماعية وأخلاقية ، أو تلك التي قامت في المغرب لهدم النصرانية وما حملت من تعاليم ونظم والمدنية وما أقامت من صروح للحياة العامة ، وما سنت من شرائع وتقاليد وعرف ، ثم رأينا أن هذه الجمعيات السرية والحركات الهدامة الخفية قد بلغت في الغرب ذروة الاتساع والبأس في أواخر القرن الثامن عشر حيث ازدهرت محافل البناء الحر في فرنسا والمانيا ، وسما شأنها واستفحل نفوذها بين جميع الطبقات ، وحيث قامت الشعلة البافارية وبثت تعاليمها في المانيا وفرنسا ، وبعثت لمحات من نظمها ونشاطها الى البناء الحر وإلى طائفة كبيرة من الجمعيات السرية الأخرى ، وحيث اندس دعاة الكابالا والسحرة الى جميع أنحاء أوروبا ، وظهر أقطاب السحرة الكابالين مثل البارون فون أوفباخ ، والكونت سان جرمان ، وكاجليوستر ووفوك وخلقوا مجتمعات هذا العصر بدعائهم وشعوذتهم . ونلاحظ الآن أن تلك الفورة العامة التي شملت كل الجمعيات والطوائف السرية في هذا العصر قد حدثت قبيل الثورة الفرنسية بأعوام قليلة ، وإن المجتمع الفرنسي الذي تأثر بروح هذه الفورة وأعراضها وتعاليمها أكثر من أي مجتمع آخر هو المجتمع الذي قام بالثورة ونفذ برنامجها الممغن في الهدم والحو على مثل لم يشهده التاريخ . لذلك حق علينا أن ننبي بتحديد الدور الذي قامت به الجمعيات السرية في اضرار بار

الثورة الفرنسية والآثار التي بعثتها جهودها الى الثورة في أطوارها ووجهاتها المختلفة ان مؤرخ الثورة الفرنسية قلما يعني بتحديد هذا الدور او الاشارة اليه ، ولكن مؤرخ الجمعيات السرية لا يسعه أن يغفل الكلام عن عامل من أهم العوامل التي أسبغت على الثورة صبغتها العالمية ، وجعلت منها قدوة عامة لجميع الحركات الهدامة التي قامت من بعدها ونسجت على منوالها

٢ - أشرنا فيما تقدم الى علاقة الشعلة البافارية بالبناء الحر ، وبيننا كيف أن فيسهاوبت رأى أن يستتر بالبناء الحر وأن يتخذ آلة ووسيلة . وقد رأى البناء الحر من جانبه في فيسهاوبت وجمعيته عضداً قوياً ، ومنذ سنة ١٨٨٢ بدىء بعقد مؤتمرات مختلطة يشهدا أقطاب البناء الحر وأقطاب الشعلة البافارية . وفي فبراير سنة ١٨٨٥ عقد مؤتمر في باريس شهده بوده والبارون فون بوشه وهما من زعماء الشعلة ، والساحر كاجليوسترو ، والمنوم مسمر ، وسفاليت دي لاج وغيره من زعماء البناء الحر وذلك للبحث في أغراض الشعلة والبناء الحر ووضع قاعدة مشتركة للعمل ، غير أنه لم يوفق الى نتائج حاسمة . وفي العام التالي عقد مؤتمر سري في فرانكفورت ، تقرر فيه على ما يقال لأول مرة قتل لويس السادس عشر ملك فرنسا ، وجستاف الثالث ملك السويد

يبدأ أنا نستطيع أن نتبين أثراً واضحاً لجهود الجمعيات السرية في اضرام نار الثورة في سنة ١٧٨٦ ، في حادثة عقد الملكة الشهيرة التي يصفها ميرابو بأنها « قاذبة الثورة » ويقول عنها نابوليون انها أقوى الاسباب التي أدت الى انفجار سنة ١٨٧٩ . تلك الحادثة التي لا تكفي صحف التاريخ الرسمي لتبديد ما أحاط بها من الحفاء والغموض يمكن فهمها في صحف الجمعيات السرية ، فنحن نعلم أن كاجليوسترو كان بطلاً من أبطال هذه الحادثة ، وان كان التحقيق الرسمي يريد أن يجعل دوره فيها عرضياً ثانوياً ، وكاجليوسترو كما رأينا داعية من دعاة الكابالا ، وهبعوث جمعية « الرقابة الصارمة » التي لم تكن سوى شعبة من شعب البناء الحر ، وقد اتصل بالكردينال دي روهان بطل المأساة الاصيل ، وقدم معه الى المحاكمة فيرى ثم انتقل الى انجلترا في نفس هذا العام وهناك اندس الى الجمعيات السرية في لوندرة ، وظهر فيها باسم الكونت سوتكفسكي ، وكان الدكتور فوك يقيم هناك في نفس الوقت . وقد أشرنا الى ما قد يكون ثمة بين كاجليوسترو والدكتور فوك ، وبين الدكتور فوك والدعوة الكابالية من علائق سرية . ومن الواضح ان الآثار التي ترتبت على فضيحة

عقد الملكة من التشهير برجال البلاط والكنيسة ، والخط من هيتيهما ، والقاء سحب من الشبه على وجهات السياسة الفرنسية وغيرها كانت مما يمهّد الى الغايات التي يعمل لتحقيقها فردريك الكبير من وراء المحافل والجمعيات السرية الأخرى

ثم ان الشعلة البافارية التي طاردها مختار بافاريا في ذلك الحين وشرد زعماءها لم تنحل الا في الظاهر كما قدمنا ، فقد عاد فيسهاوبت في الحال الى العمل وراء المحافل والجمعيات الأخرى ، لان الشعلة كانت في الواقع مبادئ أكثر منها جمعية سرية ، وقد رأيت ان فيسهاوبت كان يؤثر أن يثبت تعاليمه تحت ستار أساء وصفات أخرى . وكان أول ستار أخذ فيسهاوبت للعمل محفل « الأخوة المتحدّين » في باريس ، وكانت تربطه بالشعلة روابط عدة . ففي فبراير سنة ١٧٨٧ أي بعد حل الشعلة بأشهر فقط وفد بوده وبوشه وهما من زعماء الشعلة الى باريس بدعوة من اللجنة السرية لمحفل « الأخوة المتحدّين » وعقدا مع المحفل باسم الشعلة مخالفة وثيقة ، واجتسعا هنالك بيراو وهو داعية قديم من دعاة الشعلة وكذلك بتاليران ، وكان لهما أكبر فضل في عقد هذا التحالف بين جماعة فيسهاوبت والبناء الحر

وقد كان معظم الزعماء الذين أضرموا نار الثورة فيما بعد ينتمون الى المحافل المختلفة ، فمحفل « الأخوات التسعة » كان يتألف في الغالب من نوار الطبقة الوسطى مثل بريسو ، ودانتون ، وكاميل ديمولان ، وشامفور ، وكان « محفل الصراحة » يتألف من الثوار الارستوقراطيين مثل لافايت ، والدوق دورليان ، والمركز دي سلري ، والدوق ديجويون ، والمركز دي كوستين ، وآل لامبال . أما محفل « المقدم الاجتماعي » فكان يتألف في الغالب من ملكيين مخلصين ليست لهم غايات ثورية . وكانت مهمة محفل « الأخوة المتحدّين » أن يجمع بين الثوريين الهدامين من مختلف المحافل وبين معظم اللجان السرية للمشرق الأعظم ، وان يعمل على انتخاب نواب للأقاليم من أعضاء « الشعلة » ، فكان محفل شارع دي لاسوردير (الأخوة المتحدّين) الذي يرأسه سافاليت دي لانج في الواقع مجمعا لتلاميذ فيسهاوبت وسويدنبورج وسان مارتان ، وملتقى لمعظم أقطاب الثورة وقادة الجماهير

وكان تأثير الشعلة البافارية في تلك المحافل والجمعيات السرية عظيماً ، اذ سرعان ما تسربت اليها تعاليم فيسهاوبت حتى تحولت مبادئها الثورية الغامضة الى نزعة قوية مضطربة وفي سنة ١٨٧٩ وفد بوده وبوشه الى باريس بحجة الاستعلام عن حقيقة التنويم الذي ذاع أمره عندئذ ، ولكن غايتيهما الحقيقية كانت حشد الانصار

والدعاة لتعاليم الشعلة . ويصف الاب بارويل هذا التأثير في قوله : « كان محفل الاخوة المتحدنين يجمع كل شيء يمكن استخراجه من جميع نظم البناء الحر في العالم وبذلك مهدت السبيل بسرعة أمام تعاليم الشعلة ، وسرعان ما تشبع ذلك المحفل وكل المحافل الاخرى التي تنتمي اليه بهذه التعاليم ، وسرعان أيضاً ما غاضت نظمه ومبادئه القديمة ، وحلت التعاليم الفلسفية السياسية مكان التعاليم السحرية الكابالية »^(١)

فلم تكن التعاليم الكابالية أو المارتينية أو تعاليم البناء الحر هي التي أنشأت قوى الثورة مستفزة لأن كثيراً من دعاة البناء الحر الذين لم يصطبغوا بتعاليم الشعلة لبثوا مخلصين للعرش والمكنيسة ، ولما انفجر بركان الثورة وأحدثت المخاطر بالملكية دعا اخوة محفل « العقد الاجتماعي » المحافل الاخرى الى الدفاع عن الملك والدستور ، واجتمع حول العرش نفر من زعماء البناء الحر الذين أقسموا العداء للبابوية والبوربون ، وتغلبت فيهم الروح الفرنسية على الروح الفلسفية العامة . وعلى ذلك فاذا قيل ان للبناء الحر دوراً في اضرام الثورة الفرنسية ، فذلك هو البناء الحر الذي حملة تيار الشعلة ، وهو اثر التعاليم التي بثها دعاة الشعلة في المحافل الفرنسية منذ سنة ١٨٨٧ وهو وحي فيسهاوبت « بطريق اليعقوبيين » أقطاب الثورة وقادتها .

٣ - هذه العقلية الثورية الهدامة التي سرت الى مجتمعات هذا العصر لم تكن خافية على بعض الرجال المطلعين ذوي النظر البعيد ، فقد آنسوا اضطرامها ، وجزعوا لمخاطرها ، وتوقعوا منها وبلا مستطيراً للنظم القائمة . ومن هؤلاء الكردينال كبارا المبعوث الرسولي في فينا ، فقد كتب الى البابا تقريراً سرياً في سنة ١٨٨٧ يصف فيه جهود الشعلة والبناء الحر وما اليهما من الجمعيات السرية في المانيا ومما كتب : « ان الخطر دائم ، لان كل هذه الاحلام الخرقاء التي تحملها تعاليم الشعلة ، وتعاليم سويدنبورج وتعاليم البناء الحر ستسفر عن حقيقة راتعة . وللتصورات طور محدود ، وسوف يكون للثورة التي يتنبأون بها نصيبها من التحقق ايضاً » . ثم ان المريكز دي لوشيه وهو من النبلاء الاشرار الذين لعبوا دوراً في الحركة الثورية لاحظ أخطار المبادئ التي تذيئها الشعلة على النظم القائمة وروعة الجهود التي تنفقها في هدمها فحذر الناس من عواقبها في رسالة له عنوانها « رسالة عن طائفة دعاة الشعلة »^(٢) كتبها في سنة ١٨٨٩ قبل أن يستفحل أمر الثورة . ومما قاله : « أيها الناس الخدوعون ، اعلموا انه توجد

(1) Barruel, Memoires pour servir à l'Histoire du Jacobisme

(2) Essai sur la Secte des Illuminés

مؤامرة لتغليب الظلم على الحرية ، والمعجز على الكفاية ، والردية على الفضيلة ، والجهل على النور ، . . . هذه الجمعية ترمي الى حكم العالم ، وغايتها السيادة العامة . وقد تبدو هذه الفكرة خارقة ، بيد انها ليست خيالية . . . ولم يصب العالم من قبل مثل هذه المصيبة « ثم يصف دي لوشيه بعد ذلك طرفاً من حوادث تشبه تلك التي حدثت بعد ذلك بأعوام ثلاثة . فيصف موقف ملك اضطر الى الاعتراف بسيادة غلبوا على العرش واقرار « نظمهم الفظيعة » والى أن يغدو آلة لجماعة طماعة متعصبة ملكة ناصية ارادته ، ثم يقول : « تخيلوه محكوماً عليه بأن يخدم شهوات كل أولئك الذين يحيطون به ، . . . وأن يرفع رجالاً أوغداً الى منصة الحكم ، وأن يلوث أحكامه باختبارات تحط من قدر كرامته وحزمه . . . »

والمرکز دي لوشيه أن يتصور أدوار الثورة طبقاً لتلك العقلية الرجعية المتحيزة وأن يصف تخطيط الملكية وطغيانها ، وفوز الشعب في استرداد حقوقه وسيادته بما شاء من النعوت ، وأن يصم زعماء الثورة ويحط من أقدارهم كما يهوى ، ولكن الحق أنا اذا جردنا عباراته مما احتوت من تحامل الفينا النبوءة مدهشة خارقة ، فقد سارت الحوادث طبقاً للمنهج الذي تخيله المرکز دي لوشيه ، ولم تأت سنة ١٧٩٢ حتى كان فوز الثورة كاملاً شاملاً

ثم يتنبأ دي لوشيه بوثة الهدم التي قامت بها الثورة في قوله : « لا زبد أن نقول ان البلد الذي يحكمه دعاة الشعلة يموت ولكنه ينحط الى أسفل درك من الذل بحيث يصبح غير ذي شأن في السياسة ، ويقل سكانه ويقع أولئك الذين يحجمون منهم عن الهجرة الى البلاد الاخرى بين براثن الاحزان والفاقة فلا ينعمون بالاعتبار ولا سعادة الاجتماع ولا مواهب التجارة »

ثم يختم رسالته ببدء مؤثر يوجهه الى دول أوروبا مستنهضاً إياها لغوث أولئك الذين اعتبرهم للدعوات السرية الهدامة فرائس ونحايين ، ومما يقول : « يا سادة العالم تأملوا كتلة بشرية منكودة ، واصغوا الى صرختها ودموعها وآمالها ، ان أمّا تسألكم أن تردوا اليها ولدها ، وزوجاً زوجها ، وتسألكم مدنكم أن تردوا اليها تلك الفنون الجميلة التي فرت منها ، وتسألكم البلاد عن سكانها ، والحقول عن زراعها ، والدين عن شعائر العبادة ، والطبيعة عن بشر هي خليفة بهم . . . »

ورسالة المرکز دي لوشيه هذه من أغرب وثائق التاريخ وهي كما ترى دليل ناهض على أن تعاليم فيسهاوبت ، ودعوات الشعلة والبناء الحر كانت تثير حقاً جزع المشفقين

على النظم القائمة ، وعلى أن هذه النظم كانت تضطرب أمام العدو الخفي الذي ينشط في الخفاء إلى تقويضها وتحطيمها

٤ - ولنا في حياة ميرابو وتصرفه دلائل آخر على نشاط الجمعيات السرية في اضرام نار الثورة ، فقد رأينا أن ميرابو داعية متحمس من دعاة الشعلة ، ورأيناه يعمل في معظم الجمعيات السرية التي كانت قائمة في ذلك الحين ، ولما تفاقم الخلاف بين نواب الطبقات وبين البلاط وكان ميرابو من أنشط العاملين على إذكاء فورة الشعب ، وبث روح الخروج والثورة في نواب الطبقات وزعماء الجماهير ، بل كان أول من رفع لواء العصيان وأشد من حرص على تأليف الجمعية الوطنية التي كان قيامها فاتحة النضال الحقيقي بين الشعب والملكية . ومن الصعب أن نستشف من الموقف الذي وقفه ميرابو عندئذ حقيقة الدور الذي أثاره وحي الشعلة وغيرها من الجمعيات السرية في تناسل المعركة التي أخذ يضطرم لظاها بين دعاة الثورة والهدم وبين النظم القديمة ، ولكن ليس لانتفاء ميرابو ، ودانتون ، وبريسو ، وكاميل ديمولان ، ولافايت إلى محافل البناء الحر التي غلبت عليها نزع الشعلة وتعاليم فيسهاوبت ، مغزى هام إذا ذكرنا أن هؤلاء كانوا من أعظم قادة الثورة الفرنسية ، بل إذا ذكرنا أن دانتون وبريسو كانا من أعظم دعاة الهدم والمحو ، وإن كاميل ديمولان كان أول من دفع الشعب إلى حمل السلاح والوثوب بالباستيل ، بل إن خطة الثورة كلها قد وجدت مدونة في وثيقة . وجدت بين أوراق ميرابو على ما جاء في نشرة ظهرت في سنة ١٧٨١ عنوانها « خفايا المؤامرة » *Mystères de la Conspiration* ، ونشر هذه الرسالة يقرر أن الوثيقة المذكورة وعنوانها ملخص أو مشروع ثورة المسيو دي ميرابو *Croquis ou Projet de Révolution de M. de Mirabeau* قد ضبطت في منزل مدام لجاي زوج ناشر كتب ميرابو وذلك في ٦ أكتوبر سنة ١٧٨٩ . وتفتح هذه الوثيقة بحملة مرة على الملكية الفرنسية ، ثم يقول كاتبها : « ويجب من أجل أن نظفر بذلك المارد الجبار أن نقوم بما يأتي » :

« يجب أن نسحق كل النظم ، وأن نلغي كل القوانين ، وأن نمحو كل السلطات ، وأن نترك الناس في فوضى وقد لا تنفذ القوانين التي نسنها في الحال ، ولكننا متى رددنا السلطة إلى الشعب فإنه سوف يقاتل من أجل حريته التي يعتقد أنه يقاتل لصونها . ويجب أن تغضي عن كبرياء الأفراد ، وأن نملق آمالهم ، وأن نعدم بالسعادة متى بدأ عملنا : ويجب أن نجانب أهواءهم وما عليه أراداتهم لأن الشعب مشرع شديد الخطر

فهو لا يسن من القوانين الا ما يتفق مع شهواته ، هذا فضلاً عن أن قصوره في المعرفة يفضي الى الخطأ والتطرف . ولكن لما كان الشعب آلة يحركها المشرعون طبق ارادتهم فمن الضروري أن نستخدمه لتأيدنا ، وأن نحمله على بغض كل ما نرسي الى هدمه ، وأن نغذيه بالخيالات والالوهام . كذلك يجب أن نشترى كل الاقلام المرتقة التي تبث مبادئنا ، والتي تعرف الشعب باعدائنا الذين نهاجهم . فرجال الدين مثلاً وعم أقوى الطوائف تأثيراً في الرأي العام لا يمكن هدمهم الا بالسخرية من الدين والتشهير بأقطابه ، وتصويرهم أوغاداً منافقين ، ذلك لان محمداً مهدياً لانشاء دينه بالطعن في الوثنية



ميرابو

التي كان يعتنقها العرب ، ومن الواجب أن تقوم النشرات القاذفة في كل وقت بحملات جديدة على رجال الدين ، فنبالغ في تصوير ثرائهم ونعيمهم ، وننسب اليهم كل الرذائل والمفاسد ، فالقذف والقتل والكفر كلها مباحة في أوقات الثورة

« ثم يجب أن نشين من قدر النبلاء وأن نرجعهم الى أصل ساقط ، وأن نبث فكرة مساواة لا يمكن تحقيقها ولكنها تكون ملقاً للشعب . كذلك يجب أن نطارد المتعنتين وأن نحرقهم وان نحطم ثرواتهم حتى زرع الباقين ، فاذا لم نقر بسحق هذه

الزعة فانا نضعفها ، والشعب ينتقم لكبريائه وغيرته بارتكاب صنوف الافراط والتطرف التي تجره الى الخضوع والاستسلام »

ثم تأتي الوثيقة بعد ذلك على دور الجند فتصف كيف يجب اغراؤهم وحملهم على العصيان . ثم تصف القضية بأنهم ظلمة فجار . وتقرر عن مناهج الثورة ما يأتي :

« ماذا تم الفرائس وعددها ؟ وماذا بهم التخريب والاحراق والنهب والسفك وكل ما تقتضيه الثورة ؛ يجب ألا نقدر شيئاً ، وان نأتم بقول مكيا فيللي « بماذا تم الوسائل ما دامت تفضي الى الغاية ؛ »

ليس ثمة ما يؤيد هذه الوثيقة من الوجهة التاريخية ولا ما يؤكد نسبتها الى ميرابو ، ولكن أليس فيما ورد فيها كثيراً مما نستشف من حوادث الثورة من مناهج وخطط ؟

على أن هنالك ما يدل على أن هذه الوثيقة وغيرها من الوثائق التي وجدت بين اوراق ميرابو والتي تلقي ضياءً كبيراً على اتصاله بالشعلة البافارية ، والبناء الحر ، تؤيد أنه كان ثمة مؤامرة كبيرة دبرت في أقيية الجمعيات السرية لاضرام نار ثورة عامة تكون فرنسا مهدداً ومسرحتها الاول فقد ذكر ديشان مثلاً ان ادريان دييور تلا في ٢١ مايو سنة ١٧٩٠ على لجنة الدعوة مشروعاً هائلاً للهدم جاء فيه : « لقد قرر المسيو دي ميرابو ان الثورة السعيدة التي وقعت في فرنسا يجب أن تكون بالنسبة لجميع شعوب اوربا يقظة الحرية والملوك سببات الموت ، وان دييور لم يرَ رأي ميرابو في الاقتصار مؤقتاً على الاهتمام بما يدور في فرنسا من الحوادث ، بل قرر انه يعتقد ان ظفر الثورة الفرنسية يجب ان يفضي حتماً « الى هدم كل العروش . . . وعلى ذلك فيجب ان نسارع الى ان نضرم لدى جيراننا ثورة كالتي تسير الان في فرنسا » ويصف ديشان ادريان دييور هذا بأنه من اقطاب اعضاء الجمعيات السرية ومن يقبضون على جميع خيوط مؤامرات البناء الحر ^(١) أليست هذه فكرة الثورة العالمية بعينها ؟

واليك ما يقوله لومبار دي لأمجر مؤرخ اليعقوبيين عن علاقة الثورة وزعمائها بالجمعيات السرية : « كان في فرنسا في سنة ١٧٩٠ نيف والفا محفل تنتمي الى المشرق الاعظم وتضم من الاعضاء اكثر من مائة الف . وكانت الحوادث الاولى من سنة

(١) ديشان « الجمعيات السرية والمجتمع » Les Sociétés Secrètes et la Société

ويرجع هذا الكاتب في روايته هذه الى وثائق وجدت بين اوراق الكاردينال برنيس

١٧٨٩ ترجع الى تدير البناء الحر وحده . وكان جميع نوار الجمعية الدستورية من أعضاء المرتبة الثالثة التي نضع بين أعضائها : الدوق دورليان ، فالانس ، سيلري ، لاكلو ، بيسيون ، مينو ، يرون ، فوشيه ، كوندريسيه ، لافايت ، ميرابو ، رابو ، دبواكرانسيه ، تيبو ، لاروشفوكول وغيرهم ^(١) ومن هؤلاء الغير بريسو وزملاؤه الذين كانوا نواة الجيرونديين ، وكذلك اقطاب الارهاب أعني مارات وروبسير ودانتون وديمولان

والعناصر المتطرفة المعنة في الهدم او بالحري اقطاب الارهاب هم الذين غلبوا العناصر المعتدلة الخيالية من البناء الحر على أمرها وأخضعوها لصولة النزعة الوابية الكاسحة . ويروي دي لانجر أيضاً ان اولئك الزعماء الثوريين عملاً بتقاليد الشعلة كانوا ينتحلون لانفسهم أسماء قديمة فكان شوميت يعرف بانا كساجوراس ، وكاوتس بانا كراسيس ، ودانتون بهوراس ، ولاكروا بيوبليكولا ونحوها كما كان فيسهاوبت ينتحل اسم سبارتاكوس ، وسفاك اسم كاتو ، والبارون فون كنيجه اسم فيلو وهلم جرا فأقطاب الارهاب وقادة الهدم في الثورة الفرنسية هم كما ترى أبناء الشعلة قولاً وفعلاً بيد ان المدهش ما يقرره دي لانجر ايضاً من ان اولئك القادة الهدامين لم ينفذوا على ما يظهر الى اعماق اسرار الشعلة والى غاياتها القصوى والاخيرة ، وانهم مع تحقيقهم لكثير مما احتواه برنامجها العملي لم يكونوا سوى منفذي الخارجين ، وان وراء المؤتمر الوطني ، والمحكمة الثورية ، ولجنة السلام العام وغيرها من آلات الثورة والارهاب « كانت نجم جمعية تمن في الاختفاء والتكتم Convention Secrétissime » هي التي كانت تدير الامور منذ بداية الثورة ، وكانت هذه قوة سرية هائلة قوامها اعظم دعاة الشعلة ، ولم يكن المؤتمر الثوري سوى عبيد لها وآلة في يدها . وكانت فوق روبسير وفوق كل لجان الحكومة . . وهذه القوة الخفية هي التي استولت على أموال الامة وقسمتها بين الاخوة والاصدقاء الذين عضدوا العلم العظيم ^(١)

واذا كانت أقوال مؤرخ اليعقوبيين هذه ثم عن مبالغة ، فان فيها ايضاً ما يلقي ضياءً واضحاً على الدور الذي قامت به الجمعيات السرية ولا سيما الشعلة البافارية والبناء الحر في اضرام نار الثورة الفرنسية . أما نحن فلا نميل الى المبالغة في تقدير هذا الدور الى الحد الذي يذهب اليه لومبار دي لانجر من تجريد الثورة الفرنسية من كل صفة قومية ، واعتبارها ثمرة خالصة لجهود الشعلة البافارية والبناء الحر ، واعتبار

قاداتها وزعمائها وهيئاتها الثورية آلات محضة في يد هذه القوة الخفية التي يشير إليها .
أما أنه كان لتعاليم فيسهاوبت وجهوده الهدامة ومبادئ البناء الحر ومساغيه الثورية
أثر كبير في تحريك الثورة الفرنسية وفي اذكاء حمية زعمائها وقاداتها وتوجيه جهودهم
ووثباتهم الهدامة فما لا ريب فيه ، ولكن هذا الأثر الخفي لم يكن أصلاً في بعث ثورة
كانت تختمر في المجتمع الفرنسي قبل انفجارها بأعوام مديدة ، بل كان عرضاً تبعياً
أعني أن الشعلة والبناء الحر وغيرهما من الجمعيات السرية رأت في المجتمع الفرنسي مهاداً
خصيبة لبث دعوات الثورة والهدم ، واستطاعت منذ اللحظة الأولى أن تستثمر
ما كانت تحيئ به نفوس الشعب الفرنسي من سخط وبغض ، وما كان يعانيه من بأساء
وعسف ، وإن توجه جهود الثورة بعد انفجارها على يد قاداتها وزعمائها ومعظمهم كما
رأيت من أعضائها ودعاتها

في ضوء هذه الاعتبارات يجب أن ندرس تاريخ الثورة الفرنسية . وقد اتهمنا
هذه الفرصة لنعني بوجه من وجوه الثورة الفرنسية لم يعن به كاتب عربي تعرض
لهذا الموضوع . ومما يؤسف له أن كل ما أخرج بالعربية حتى الآن عن الثورة
الفرنسية ما يزال يعالج أسبابها وحوادثها بأساليب عتيقة براء لا تعطي للقارئ أو
المتعلم أية فكرة حقيقية عن اعظم حركة هدامة عرفها التاريخ

الكتاب الرابع

الجمعيات السريّة في عصر التحرير

تمهيد

كان لمبادئ الثورة الفرنسية وتعاليمها صدى قوياً في معظم المجتمعات الاوربية الاخرى ، وقد غشيت الحروب النابوليونية هذا الأثر مدى حين ، ولكن تعاليم الثورة لم تذهب بانقضائها . بل كانت الحروب النابوليونية ذاتها عاملاً من عوامل بث هذه المبادئ على يد الجيش الذي اخرجته الثورة وقاده نابليون الى فتح اوربا . وكان سقوط هذا الطاغية وانتهاء المأساة الهائلة التي حولت أوربا الى ميدان حرب عامة ، وخضبت بسائطها بالدماء مدى عشرين سنة ، مؤذناً بيقظة المبادئ والنزعات الحرة الكامنة ، التي لبثت تضطرم خفية في صدور الشعوب ، فتعالت صيحات الجماعات من كل صوب في طلب الاصلاحات الدستورية والحقوق السياسية ، وقامت هنا وهناك اضطرابات وثورات محلية . وارتاع الطغاة لهذه الاعراض فائتمروا بالشعوب واعترزوا سحق كل نزعة او وثبة حرة ، واخفأت كل صوت يرتفع لتأييد الحقوق العامة ، وتحقيقاً لهذه الغاية الشائنة عقدت المعاهدة المقدسة في اواخر سنة ١٨١٥ بين اقطاب الطغيان في اوربا وهم اسكندر الاول قيصر روسيا ، وفردريك ولهم الثاني ملك بروسيا ، وفرنسيس الاول امبراطور النمسا

غير ان عهد استرقاق الشعوب كان قد اخذ في الانحلال ، وحبل الطغيان في التصرم ، فلبثت اوربا مدى نصف قرن مسرحاً لوثبات وفورات متعاقبة في سبيل التحرير والوحدة القومية واسترداد الحقوق السياسية والاجتماعية . وكان بدء هذه الحركة قبل سقوط نابليون نفسه حيث اتخذت في المانيا في المبدأ صورة حركة قوية عامة ترمي الى تحطيم النير الاجنبي قبل كل شيء ، وقد فازت هناك ، وساعدت على تحطيم الجيوش الامبراطورية ، وانقاذ المانيا من النير الاجنبي . ثم اتخذت من بعد ذلك في ايطاليا صورة ثورة شعبية عامة تجتمع فيها كل الاماني القومية في استخلاص حريات ايطاليا من قبضة الاجنبي الغاصب ، واتخذت في فرنسا صورة نضال الشعب في سبيل احياء المبادئ الثورية القديمة ومحاربة الملكية وتحطيمها واستبدال طغيانها بالنظم الجمهورية ، واتخذت في روسيا صورة نزعة عامة في سبيل الاصلاح والتجديد واسترداد الحقوق السياسية والاجتماعية ، واتخذت صوراً شتى في معظم البلاد

الأوربية الأخرى بيد أن غايتها كانت واحدة في كل الأحوال ، وهي تأييد الحريات العامة وسيادة الشعب

وقد كان للجمعيات السرية في اضرام معظم هذه الحركات أثر بعيد وهو ما يغنينا هنا من أمر هذه الحركات . وبكفي لكي نقدر بعد هذا الأثر أن نتأمل ما قاله الوزير الإنجليزي الشهير دزرائيلي عن هذه الجمعيات السرية في إحدى خطبه في مجلس النواب ، اذ يقول ما يأتي : « توجد في ايطاليا قوة قلما تذكرها في هذا المجلس ... أعني الجمعيات السرية . . . من العبث ان تنكر ومن المستحيل ان نخفي ان جزءاً كبيراً من أوربا - كل ايطاليا وفرنسا وجزءاً كبيراً من المانيا اذا لم نرد ان نقول شيئاً عن البلاد الأخرى - قد غطي بشباك من هذه الجمعيات السرية ، كما يغطي سطح الأرض الآن بالسكك الحديدية . فما هي اغراض هذه الجمعيات ؟ انها لا تحاول اخفاءها ، فهي لا تريد الحكومة الدستورية ، وهي لا تريد النظم المنقحة . . . ولكنها تريد أن تغير ملكية الأرض ، وأن ترفع عنها يد ملاكها الحاليين ، وأن تسحق المعاهد الدينية . وقد يذهب بعضها الى أبعد من هذا الحد . . . » ^(١)

وليس المقام بموسع هنا لكي نسرد بالتفصيل سير كل الجمعيات السرية التي قامت في ذلك العصر بكثرة في جميع الدول الأوربية ، بيد انا نأتي على سيرة أهمها وابعدها أثراً في تاريخ أوربا في ذلك الحين ، وفي وسع القارئ أن يلاحظ من تلاوة تاريخها الوجهة الجديدة التي اتجهت اليها جهود الجمعيات السرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر

(١) دزرائيلي في خطابه في مجلس النواب في ١٤ يولييه سنة ١٨٥٦

الفصل الاول

جمعية الكربوناري

I Carbonari

(١) أصل الكربوناري وعائلتها . مورات والكربوناري . الكربوناري والبناء الحر . رموزها وقوانينها ومراتبها (٢) وصف رسوم الالتحاق . شعار الكربوناري . خطاب « الكوكب » . صيغة القسم الاعظم (٣) جهود الكربوناري الثورية . الكربوناري الفرنسية . نظمها ومراتبها . انتشار دعوتها . جهودها الثورية (٤) عود الكربوناري الايطالية الى العمل . مطاردة البابوية للكربوناري . جمعية الايمان المقدس . الثورة في الولايات البابوية . الكربوناري والوحدة الايطالية

١ - من أهم الجمعيات السرية التي ازدهرت وبلغت ذروة نفوذها وبأسها في النصف الاول من القرن التاسع عشر جمعية الكربوناري أو « حارقو الفحم » . وأصل هذه الجمعية محوط بالغموض والجدل الكثير ، فبعض الباحثين يرجع أصلها الى عصر فرنسوا الاول ، ويرجعها البعض الآخر الى عصر أقدم فيقولون بنواست مالون في كتابه تاريخ الاشتراكية : ان أسقفاً من ساربروك يسمى تيوبولد أنشأ في القرن الحادي عشر جمعية سرية من الفحامين والخطابين لتسعى الى « ان تدار الشؤون العامة طبقاً لرغبة الجميع ورأيهم » ، فتصل بذلك الى إقامة ما يسميه تيوبولد بالدولة الديموقراطية العادلة . وكان « يسوع المسيح » هو الرئيس الفخري المختار للجمعية التي قسم اعضاؤها الى جماعات تعرف « باليسوع » ، وكانت كلمة التعارف هي الامل والايمن ، كذلك كانت التعارف يجري طبقاً لعبارات سرية ورموز خفية . ويقول آخرون ان ايطاليا هي موطن الكربوناري ، وان أصل الكلمة يرجع الى ان « الجلفيين » كانوا يفرون من مطاردة أعدائهم « الجيلان » ويجمعون في بطن الغابات في أكواخ الفحامين والخطابين . بيد انه مهما كان الجدل الذي يدور حول أصل الكربوناري ، فانها لم تلعب دورها الهام الذي يسجل لها مكانة عظيمة في صحف الجمعيات السرية الا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . وكانت غايتها من هذا الدور سياسية محضة ، حيث عول انصارها على محاربة الاستبداد بجميع صوره ، والوصول الى ان يهبوا الى امتهم نظماً ديموقراطية حرة

وكان مورات ملك نابولي يؤيد دعوة الكربوناري في المبدأ باعتبارها مثقفة مهذبة غير انه ارتاع حينما شهد ذبوع المبادئ الجديدة بين جميع طبقات الشعب ، ثم قال على الكربوناري وجردهم من السلاح ، وأقصاهم عن أرضه ، فساروا وراء زعيمهم كابويانكو الى كلابريا . وكان أعضاء الجمعية في ذلك الحين لا يتجاوزون بضعة آلاف ، غير أن دعوتها ما لبثت في أعوام قليلة ان اجتاحت كل ايطاليا ، وذاعت في فرنسا واسبانيا ، واقدحت نهر الرين ، وأخذت تبعث الجزع والرعب الى كل العروش الاوربية

وقد خلط بعض الباحثين بين الكربوناري والبناء الحر ، ولكن الواقع أن الكربوناري اشتقت من البناء الحر وكان لها مثل البناء الحر ورسومها الخاصة ولغتها الرمزية التي استعيرت من تعبيرات تجارة الفحم ، فسميت قاعة الاجتماع « بالكوخ » baracca ، والمكان الذي يعقد الاجتماع فيه بالغابة والاجتماع ذاته بالبيع Vendita ، واطلقت كلمة الجمهورية على مجموعة القاعات ، وأشير بعبارة « تطهير الغابة من الذئب » الى انقاذ الوطن من جميع الطغاة والظلمة ومن ثم كان نداء الاجتماع عند الكربوناري « الانتقام للحمل الذي اضطهده الذئب ! » . وكانت قوانين الالتحاق شديدة صارمة ، وعقوبات الخارجين ، والخونة هائلة راثمة ، بل كان العقاب يقع للرعونة والخطأ . وكان العضو الملتحق يقسم بأن يكتم سر وجود الجمعية ، وأسرار رموزها ولوائحها وعبارات تعارفها ، وأن بطيع كل الاوامر الصادرة من « البيع الاسمي » طاعة عمياء لا حد لها لان الامور المنكرة تغدو مشروعة سائغة متى كانت وسيلة لتحقيق السعادة والغايات العامة ، وأن يهب كل ثروته وحياته في سبيل الحرية والوطن . ويجب فضلا عن ذلك على كل عضو أن يجهز نفسه من ماله الخاص ببندقية وخمسين رصاصة ليكون بذلك على أهبة لان يقاوم الجور ويشد أزر اخوته الذين يسمون « بأبناء الاعمام الفضلاء » . وكان عقاب الخروج الموت . أما الدرجات التي يجب ان يحوزها العضو الملتحق فهي على التوالي : المتمرن ، فالاستاذ ، فالختار الاعظم

٢ - واليك تفاصيل رسوم الالتحاق بالدرجة الثالثة طبقاً لما رواه سان امده في كتابه عن الكربوناري : يجتمع « البيع » بعيداً عن الادناس في غار مظلم ، لا يعرفه سوى الكربوناري الذين وصلوا الى درجة الختار الاعظم وهذا الغار مثلث الجوانب ويجلس الختار الاعظم الذي يرأس الاجتماع على عرش يوضع في شرق الغار

في مكان يسمى بالزاوية العليا ، وأمامه في الغرب ، وفي منتصف قاعدة المثلث يوجد باب الغار ، يحرسه حارسان يعرفان « باللهيين » يحمل كل منهما سيفاً صنع على شكل الذهب . وينتظم المجتمعون الى صفين عن يمين الرئيس وعن يساره ، ويتجهون جميعاً بأبصارهم نحوه ليتبعوا كل اشاراته . ويسمى الاثنان اللذان يجلسان في نهايتي الصفين ، الطليعة الاول ، والطليعة الثاني ، ويسمى خطيب الاجتماع « بالسكوكب » ، ويشير القاعة ثلاثة مصابيح صنعت على مثل الشمس والقمر والنجم ويوضع كل منها في احدى الزوايا ، ويغطي عرش الرئيس ومقاعد الاعضاء بقماش احمر . ويرتدي الجميع ثياب الجمعية وهي عبارة عن قميص ازرق فوقه رداء طويل اسود قد عقد من الوسط بحزام من الصوف الاحمر علق فيه فأس صغير وخنجر ، ونعل مكشوف ازرق ، ومنديل كبير احمر يلف حول الحيين على مثل العمامة . ثم يبدأ الرئيس بقوله :

يا ابن العم الفاضل ، والطليعة الاول كم الساعة الآن

الطليعة الاول - أيها المختار الاعظم المبجل ان الناقوس يدق في كل ناحية ، فينفذ صدها حتى اعماق غارنا ، وأرى ان هذه هي اشارة اليقظة العامة للرجال الاحرار المختار الاعظم - يا ابن العم الفاضل والطليعة الثاني متى يجب ان تفتح اعمالنا السرية الطليعة الثاني - في منتصف الليل أيها المختار الاعظم المبجل ، وذلك حينما تحتشد الجماهير العامة وراء اخواتنا المديرين من ابناء الاعمام ، وتنظم ، وتنحضر لتحطيم الاستبداد ، وتذهب لان تضرب الضربات الكبرى

المختار الاعظم - ابني عمي الفاضلين ، اللهيين ، وحارسي دمار ماوانا هل أنتم على يقين من أنه لم يندس بيننا أي دنس ، وان جميع الكريوناري الذين يجتمعون في هذه « الفندتيا » (البيع) هم جميعاً أساتذة عظام ومختارون عظام ؟
أحد اللهيين - بلى أيها المختار الاعظم الاجل ، فليس بيننا دنس ، ولا أخ من مرتبة صفرى

المختار الاعظم - هل اتخذ جميع المديرين لدرجات الكريوناري المختلفة الذين عينوا لقيادة الحركة العامة التي ستبدأ ، مرا كزعم ، وجهزوا انفسهم بالسلاح جيداً ،
يا ابن العم الطليعة الاول والطليعة الثاني

الطليعتان معاً - بلى أيها المختار الاعظم الاجل ، لقد ذهبوا جميعاً بعد ان اقساموا القسم المقدس أن يموتوا او يظفروا
المختار الاعظم - ما دامت الامور قد تمت على هذا النحو الحسن ابناء الاعمام

الفضلاء ، فاني ادعوكم الى مساعدتي في افتتاح اعمالنا الليلية بالقاء الشعار السباعي الذي أبدأه الآن ، هيا ابناء الاعمام الفضلاء :

« الى بادىء الكون ، الى المسيح رسوله على الارض ليعيد صروح الفلسفة والحرية والمساواة ، الى رسله ومبشره ، الى القديس تبالدو مؤسس الكريوناري ، الى فرانسوا الاول حاميها ومبيد أعدائنا الاول ، الى السقوط الخالد لكل أنواع الظلم ، الى اقامة حرية حكيمة لا حد لها على الانتفاض الخالدة لاعداء الشعوب » ويقام هذا الاجراء مقروناً بالهتاف العادي ، ثم يتلى محضر الجلسة السابقة ، ثم يأذن المختار الاعظم « للكوكب » بالكلام ، فيبدأ هذا بوصف العصر الذهبي الذي كان يخضع فيه البشر لقوانين الطبيعة ، وكانوا يتحلون بالفضائل والخلال الحسنة ، ويصف الحالة التعيسة حتى تعاني منها « اوسوني » (ايطاليا) الحسناء ، ويصور قضاءها الرائع ، بعبارات مؤثرة ، ثم يقول : « انها تخضع اليوم لثلاثين شخصاً يسمون بالملوك ، يلودون بما يسمونه أملاكهم ، ويسومون بمر الخسف كل الشعوب المنكودة التي تروح تحت سلطانهم الجائر المتخاذل . فلاجل انقاذ الوطن منهم ، انشأ أبناء أعمامنا الاول ، أسلافنا ، الكريوناري المحترمة ، وقد نقيت الحرية والمساواة من العالم فلا تبحر وإن أن تظهر في وضوح النهار ، بل تلتجئان الى الغابات ، وتختفيان في « البيوع » ، وفي الكهوف السحيقة حيث رهف فؤوسها وخناجرها وتقسم أن تسحق في يوم واحد كل الطغاة الذين يرهقون كل هذه البلاد الجميلة ، وقد اقمنا نحن جميعاً على اشارة منقذ العالم بأن نعيد الى الارض فلسفته المقدسة ، وقد حلت الساعة أبناء العم الاعزاء ودق ناقوس الثورة العامة ، وزحفت الشعوب المسلحة ، واذا ما لاحت تباشير الصباح هلك الظلمة وظفرت الحرية ، فلنستعمل الساعات الباقية القليلة التي تمضي قبل ان نصل الى دقائق انتقام قصير هائل ، في قراءة واعلان القوانين الجديدة التي ستحكم « اوسوني » الحسناء ، وتدبجها في شعب واحد ، في حدودها الطبيعية ، وتجعلها حرة ، سعيدة ، مزدهرة كباقي أمم العالم »

وبعد أن ينتهي « الكوكب » من القاء هذا الخطاب ، يتلو المختار الاعظم الرئيس صيغة القسم بصوت عال وهي ، « أنا ، الوطني الحر « ابن اوسوني » الحسناء ، مجتمعاً مع اخوتي في ظل نفس الحكومة ، ونفس القوانين العامة التي اعلم لاقامتها ولو كلفتني حياتي ، اقسم بحضور أستاذ الكون الاعظم ، والمختار الاعظم ابن عمي الفاضل ، ان استخدم كل دقائق حياتي في اعلاء شأن مبادئ الحرية ، والمساواة ، ومقت

الظلم، التي هي روح جميع الاعمال العامة السرية لجمعية الكربوناري، وأتعهد أن أثبت حب المساواة في كل الانفس التي تستطيع أن تؤثر عليها، وأتعهد أن أقاتل حتى النهاية إذا لم يمكن إقامة الحرية بلا نضال، واتقبل إذا نسكت بالحث في قسمي كل ما يوقعه علي أبناء عمي المختارين العظماء من العقوبات مهما كانت من الصرامة والشدة، واستعد أن أصلب عارياً في وسط « قنديتا »، متوجاً بالشوك كما توج المسيح منقذنا وقدوتنا، وأقبل أن يبقّر بطني حياً، وأن ينزع قلبي وامعائي لتحرق، وأن تقطع أوصالي وتشرد، وأن تلقى جثتي بلا دفن، هذه تعهداتنا التي نلزم بها الجميع أبناء العم الفضلاء، فهل تقسمون باتباعها ؟

كل الحضور معاً - بلى تقسم

المختار الاعظم - أجاب الله دعاءكم أبناء العم الفضلاء ! ان رعدة يدوي، وقد قبلت ايمانكم والشعب على أهبة القتال، وسوف يفوز ! قالويل لكم اذا ختموه ! ثم يتلو الخطيب بعد ذلك نص الميثاق الدستوري الذي وضع « لاوسوني » والذي يجب أن يطرح لمصادقة الامة الحرة المتحدة

٣ - وقد تقدمت الكربوناري في ايطاليا بخطوات سريعة واستطلعت منذ سنة ١٨٢٠ أن تضرع في نابولي نار حركة ثورية اضطر الملك معها أن يدع عن لرغبات الشعب وأن يقسم باتباع دستور حر، غير ان فرديناند لم يكن مخلصاً في قسمه وما لبث أن نسكت بجميع عهوده، واستعان بالجنود النمساوية على تمزيق الكربوناري في نابولي، وكذلك مزقت الكربوناري في بيسمون حيث تغلب الرجعيون بمؤازرة النمساويين على الاحرار، وركدت ربح الكربوناري حيناً في ايطاليا، غير انها كانت قد جازت جبال الالب وأخذت تبث مبادئها في فرنسا

وفي شهر يوليه سنة ١٨٢٠ ذهب فتيان من أعضاء البناء الحر الفرنسي هما دوجيد وجوير الى نابولي وتطوعا لخدمة الحكومة الجمهورية، فانضم جوير الى الجيش المقاتل للنمساويين، والتحق دوجيد بالكربوناري وتدرج في مراتبها وأسرارها ثم عاد الى باريس وجمع نقراً من أصدقائه وأسس شعبة فرنسية للكربوناري. ويقول لوي بلان انه لم يكن لهذه الشعبة غرض معين، وكل ما تقرر من مبادئها يتلخص فيما يأتي : « وحيث ان القوة ليست حقاً، وان البوربون استفدوا بواسطة الاجنبي، فان أبناء الكربوناري (الفحامين) قد اجتمعوا ليردوا الى الامة الفرنسية حقها الحر في اختيار الحكومة التي تلامها ». ويقرر المسيو جان فيت احد أعضاء الشعبة الفرنسية

عن أصلها ما يأتي : « في سنة ١٨٢١ اجتمع الزعماء الاحد عشر في كابوا ، وقرروا ان يوفدوا الى الخارج عضوين يتفاهمان مع زعماء البرج الاعظم (وهو ما يقابل المشرق الاعظم في البناء الحر) ، وليبحثا ما اذا كان الافضل ان ينقل مركز ادارة الكربوناري . وقد رؤي من المناسب نقله الى باريس لانها اكثر العواصم الاوربية اتصالاً بمدن القارة ، هذا فضلاً عن انها مقر اعظم أعضاء الجمعية ، وفيها اخصب موارد المال . وعلى ذلك اعد كل شيء لادماج « البيع القديم » (Alta Vendita) مع البرج الاعظم ، الذي كان يشرف وقتئذ على ادارة الجمعيات السرية في باريس » وقد عدلت الكربوناري الفرنسية مبادئ الكربوناري الايطالية وقوانينها لتوافق الآراء والمشارب الفرنسية . وقسمت الى اربع دوائر او بيوع . البيوع الخاصة ، والبيوع المركزية ، والبيوع الراقية ، والبيوع العليا ، وبسطت اجراءات القبول ، ووضعت قواعد حصيفة لاتصال المراتب الاربع دون لفت نظر السلطات ، فجعل لكل بيع تتكون من عشرين شخصاً نائباً ، وجعل من عشرين نائباً ينوبون عن عشرين بيع مختلفة بيعاً مركزياً يختار أيضاً نائبه ليتصل بالبيع الراقى ، وهذا يختار له نائباً يتصل بالمرتبة الاخيرة أي البيع الاعلى ، وبهذه الوسيلة يجهل أعضاء البيوع المختلفة بعضهم بعضاً ، هذا الى انه حُظر على كل « فخام » ان يحاول التعرف بأبناء عمومته ، وحظر التفاهم أو التخاطب بالكتابة ، وجعل بواسطة النواب فقط ، ومن ذلك نرى ان الجمعية كانت وقت الخطر الداهم تستطيع بأيسر أمر ان تقطع كل حلقة للاتصال ، وأن تغدوا أفراداً عاديين لا تربطهم رابطة ، ولا تتقلمهم مسئولية . وكان العضو يقسم عند التحاقه بكتمان وجود الجمعية وأسرارها وأعمالها وأن يجهز نفسه ببندقية وخمسة وعشرين طلقة . وكان رسم الالتحاق خمسة فرنكات وعلى العضو أن يدفع فرنكا في كل شهر

والى جانب الكربوناري المدنية أنشئت شعبة عسكرية في الجيش وقسمت الى مراتب (بيوع) مختلفة أيضاً ، غير أنها لم تكن تظهر اوقات السكنة العامة أو بالحري كانت تندمج في الشعبة المدنية . اما في اوقات الاضطراب والتمهيد للثورة فكانت تنسب الى الطليعة وتقود الحركة وتقوم بالادوار الهامة

ولم تلبث الكربوناري الفرنسية أن غدت قوة عظيمة اذ شد أزرها أقطاب الحزب الحر مثل لافاييت ، وودي كورسيل ، وجاك كشلان وهم من النواب وودي شوان المستشار في البلاط الملكي ، وجماعة من أعلام المحامين وغيرهم . وانتخب لافاييت

رئيساً لها . وعهد الى الاعضاء الفتيان ببث دعوة الجمعية في جميع الانحاء الفرنسية ، فلم تلبث أن استفحلت وتكاثر الاعضاء حتى بلغوا زهاء اربعين ألفاً . ولما حان وقت العمل ، عملت الكربوناري بمهارة وعزم حتى قال مؤرخ ان تاريخ الجمعيات السرية هو تاريخ فرنسا في هذا العصر . وقال جان راينو : « ربما لم تكن الكربوناري حركة سياسية كبيرة ، غير أنها كانت على الاقل عرضاً سياسياً كبيراً ، ومن هذه الوجهة تستحق البحث والدرس . وهي ان لم تكن قد فازت بتحرير فرنسا من النير الذي فرضه الاجنبي عليها ، فقد ساعدت على الاقل في اظهار تعلق الشعب الفرنسي بمبادئ الثورة »

على أن الكربوناري الفرنسية لم تكن كما رأينا نعتق مبادئ محدودة وغايات معينة ، وكانت هذه الغايات والمبادئ تنحصر عند معظم البيوع في اعادة حقوق الامة اليها وفي المطالبة بائشاء جمعية دستورية . وكانت أول وثبة عملية قامت بها في سنة ١٨٢١ ولكنها أخفقت لتردد لافاييت . ثم دبرت عدة مؤامرات واضطرابات فشلت كلها وانتهت بمصرع نفر من اعضائها يقول لوي بلان : « ثم أضحت الكربوناري من بعد ذلك تجرر أذيالها فوق دماء شهدائها »

٤ - أما الكربوناري الايطالية فلبثت حيناً تجثم في الخفاء ، ثم عادت الى نشاطها ولا سيما في الولايات البابوية فارتاع البابوات لذلك ، ونشط البابا ليون الثاني عشر الى محاربة الجمعيات السرية فأذاع منشوراً أخذ فيه عليها تعرضها لسلطة الأمراء وسلطة الكنيسة ، ثم أعقبه بقرار يحظر انشاء الجمعيات السرية ووجودها في رومة والولايات البابوية ، ويفرض الموت عقوبة لكل من ينتمي الى احدى هذه الجمعيات او يؤازرها . على ان المنشور والقرار لم يكفيا لاختاد جذوة الكربوناري ، فسلكت البابا طريقاً أخرى للنضال وأنشأ لمحاربة الكربوناري جمعية سرية كاثوليكية هي : « الايمان المقدس » تؤلف من أبناء البلاط وكبار القسس ورؤسائها الاعلى هو البابا ، وأعظم دعائها اليسوعيون ، ولها مثل الكربوناري مراتب ولوائح ورموز . وكانت تزعم أنها تعمل لاستقلال ايطاليا كسباً لعطف البسطاء وسترأ لغايتها الحقيقية وهي إعادة النظام الكاثوليكي والاقطاعي . ومبادئ الجمعية وغاياتها واضحة في القسم الذي يفرض تأديته على الملتحق وهو : « أقسم بأنني أثبت في الدفاع عن القضية المقدسة التي اعتنقتها ، وألا أبقى على فرد ممن ينتمون الى طائفة الاحرار الشائنة مهما كان مولده أو قرابته أو ثروته ، وألا اشفق ذرة على دموع الاطفال أو الشيوخ ، وان أسفك حتى آخر قطرة

دم الاحرار الاوغاد دون اعتبار للجنس أو السن أو المقام . وأقسم أيضاً بالبغضاء
الخالدة لكل أعداء ديننا المقدس دين الكثرة الرومانية الذي هو الدين
الحق الوحيد »

وحاولت الكربوناري ان تثير الثورة في نابولي سنة ١٨٢٨ فاختفت . وفي سنة
١٨٢٩ عقب وفاة ليون الثاني عشر وقبل انتخاب خلفه بيوس الثامن قامت في
الولايات البابوية عدة ثورات محلية دبرتها الكربوناري وكان أثر الكربوناري يظهر
أينما ظهر علم الاستقلال والحرية . وبعد ذلك بقليل تحالفت الكربوناري مع الجمعيات
السرية الأخرى التي أنشأها ماتسيني والتي كان أهمها جمعية ايطاليا الفتاة وعكفت جميعها
على العمل لإنشاء الوحدة الإيطالية . وكان البرنس لويس بونا بارت الذي حكم فرنسا
بعد باسم نابليون الثالث من أعضاء الكربوناري ، وقد اشترك في كثير من الحركات
الثورية التي قامت في الولايات البابوية لتحطيم النير البابوي . وكذلك كانت اللورد
بيرون الشاعر الانجليزي

وقد أدت الكربوناري دوراً هاماً في حركة الاحياء والوحدة الإيطالية ، وإذا
لم تكن قد اشتركت فعلاً في سلسلة الحروب والثورات الإيطالية التي بدأت في منتصف
القرن التاسع عشر وانتهت بتحرير ايطاليا فلا ريب أنها عملت كثيراً للتشجيع اليها . وقد
كان من حسناتها أن الفت بين الإيطاليين من جميع الطبقات والمقاطعات وعلمتهم أن
يعملوا بدأ واحدة على سحق الاستبداد والنير الاجنبي

الفصل الثاني

النهابزم والنهابست .

Nihilism

(١) أصل النهابزم . ترجنيف واجتمع الجديد . نزع النهابزم وغايتها . ذوب دعوتها (٢) القيصر ينكت برعوده . نشأته في مطاردة النهابست . النهابزم مثل الاشتراكية . أقوال المؤرخ شتوبنيك . تطور النهابزم (٣) بدء النضال الثوري . تعريف صوفيا باردين نهابزم . المعركة العموية . جرائم القيصرية وانتقام النهابست . اتحاد الشعب الثورية . مقتل القيصر اسكندر الثاني . انحلال النهابست واشتداد المطاردة . حوادث الانتقام الأخيرة . عود النهابست الى العمل . أثر النهابزم في تحريك الدعوة الشيوعية

١- لعل أصح ما توصف به النهابزم أنها طور من اطوار الحركة الثورية في روسيا بيد أنها بدأت دعوة سلمية ولم تكن أكثر من نزع الى الاصلاح والتجدد ملكت عقول الشبيبة الروسية ، ثم استحوالت بعد ذلك الى نزع ثورية ، وانتهت الى الانتظام إلى طائفة ثورية سرية تعمل لتحقيق غاياتها بالوسائل الثورية المعتادة أي بالعنف والنضال الدموي ، ومع ذلك فمن الخطأ أن نعتبر النهابست جمعية سرية بالمعنى الذي نطلقه على الشعلة البافارية أو الكريوناري

وأصل الكلمة يرجع إلى أوائل عهد اسكندر الثاني ، وكان أول من استعملها الروائي الروسي ترجنيف في قصته المعروفة « الآباء والابناء » التي ظهرت سنة ١٨٦٢ . ففيها يصف ترجنيف طرازاً جديداً من الشبيبة لاحظ أنه يخرج على العرف والمعتقدات العامة ، ويسخر من جميع التقاليد الاجتماعية ، ويتحدث عن قلب المجتمع وتنظيمه على أساليب علمية محضة ، ويغير مظاهر الحياة العامة حتى في أنفه الشؤون فيطلق الفتيان شعورهم ويقص الفتيات شعورهن . وهذا الفريق من الشبيبة لا يعاب بما تثيره آراؤه وتصرفاته في عامة الناس من الدهشة والسخط لأنه يعتبر نفسه فوق الرأي العام ، ويسخر من كل ما هو معتبر ومقبول لدى العامة ، ويؤدري كل ضروب الثقافة والشعور والرقى المعروفة ، ويؤثر النظريات المادية المحضة ، وهو الفريق الذي عناه ترجنيف في قصته بالنهابست أو «العنصر المهدوم» . على أنه لا ريب في أن هذا الفريق الذي لم ينل عطف ترجنيف لم يكن سوى نذير حركة تجديد عقلي هامة اجتاحت كل الطبقات الروسية المستتيرة ، وبدأت عهداً جديداً في تاريخ روسيا الحديث

وكانت النزعة الغالبة في هذه الحركة الجديدة ترى في النظم القديمة كالدين ، وحياة الاسرة ، والملكية الشخصية ، والادارة المركزية ، عقبات في سبيل النهوض والتقدم ، وترمي الى محوها واستبدالها بالعلوم والحب الحر ، والملكية العامة ، والحكم الديموقراطي . وكانت الدعوة الى مثل هذه النظريات المتطرفة في حكومة طاغية كحكومة القيصر لا تذاع إلا بواسطة الآداب المستورة ، والنقد المعنوي ، وخاصة بواسطة القصص التي كان يكتبها اعلام هذا العصر ممن تفاءلوا خيراً بالحركة الجديدة ، ومن أعظم هذه القصص وأبلغها أثراً في النزعة الجديدة قصة تشرنوفسكي التي كتبها في السجن وعنوانها « ماذا يجب أن نفعل ؟ »

ذاعت النظريات والآراء الجديدة بسرعة مذهشة وخصوصاً بين جميع الطبقات المتنورة كالتبلاء والموظفين ورجال الجيش وأبناء التجار وأبناء السكينة . وكان القيصر الجديد منذ ارتقاء العرش يعد باجراء كثير من الاصلاحات المنشودة ، واستفادت الحركة الجديدة كثيراً من تسامحه في إخماد الدعوات والآراء الحرة ، وازدهر في عهده طائفة من اعلام الكتاب الاحرار مثل تشرنوفسكي ، ودبروليوفوف ، ولافروف وكروبكين وغيرهم وخاضوا المعركة جميعاً باقلامهم وألسنتهم . وكان أخص ما يميز الدعوة الجديدة على قول شتينياف هو « إنكار كل ما يفرض على الفرد إنكاراً مطلقاً يسند إلى الحرية الفردية ، وقد كانت النهليزم ثورة قوية مضطربة لا على الطغيان السياسي ، ولكن على الطغيان المعنوي الذي يرهق حياة الفرد الخاصة » . وسددت السهام الاولى نحو الدين الذي اخذ الروس المتنورون يتحررون من فروضه وتقاليده ، ثم سددت بعد ذلك الى نظام الاسرة حيث أخذت المرأة الروسية تتحرر من رقها القديم لتغدو قرينة الرجل ، مساوية له في معظم الحقوق الاجتماعية

٢ - ولم تأت سنة ١٨٧٠ حتى كانت النهليزم قد جازت مرحلتها الاولى ، وخرجت من طور الكلام والدعوة الى طور العمل . ذلك ان اسكندر الثاني لم يحقق كل وعوده في الاصلاح ، ولم يفض ما حققه منها إلى تخفيف الويل الذي كانت يمح به على جميع الطبقات ، ولم يخرج الفلاحون من غمار الرق إلا ليقعوا بين برأين الممولين والمرايين ، هذا إلى أن القيصر نفسه ارتاع لتقدم الحركة الثورية فوقف سير الاصلاح الجرفي ، وارتد إلى النضال ونشطت شرطة البلاط الى القمع والمطاردة . وكانت الثورة البولونية التي قامت في سنة ١٨٦٤ أول نذير بالشقاق والخصومة التي اخذ يذكو أوارها ، فاخذت النهليزم تشق لنفسها سبلاً أخرى . وكانت الحركة

الاشتراكية التي انتهت بقيام « الكومون » في باريس قد تسربت آثارها إلى معظم المجتمعات الاوربية وغدت الاماني الاشتراكية الاجتماعية كتحرير العمال ، وانقاذ الطبقات العامة مما تعانيه من البأساء والحرمان على يد الطبقات الخاصة المنعمة التي تستغل كدها وتستثمر عملها ، ومحو الفوارق الاجتماعية التي تجعل من سواد المجتمع



ترجينيف

رقيقاً مضطهداً وأمثالها ، قبة لكل الدعوات الاشتراكية والثورية . يقول شتينيالك في كتابه « روسيا الدفينة » ، « هذان هما المرحلتان اللتان تمثلت فيهما الحركة العقلية الروسية ، وقد لبثت إحداهما عشرة أعوام من سنة ١٨٦٠ الى سنة ١٨٧٠ . وبدأت الاخرى من سنة ١٨٧١ . فأى فرق بينهما ؟ كانت النهلزم تبحث عن سعادتها الخاصة بأي الأثمان ، وتجعل منها مثلاً معقولاً حقيقياً للحياة . اما الثائر فيبحث عن

سعادة غيره ، ويريدها بأي الأثمان ، ويضحى من أجلها سعادته الخاصة ، ومثله الأعلى هي حياة فيضها العناء ، وموت شهيد . ومع ذلك فقد شاء القدر ألا يترك الأولون الذين غلوا في بلدهم الخاص ذكراً في أوربا ، في حين أن الآخرين قد نُصِّروا باسم أولئك الأسلاف المجهولين بعد أن غنموا اسماً قرينه الرعب والروع »

خرجت النهليزيم اذن الى طور الدعوة الثورية واندس دعائها وسوادهم من ابناء الاشراف واليهودجوازي الى جميع انحاء روسيا،واخذوا يثبون دعوتهم بين الفلاحين والعمال بواسطة النشرات والخطب والاجتماعات والمحادثات . ونشط المنفيون من الدعاة الى العمل في الخارج وخصوصاً في سويسرا التي كانت مهبط الطلبة الروس من فتيه وفتيات . وكان أولئك الطلبة الذين تخرجوا في الاجواء الحرة يعودون الى بلادهم يضطرمون بالنظريات والتعاليم الحديثة ، وينشطون الى بشا بين مواطنيهم . يقول شتبنياك ، « كانت هذه رسالة اكثر منها دعوة ، كان ثمة ما يشبه صرخة لا ندري من اين أتت تدعو كل روح حي الى اقتداء الوطن واقتداء الجنس البشري ، وكانت الارواح لدى هذه الصرخة تنهض متعثرة باذيال عار الحياة الماضية وآلامها » . ثم يقول : « ولكن هذه النزعة النبيلة ما لبثت أن تكسرت على صخرة الحقيقة ، ذلك ان الدعاة استطاعوا ان يحشدوا جيشاً أعزل من انصار النظريات الجديدة ، ولكنهم رأوا انهم انما يحاربون قوة هائلة مدججة بالسلاح والعدد ، ولا سبيل لهم أن يحركوا كتلة الشعب التي تزرع في أغلال الرق والذلة ، سيما وقد ضوعفت اجراءات القمع ، وماتت الحكومة بالمطاردة والاضطهاد على أولئك الرجال والنساء والفتية الذين يتجاهلون حقيقة الحياة والنظم القومية الروسية » . وهنا تحرك المضطهدون ليأخذوا بالثأر ، « وانقلبت الاحمال ذئاباً » على قول أحد الكتاب ، وبدأ عهد القتل السياسي الذي اقترن باسم النهليزيم

٣ - وكان اول مظهر عنيف للخصومة بين القيصرية والنهليزيم هو اقدام القيصرية في سنة ١٨٧٧ على القبض على خمسين شخصاً من انصار النهليزيم ومحاكمتهم في موسكو بتهمة التآمر . وكان بينهم كثير من الطلبة الذين تخرجوا في سويسرا، ومن هؤلاء صوفيا باردين التي عرفت مثل النهليزيم امام قضاها فيما يلي : « ان الجماعة التي اتمي اليها هي جماعة الدعاة الساميين . ان غايتنا هي أن نبعث الى نفس الشعب مثل نظام أفضل واقرب للعدالة ، او بالحري ان نوقظ المثل الغامض الذي يحتم في نفسه ، وان نبين له عيوب النظام الحاضر حتى لا يعود في المستقبل الى الوقوع في نفس الاخطاء ،

ولكن متى تدق ساعة هذا المستقبل الحميد ؟ هذا ما نجهله ، وليس علينا نحن ان نعين هذه الساعة »

ولما رأت الحكومة ما يهددها من أخطار الدعوات الحرة التي تقتصر على المطالبة بالإصلاحات الدستورية ، والدعوات الثورية التي ترمي الى تحقيق مثلها بالعنف جنحت الى مقاومة الاثنين معاً ، فجذت في مطاردة الاحرار والثوريين ، وقابلها اولئك بالارهاب الثوري والاعتقال المنظم . وبدأت بين الفريقين معركة هائلة ، فامعنت الحكومة من ناحيتها في القبض على النهليست وسجنهم ، وتشريدهم ، ونفيهم الى سيبيريا ، وشنق كثيرين منهم دون محاكمة ، وأمعن النهليست من ناحيتهم في اعتقال رجال الشرطة والقضاء والنيابة ومن اليهم من مطاردتهم . ولما تفاقم الصراع ، واشتدت وطأة القيصرية على الاحرار والثوار اعزم النهليست ان يستأصلوا الشر من جذوره بقتل اسكندر الثاني مضطهد كل دعوة حرة ، وخصم كل نصير للإصلاح والتجدد . ففي اوائل سنة ١٨٧٨ قبض على مائة وثلاثة وتسعين من النهليست وقدموا الى المحاكمة في بطرسبرج (لسنجراد) ، فهلك في بدء المحاكمة من المتهمين ثلاثة وتسعون بالانتحار ، والتعذيب ، وقتل النهليست اثني عشر جاسوساً وجلد الشرطة طالباً متهماً يسمى بوجولوبوف لانه لم يحجى الجنرال ترييوف مدير الشرطة ، وأطلقت فتاة تدعى فيرا زاسولتس النار على ترييوف فجرحته جرحاً خطيراً (فبراير سنة ١٨٧٨) ، وقدمت الى المحاكمة فبرئت ، وحملت على الاعتناق بين الضجيج والهتاف ، ثم فرت خوفاً من المطاردة والانتقام . وفي اغسطس سنة ١٨٧٨ اعدم الاشتراكي كرفالسكي بالرصاص في اودسا ، فلم تمض بضعة ايام حتى انتقم اثوار له بمقتل رئيس الشرطة من نزييف . وفي فبراير سنة ١٨٧٩ قتلوا في خاركوف جاك المفاطعة البرنس الكسيس كروبتكين ، وفي ابريل حاولوا قتل مدير الشرطة الجديد درنتلين . وفي مايو شنقت الشرطة فاليريان اوسنسكي أحد أقطاب حزب الثورة واثنين من رفاقه في كيف

ابثت هذه الحوادث الدموية بضعة أعوام تضج لها روسيا ، ويضج العالم . وفي ٢٦ اغسطس سنة ١٨٧٩ قررت اللجنة التنفيذية اعدام القيصر اسكندر الثاني . وهنا اتحدت شعب الحزب الثوري بعد التفرق ، وانتظمت بعد الاختلال ، وعقد مؤتمر عام في زجيرس . ونظم النهليست شعباً متحركة للنضال لكي تستطيع مغالبة الشرطة ومجانبة مطارداتها ، يتألف سوادها من الفدائيين الذين وهبوا حياتهم للثورة . ومع ذلك فقد أخفقت عدة مشاريع لقتل القيصر ، حدث في اولها ان الاعم الذي وضع

تحت القطار الذي يسافر فيه القيصر لم ينفجر ، وحدث في ثانيها ان القنابل انفجرت ولكن القيصر لم يكن في القطار الذي أصابته القنابل (ديسمبر سنة ١٨٧٩) ، وحدث في الثالث ان القيصر لم يكن بالمصادفة في قاعة الطعام الشتوية التي نفسها خولوتزين (فبراير سنة ١٨٨٠) . وكانت مدبرة المشاريع الاولى امرأة تدعى صوفيا بيروفسكايا بمساعدة زميلين هما تيرايف وهارتمان . وفي اول مارس سنة ١٨٨١ وقع القضا ، وجرح اسكندر الثاني جرحاً ذهب بحياته من شظايا قنابل القاها عليه ريسا كوف وجرمفتسكي على خفة رعة سانت كاترين . فقبض على ملقي القنبلة وعلى اربعة آخرين من النهليست ومنهم بيروفسكايا وشنقوا بعد ذلك بايام قليلة . ثم شنق من النهليست عشرة آخرون في سنة ١٨٨٢

وعلى أثر مقتل اسكندر الثاني وجهت اللجنة التنفيذية منشوراً الى خلفه القيصر الجديد ، اقترحت عليه فيه المهادنة . وكانت الجماعة الثورية قد اضمحلت كثيراً من جراء النضال والمطاردة ، وهاك صفوة النهليست ، وشرذد المرهبون والمتآمرون ، ولم تبق الحركة الثورية شيئاً من وراء الاغتيالات الفردية ، وضاعفت الشرطة الرقابة والتجسس ، واستطاعت أن تدس بعض رجالها الى صميم الشعب الثورية . ومن ثم قلت حوادث القتل المنظم . وكان أهم هذه الحوادث بعد مقتل اسكندر الثاني ، مقتل سترانكوف النائب العام لمحكمة كيف العسكرية في نوفمبر سنة ١٨٨٢ ، ومقتل رئيس الشرطة سوندكين في ديسمبر سنة ١٨٨٣ ، وحدث اعتداء ان على حياة القيصر اسكندر الثالث ، أحدهما في مارس سنة ١٨٨٧ ، والآخر في اكتوبر سنة ١٨٨٩ حيث حاول النهليست أن ينسفوا القطار الذي يقل الاسرة القيصرية كلها في بوري (القوقاز) . ثم هبطت الحركة تدريجياً وركدت ربح النهليزم ، بعدما صادفت من خيبة ، وما لقيت من اصرار القيصرية على مطاردتها وسحقها بيد من حديد ، وبعد ان هلكت زهرة دعائها وأنصارها

ثم استعادت النهليزم شيئاً من نشاطها في اوائل هذا القرن ، ففي سنة ١٩٠١ حدث شغب في الجامعات الروسية وفي سنة ١٩٠٢ حدثت اضطرابات خطيرة بين الفلاحين في كثير من الانحاء ، ثم قتل على أثر ذلك وزير الداخلية سيباجين . على ان المثل التي اعتنقتها الشيبة الروسية في عهد اسكندر الثاني تحطمت كلها على صخور الحقائق المادية . وفي اوائل عهد القيصر نيقولا الثاني اضطربت الحركة الثورية من

جديد غير أنها أخذت تهبط امام الاصلاحات الدستورية التي انتهت باقامة النظم
البرلمانية في روسيا

على ان النهيزم اذا كانت قد أخفقت في اغراضها الثورية فقد مهدت السبيل الى
وثوب دعوة ثورية جديدة كانت تجثم في الخفاء في صدور دعاة يعملون لبثها في خفاء
وسكينة ، دعوة ذات مثل شامة شاسعة ، لا تقف عند تغيير نظام او حكومة ، بل
ترمي الى سحق النظم القديمة من الاساس

هذه الدعوة هي الشيوعية التي سنعي بها في فصل قادم

الفصل الثالث

التوجندبند

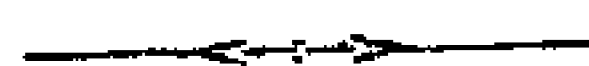
Der Tugendbund

لم نحمد الشعلة البافارية بمطاردة المختار لها وتمزيقها في بلاده ، على انها لم تلتزم على نحوها القديم ، بل كانت مبعثاً لطائفة من الجمعيات السرية الاخرى. ففي سنة ١٧٩٠ وثبت من مهد الشعلة جمعية سرية وطنية قوامها الشباب والطلبة تعرف بالتوجندبند او مجمع الفضيلة . وكانت تقصد قبل كل شيء الى التأثير في نظم المانيا السياسية والى توجيه سياسة الملوك والوزراء . وقد ظهر نشاطها واضحا في عهد الحروب النابوليونية التي مزقت الامارات الالمانية وحطمت عظمة بروسيا . ففي سنة ١٨٠٧ عقدت جمعية عامة من اعضاء التوجندبند في كينجزبرج ، فاقترح نفر من أقطابها ومنهم البارون شتاين ، والسكونت شتاديون والجنرال بليخر ان تعدل غايات الجمعية وان تعنى قبل كل شيء بانهاض نشاط الشعب وشجاعته لكي يتابع النضال ، واغاثة سكان المقاطعات التي عسف بها الغزو الفرنسي . فصادقت الجمعية على هذا الاقتراح ، وعقدت على اثر ذلك بين التوجندبند وبين الوزارة الالمانية التي كانت تعرف مقدار نفوذ الجمعية وتوغلها بين شباب البلاد اتفاق سري لم يلبث ان انتهى بتحطيم المشروعات النابوليونية ، وعهد الى لجنة من ستة اعضاء مركزها كينجزبرج ان تدير اعمال الجمعية ، والفت في المقاطعات لجان محلية تعمل تحت اشراف اللجنة الرئيسية وهذه اللجان بدورها تشرف على اعمال القاعات او الدوائر ، وتتحرى في سياستها وتعاليمها ان تثير حماسة الشعب ، وان تعمل على تشجيعه ومساعدته العقلية والمادية بجميع الوسائل . وكان يقبل في سلكها كل عضو يمكن ان يعمل على تحقيق هذه الغايات مهما كان مركزه وظروفه ، ولا يقصى عنها سوى القصر وذوي الخلال الفاسدة . ولم تلبث التوجندبند ان غدت قوة هائلة تنفذ الى جميع اركان المانيا ، وتعمل بجميع الوسائل على بث روح وثبة عامة تقصد الى تحرير المانيا من نير المغير ، والى صون كرامتها من عبث المعتدي . وقد ارتاع نابليون انشط هذه الجمعية وعظم تأثيرها في عقلية الشعب الالمانى وفي تحريكه ومخريضه ، فطلب الى الحكومة البروسية ان تضع حداً لمساعدتها الخفية ،

وتظاهرت الحكومة البروسية بإجابة مطلبه فأتخذت بعض إجراءات حل الجمعية وتشريد نفر من أقطابها ، ولكن معظمهم بقي على رأس الجمعية بدير أعمالها وجهودها . وفي سنة ١٨١٠ أرغم البوليس الحربي الفرنسي الحكومة البروسية على القبض على نفر من زعمائها ، وضبط أوراقهم . وحينئذ ركذ نشاط التوجندبند حيناً غير أنها استأنفت نشاطها في أواخر سنة ١٨١٢ ، واشتدت دعوتها ، وتقدم لتأييدها نفر من كبار القواد والساسة ، وبلغ من نفوذها ان كانت تفاوض الامراء المخالفين لبروسيا ، وتتعهد أن تضع رهن تصرفهم خدمات كل أعضائها ومواردشم اذا منحوا شعوبهم نظاماً ديموقراطية حرة . وقد برت بوعودها في ذلك وساعدت كثيراً من أولئك الامراء على تحرير بلادهم ، ولكن الامراء لم يفوا بعهودشم في تشكيل الحكومات والنظم الحرة . وفي أواخر سنة ١٨١٣ اخذت التوجندبند في الانحلال بعد انتصار المانيا في الحرب التحريرية الاولى ، وانتحق معظم أعضائها بجمعيات سرية أخرى كانت تعمل على حلها السلطات تبعاً

وكان لدعوة التوجندبند أثر عظيم في سياسة بروسيا لهذا العهد ، وفي التشريع البروسي الذي تلا وثبة بروسيا وتحريرها ولا سيما في تنظيم الجيش البروسي واصلاحه

الكتاب الخامس



حركات الهدم الظاهرة

تمهيد

ننتقل الآن من عالم الخفاء الى عالم الوضوح ، ومن عالم السر الى عالم الجهر .
إن المبادئ والمشاريع الهدامة التي رأيناها قبة الهيئات الخفية والجمعيات السرية على اختلاف نحلها ومذاهبها ، والتي اثبتت هذه الهيئات والجمعيات تبثها من وراء حجاب على كر العصور في مختلف المجتمعات قد وثبتت من مهادها الخفية ، وبرزت من غمار الظلمات الى عالم الوضوح ، واتخذت صبغات وأوضاعاً جديدة تناسب روح العصر الحديث وظروفه ، واستبحال الكثير منها الى مذاهب اقتصادية واجتماعية أضحت من أعقد مسائل العصر . ألم ترَ فيما مرّ بك مثلاً ان الغايات التي تسمى الاشتراكية والشيوعية واللاحكومية اليوم الى تحقيقها قد أدججت في مبادئ معظم الجمعيات السرية ، واختلطت بالغايات التي قصدتها معظم الحركات الثورية ؟ أليست الثورة العالمية وما تقصد اليه من سحق المجتمع الحاضر ، وابادة نظمه ومدنيته وتقاليده ، ذروة الغايات والمثل السرية الهدامة ؟ ألم تعمل الجمعيات السرية ، والفرق الثورية الاسلامية منذ عبد الله بن ميناون الى الحسن الصباح ومنذ القرامطة الى الاسماعيلية على هدم كل العالم الدينية اسلامية او غيرها من الاساس ، وهدم كل النظم الاجتماعية والتقاليد الاخلاقية ؟ ثم ألم تعمل الجمعيات السرية الغربية منذ فرسان المعبد ، الى الشعلة البافارية والبناء الحر ، على هدم جميع الاديان والمعتقدات الدينية ، وهدم جميع النظم الاجتماعية القائمة ؟ وأخيراً ألم يكن مجتسماً خراً زال فيه معظم الفوارق المادية والاجتماعية ، وتسوده أوسع ضروب المساواة والحرية والاخاء ، ويسحق فيه الايثار ، هو المثل الاعلى للبرامج الانشائية التي نادت بها معظم الجمعيات والطوائف السرية وأصحاب المذاهب والدعوات الحرة ورسد التحرير العقلي والاجتماعي ؟ هذه المبادئ الهدامة هي اليوم دين طائفة من الحركات العلنية الظاهرة ، وهذه الغايات هي مطلبها وقبلتها ، وذلك هو مثلها الاعلى

فالشيوعية ، والاشتراكية الثورية ، واللاحكومية ، دعوات هدم ظاهرة ، تعمل كثيراً في العلانية وان كانت لا تغفل الوسائل السرية مع ذلك ، ولا يخفي دعائها وأنصارهم برامجهم وغاياتهم الهدامة ، بل يعلنونها في كل وقت بالقول والكتابة ، ويعملون على تنفيذها بجميع الوسائل المستورة والظاهرة ، من الحملات القلمية الى الثورات الدموية

هذا التطور في تاريخ الدعوات الهادمة والثورية من الخفاء الى الجهر يرجع الى تطور في عقليات الشعوب التي كانت وما زالت مهاداً لبث هذه الدعوات ، والى انقلاب في النظم الحكومية واصطباحتها بألوان من التسامح الديني والفكري كانت ثمرة ثورات السياسية والفورات التحريرية العديدة التي حطمت نظم الاقطاع ، ودكت عروش الحكومة الاثوقراطية في معظم البلاد ، وكذلك الى الانقلابات الاجتماعية والاقتصادية التي هبت ريحها على المجتمعات الغربية منذ أوائل القرن الاخير لذلك كان حفاً على مؤرخ الجمعيات السرية والحركات الثورية الهادمة أن يعني بشرح حركات الهدم العلنية هذه خصوصاً وقد أُنشئت في يومنا أهم المعضلات الاجتماعية ، وغدت عاملاً بعيد الأثر في سير الشئون العالمية وفي توجيه مصائر الشعوب والدول . هذا الى أننا نرحب بتمنوح هذه الفرصة للكتابة عن طائفة من الموضوعات التي قلما أُلقيت الى العالم العربي بصورة صحيحة ، وأن نلقي بعض الضياء على مبادئ ومذاهب ما زال سواد المفكرين في مصر وغيرها من البلاد العربية يذهب في تعريفها وتأويلها أغرب المذاهب وأبعدها عن الحقيقة . ولما كنا نكتب عن هذه الموضوعات للحقيقة والتاريخ فحسب قانا أن نبتعد عنها بالتعليق والنقد وأن نكتفي بالتحليل والعرض تاركين الحكم على خيرها وشرها للقارىء

الفصل الاول

الاشتراكية

Le Socialisme

(١) الاشتراكية حركة علمية تستند الى التطور البشري ، النظرية الاشتراكية في قيام الدولة .
النضال بين الملكية والرأسمالية . تعريف الاشتراكية . الغايات الاشتراكية (٢) تحليل النظرية
الاشتراكية . عناصر رأس المال . العمل قوة اجتماعية . غايات الرأسمالية ووسائلها . العامل سلعة .
الرأسمالية تمسك على جميع القوى (٣) اشتراكية المصالحين وجهودهم في الإصلاح . منح
ديموقراطية (٤) انحلال الرأسمالية . برنامج الاشتراكية الثورية (٥) إلغاء الملكية الفردية
غاية جوهرية للاشتراكية . مدى هذا الإلغاء . الوراثة في ظل الاشتراكية (٦) الوسائل
الاشتراكية . التطور والثورة . النظرية المركزية . الفرق بين الشيوعية واللاحكومية

١ - الاشتراكية الحديثة (١) حركة علمية بنيت على التطور التاريخي للماضي
والظروف الاقتصادية للحاضر ، فهي ليست مثلاً من مثل الخيال العليا وان كانت
قد بدأت كذلك . وقد بدأ الخيال الاشتراكي يحول بذهن الانسان منذ قرون
طويلة ، ففي جمهورية افلاطون مثلاً نجد لمحة من مثل الاشتراكية الخيالية ، ونجدها
أيضاً في نظريات كثير من الفلاسفة المتقدمين . ولكن الاشتراكية الحديثة ترجع
مشاريعها الهدامة وبرامجها الانشائية الى أسس اقتصادية واجتماعية ، وتدرس تطورات
المجتمع بالاستناد الى وقائع التاريخ وحقائق الاقتصاد . فتري في الجدل الاشتراكي
كيف بدأ المجتمع في غمار التوحش ثم تطور الى المسيحية ، ثم استحال الى الرق ،
فانتقل الى الاقطاع ، واستقر اليوم في ظل النظم الرأسمالية ، وتري فيه كيف نشأت
الملكية الشخصية فوق أنقاض الشيوعية ، ونشأت بذلك علائق جديدة بين الافراد ،
وقامت نظم جديدة او بعبارة أخرى كيف أفضت الظروف الاقتصادية الجديدة الى
نظم اجتماعية جديدة

تقول النظرية الاشتراكية ان قيام الملكية الشخصية أفضى الى تضارب حاد بين
مصالح الافراد ، بين الغني والفقير ، بين القوي بثروته والضعيف بحرمانه ، وان

(١) أعتقد أن التعبير بالاشتراكية والشيوعية لا يؤدي المعنى المقصود ، وان هذه الترجمة
العربية لمقابلها بالانجليزية لفظية خضة ، ولكن العبارات المستحدثة قد غدت بكل أسف دأمة
جداً ومن المجازفة أن يعدل عنها الى غيرها من التعبيرات التي لم يألفها السماع

هذا النضال بين الافراد قد استحال الى نضال بين الطوائف ، وان الطبقة المالكه احتفاظاً بثروتها ومصالحها لجأت الى قوتها الاقتصادية في وضع نظم اجتماعية تلائمها ، وجعلت الملكية الشخصية أساساً للسلطة السياسية ، ومن ثم استأثرت الطبقة المالكه بالحكم والتشريع ، وحشدت القوات المسلحة لفرض ارادتها على المجتمع ، وهذا هو أصل الدولة السياسية . وهكذا أنشئ النظام الاجتماعي لصالح الطبقة الحاكمة ، وغدت الدولة سلاحاً في يدها تؤيد به سيادتها الاقتصادية ، وتفرض ارادتها على الطبقات المحكومة المترقة ، ومن ثم كانت مهمة الحكومة منذ قيام الملكية الفردية والدولة هي أن تسير المجتمع لصالح الملكية ، لا ان تمظمه لصالح البشر كافة

لبثت الملكية ومن ورائها الارستوقراطية وملاك الارض يستعملون الدولة آلة لتأييد سيادتهم ونظمهم بارهاق القوى المنتجة ، وطبقة اصحاب الاموال التي أخذت تنسو على كر العصور وتناوىء سلطات الملكية والارستوقراطية وتقبض على زمام القوى الاقتصادية ، فلما اشتد ساعد الرأسمالية مالت على الملكية المضمحلة فخطمتها وأبادت نظم الاقطاع ، ومزقت الطبقات المتأززة ، واستوات على مقاليد الامور واستأثرت كسابقتها بالسلطان السياسي والسيادة الاقتصادية ، واستخدمت قوى الدولة لفرض ارادتها على الطبقات العاملة

هذا النظام ، وهو النظام الحاضر نظام الايثار وتحكم الطبقات ، ونعيم الاقلية الغنية ، وبأساء الاغلبية المحرومة هو الذي تقصده الاشتراكية بالهدم والحو

ترمي الثورة الاجتماعية التي تعمل لاضرامها الاشتراكية الى محو الملكية الخاصة في وسائل الانتاج وثرواته ، او بعبارة أخرى تقصد الى هدم حكم الطبقات الذي تستخدمه طبقة الممولين وسيلة لاستعباد الكافة

وقد عرفت الاشتراكية في بعض مؤتمراتها الرسمية بما يأتي : « هي الاتفاق والعمل الدولي بين العمال ، وتنظيم الكتلة العاملة سياسياً واقتصادياً الى حزب طائفي لانزاع السلطة ، وتوحيد وسائل الانتاج والمفايضة (جعلها عامة مشتركة) او بعبارة اخرى تحويل المجتمع الرأسمالي الى مجتمع اشتراكي أو شيوعي »

ولما كان الجدل حول تعريف الاشتراكية وتحديد غاياتها كثيراً لا سبيل الى استقصائه في هذا المقام الضيق فاما نكتفي بإيراد النظريات والغايات الاشتراكية على سبيل التعميم لا التخصيص

رسمي جميع المذاهب والمدارس الاشتراكية على اختلاف نزعاتها ووسائلها الى تحقيق ما يأتي :

(١) المساواة الاقتصادية بين جميع الافراد بلا تمييز في القومية أو الجنس أو السن . ويقولون ان ألوان الحرية التي منحها كثير من الدساتير الحالية كلها الفاظ خيالية لأنها لم تقرن بالمساواة الاقتصادية وهذا هو شأنها في سويسرا وفرنسا والولايات المتحدة

(٢) سحق استقلال الفرد أو الجماعة أو الدولة للفرد . ولا تتحقق حرية أو مساواة دون نفاذ ذلك الشرط لان العامل المأجور في مجتمع أساسه « نظام الاجور » يبقى ابداً تحت رحمة مخدمه سواء كان الفرد أو الجماعة أو الدولة ومهما قلت ساعات العمل وزيدت أنصبة الربح

(٣) توحيد ملكية الارض (الغاء الملكية الفردية) بما عليها وما فيها من كنوز وأرزاق ويدخل في ذلك الابنية العامة والمصانع وآلات الاتساج لان الاستعباد السياسي والاخلاقي والفكري الذي ساد الشعوب في العهد الاخير أساسه نظام الملكية الفردية

(٤) استبدال الدولة العسكرية الحاضرة باتحاد من المجتمعات الحرة او بمجتمع كالذي وصفه سان سيمون بما يأتي : « كرتنا الارضية تسمو فيها بذور اتحاد حر من الجماعات البشرية »

(٥) منح الحق لكل انسان ، بلا تمييز في القومية أو الجنس أو السن ، ان يستخدم كل وسائل الانتاج علمية كانت أو فنية ، وأن ينتفع بجميع الانظمة الاجتماعية ، وأن يشترك في جميع أعمال المجتمع

(٦) التعليم الحر العام ، وعول المجتمع للضعيف والمريض والشيخ
هذه هي القواعد والغايات الأساسية للمبادئ الاشتراكية التي يصر على تحقيقها كل من يعتنق هذه المبادئ على خلاف في وسائل تحقيقها ، ومدى تطبيقها كما سنرى
٢ - واليك تحليل النظرية الاشتراكية من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية طبقاً لما يقرره أئمتها وصفوة دعائها

يقولون ان عملية الانتاج لا تقتصر على عمل الانسان في الطبيعة بل تقتضي أن يعتمد على غيره من الافراد ، ولا ينتج الافراد الا اذا عملوا معاً ، وتبادلوا نشاطهم بطرق معينة . وهم من أجل الانتاج يتعاملون ويرتبطون ولا تؤثر جهودهم في الطبيعة

أو بالحري لا ينتجون الا بعقد هذه الروابط والعلائق الاجتماعية . ولا ريب في أن الروابط الاجتماعية بين المنتجين والظروف التي يتبادلون فيها نشاطهم ويقتسمون ثمرة جهودهم تختلف باختلاف الوسائل المادية وتطورها وتقدمها .

وما المال الا علاقة اجتماعية للإنتاج لان وسائل العيش وآلات العمل والمواد الأولية التي يتكون منها رأس المال لم تخلقها وتتمسها الا ظروف وعلائق اجتماعية معينة . ثم هي بعد ذلك تستخدم الإنتاج من جديد بتأثير ظروف وعلائق اجتماعية جديدة . وهذه الصفة الاجتماعية المعينة هي التي تطبع الإنتاج بطابع رأس المال .

وفوق ذلك فان جميع العناصر المنتجة التي يتكون منها رأس المال ليست الا حاجات تعيش وتنمو بالتبادل والتعاون مع قوة اجتماعية مستقلة أخرى ، هي العمل . وكلا القوتين لا تنتج احدهما دون الاخرى . ولكن مما لا شك فيه انهما ليستا في درجة واحدة من الجلد والتكافؤ ، اذ العامل يأخذ من صاحب المال بعض وسائل العيش مقابل عمله ، ولكن صاحب المال يغم نظير ذلك قوة العامل المنتجة التي لا تتمصر على سد ما يستهلكه بل تسبغ الى جانب ذلك على العمل المتكسب قيمة مضاعفة ، فالفلاح الذي يعمل طول يومه في الحقول نظير بضعة قروش ينتج للمالك أضعاف هذه القيمة ، وبذلك يستهلك المالك أجر العمل بطريقة نافعة مثمرة لانه استطاع أن يشتري عمل العامل بما يوازي الضعف والاضعاف أحياناً في حين أن العامل يشتري بما ينقده من الأجر الزهيد وسائل للعيش يستهلكها عاجلاً ، ولا يستطيع الحصول على غيرها الا اذا قدم عمله الى السيد ثانية . والعامل الذي يشتغل في مصنع للقطن لا يقتصر عمله على إنتاج المصنوعات القطنية ولكنه يخلق المال أيضاً أو بعبارة أخرى يخلق قيمة تستلزم عمله من جديد ليخلق مكانها قيمة جديدة وهكذا يستطيع المال أن يضاعف نفسه بمبادلة العمل المأجور واستدعائه لمعاونته ، ولا يمكن أن يتقدم العمل الى معاونة رأس المال الا لمضاعفته او بالحري الى إعدام القوى التي تعمل على تسخيرها واستغلالها .

ويقول خصوم الاشتراكية ان مصلحة العامل وصاحب المال موحدة مشتركة لان العامل يهلك اذا لم يستخدمه رأس المال ، ويهلك رأس المال اذا لم يؤازره العامل بعمله .

وبرد الاشتراكيون على ذلك بأن رأس المال ليس قوة شخصية بل هو قوة اجتماعية لا يمكن استثمارها الا بتسخير أعضاء الهيئة الاجتماعية ، وان الرأسمالية نظام

اجتماعي يقوم على امتلاك وسائل الانتاج التي تستثمر اجتماعياً بواسطة العمل ، وان كانت ملكاً للأفراد

يقولون ، والرأسمالية لا غاية لها سوى تحصيل الربح ، وليس من غاية للصناعة الكبرى الا أن تنتج سلعة تجر الغنم ، وهي من أجل ذلك تستخدم الكتلة العاملة التي لا تملك سوى قواها العقلية والجسمية ، فيبيع العامل قوة عمله بثمن معين هو الاجر ، وإذا ففوة العامل سلعة من السلع ، ولما كان من المستحيل أن تفصل هذه القوة عن شخصه فهو اذاً يبيع نفسه ساعات معينة بثمن معين ، وبذلك تجعل الرأسمالية من الفرد سلعة محضة تباع وتشترى ويخضع ثمنها للقانون العام أي لقانون العرض والطلب . ومن خواص هذه القاعدة انها تتأثر بقانون التنافس الذي يرد قيم الحاجات الى ثمن انتاجها . فكذلك التنافس بين العمال يرد ثمنهم (أجورهم) الى ذلك المستوى أي المستوى الذي يمكنهم من الحياة المجردة

اذا ما تقرر ذلك ففي وسع العمل أن يرفع من ثمنه بالانسحاب من السوق ، أو بعبارة أخرى بالاضراب

في وسع العمال أن يضربوا وأن يؤسسوا النقابات والاحزاب والجماعات التعاونية ولكن هل يسمح لهم بذلك دائماً ، وهل في استطاعتهم أن يثبتوا طويلاً والنظم الرأسمالية تسلط عليهم جنودها ومدافعها ؟

ان الرأسماليين في كل بلد أقلية صغيرة ، ولكنها تقبض كما قلنا على جميع وسائل الانتاج ، وتسيطر على جميع الطبقات الاخرى ، وتقبض على زمام القوى السياسية والعسكرية والتشريعية ، فانقاذ الكتلة العاملة التي تؤلف سواد المجتمع لا يمكن تحقيقه طبقاً للنظرية الاشتراكية الا بهدم النظم الحالية واحلال النظم الاشتراكية مكانها ٣ - ولكن نقرأ من خصوم الاشتراكية الخاصة ، ممن يؤمنون في نفس

الوقت بوجوب اصلاح النظم الرأسمالية والعمل على تخفيف عسفها وويلها اذا كان لها أن تبقى خالية من الاخطار والمنازعات المضطربة ، يرون استبقاء المجتمع الحاضر بعد حمايته من العناصر الهادمة ، والعمل على استبعاد العوامل والاسباب التي تغذي هذه العناصر بأسباب الهياج والقوة ، أو بعبارة أخرى يريدون اجراء طائفة من ضروب الإصلاح على قاعدة الانتاج الرأسمالي ، وأولئك هم أنصار الاشتراكية « الرأسمالية » على قول ماركس وهم في رأيه أعد خصوم الاشتراكية الحقة

وقد كان قيام أولئك المصنحون (أو المحافظون على قول ماركس) نتيجة

للاضطراب الاقتصادي الذي أحدثته ثورة الإنتاج والصناعة الكبرى في أوائل القرن التاسع عشر، تلك الثورة التي دهمت الطبقات العاملة بضروب شنيعة من البأساء والحرمان أفضت الى اشتداد ساعد الاشتراكية الثورية . عندئذ برز أولئك المصلحون من بين الرأسماليين ليعملوا على تخفيف ويلات الكتلة العاملة . وسواء أكان قيامهم لتوطيد النظم الرجعية المحافظة كما يقول ماركس أو لتحقيق غايات انسانية محضة فإن جهودهم في ذلك السبيل قد أسبغت على الكتلة العاملة منحة كثيرة يعتبرها بعض الاشتراكيين الساميين ظفراً للاشتراكية ونواة للصراع الاخير بينها وبين الرأسمالية على أن هذه الجهود الإصلاحية وما أفضت اليه من منح للكتلة العاملة كانت عاملاً في مهدنة الثورة الاشتراكية الى حين وحرمانها من مؤازرة فريق ممن لا يرى التطور والتدرج في مهاد الإصلاح ، وكانت ثورات التحرير التي هزت أسس الحكم في أوربا في منتصف القرن التاسع عشر هي التي أوحى الى الطبقة الحاكمة أن تفكر في التنازل للطبقات المستعبدة عن بعض المنح احتفاظاً بسيادتها وامتيازاتها ، وحملت الجهود الرجعية او الإصلاحية وما أسفرت عنه من تحسين في شؤون الطبقات العاملة زعماء الديموقراطية على أن يعتبروا هذه المنح خطوة كبيرة في سبيل تحقيق العدالة الاجتماعية

فماذا كانت تلك المنح ؟ كانت سياسية كمنح حق الانتخاب لافراد حرموا منه من قبل أو تعيينه في بعض الدول، واقتصادية اجتماعية كلاعتراف بحق تأليف الجماعات وتنظيم الاعتصابات بشروط وقيود معينة ، وتقصير ساعات العمل ، وتفتيش المعامل ، وعول العجزة والشيوخ ، وتقرير التعليم الابتدائي المجاني وقد اشترك في العمل على تحقيق مثل هذه المنح اشتراكيون مثل تلاميذ روبرت أوين ، على أن هؤلاء لم يعتبروها إلا مزايا وخطوات عميدية لتحقيق برنامجهم . وإذا كان تحقيقها قد اعتبر في وقت ما ظفراً للديموقراطية ولقضية العمل فإن الثورة الهائلة التي حدثت في وسائل الإنتاج باكتشاف البخار والكهرباء واشتداد ساعد رأس المال والمالية العليا قد أوضحت ضالة هذا الظفر، وبعثت الى الثورة الاشتراكية روحاً جديداً . فاشتد ساعدها أيضاً وذكاً أوار التضال بينها وبين النظم التي تعمل لسحقها ٤ - يقول الاشتراكيون ان النظم الرأسمالية الباغية قد دخلت في طور الانحلال وأن نظماً يعاني سواد البشر في ظلها صنوف البؤس والشقاء ورسفون في أغلال العبودية والذل لتنعم أقلية صغيرة بصنوف الثرف ، وألوان الحرية ، وتستأثر بالسيادة

والجاء والغنى، هي نظم جائرة يجب تحطيمها لتتجو الكتلة العاملة من ذلك الكابوس الرائع، كابوس الرأسمالية والمالية العليا . ويقولون ان كل نظام اجتماعي يحمل في ثناياه نفس العناصر التي تؤدي الى هلاكه وفساده . والنظم الاجتماعية تتحدر الى هلاوة الانحلال متى حلت من المتناقضات ما يقف عثرة في سبيل التطور الاقتصادي . وعلى ذلك فان الرأسمالية الحديثة قد اوضحت نظاماً مقضياً عليه ، فقد وضحت مفسادها ومتناقضاتها الاجتماعية ، وكلما جازت مرحلة اجتماعية جديدة كلما ازداد هذا التناقض وضوحاً ، وكلما اشتدت عوامل الانحلال

هذا وكلما اشتد تقدم الرأسمالية ، وازداد انتاج الطبقات العاملة في العالم من جراء الوسائل الصناعية الحديثة ، كلما تعاقبت الازمات التجارية بسرعة . بل الواقع ان الرأسمالية تسير اليوم الى أزمة هائلة . والازمات التجارية دليل على ان ناتج العمل الاجتماعي عظيم بحيث يرهق المجتمع ، واذا فالرأسمالية تسير الى التحطم بتقدم قواها الاقتصادية ذاتها ، وسوف نشير الى رأي ماركس في هذه الظاهرة في كلامنا عن الشيوعية

فالاشتراكية الحقة او الاشتراكية الثورية ترى بالاستناد الى ان العمل يخلق كل الثروات الاقتصادية أن لا سبيل الى حل هذه المعضلة الاجتماعية الا باعادة تنظيم المجتمع على قاعدة الملكية الاشتراكية (الاجتماعية) لجميع ثروات الانتاج . وهذه خطة لا يعلني بها الاشفاق ولا العواطف ، بل يعلني بها الضرورة الاقتصادية ، هي حل علمي محض ، وما دامت الثروة تخلقها الجهود المشتركة ، فيجب ان تكون ملكيتها مشتركة ايضاً ، وان تدار بطريقة مشتركة . وطالما حيل دون تحقيق هذه الغاية فان الرأسمالية تسير من عثرة الى عثرة ، ومن أزمة الى أزمة اشد ، ومن معركة الى معركة اخطر واذكى سعيراً

٥ - ومن ذلك نرى ان الغناء الملكية الفردية او الملكية الشخصية هي الغاية الجوهرية الاشتراكية ، وهي قبلتها الاولى ، وعماد نظمها . ولكن الى اي مدى تريد الاشتراكية ان تحقق هذا الالغاء ؟ هنا يشتد الجدل بين اقطاب الاشتراكية انفسهم ، غير ان اهم الآراء وارجحها هو ان الالغاء ليس على اطلاقه ، وأنه يقصد الى انتزاع آلات الانتاج ووسائله العامة كالارض والمناجم والغابات ورأس المال من الملكية الخاصة ، على خلاف في تعيين وتحديد هذه الآلات والوسائل ايضاً ، وتوضع هذه وتلك في ملكية الدولة لتستثمر للصالح العام . ويعبر الاشتراكيون عن ذلك

بقولهم : « ما هو ضروري من الوجهة الاجتماعية يجب ان يقع في الملكية الاجتماعية الاشتراكية » ، ويقول اصحاب هذا الرأي ان ملكية الاشياء تبقى دائماً وسيلة للاعراب عن الشخصية ، بل ان منهم من افق مثل كارل كاوتسكي الزعيم الاشتراكي الألماني بجواز امتلاك الفرد لمنزله وحديقته في ظل الاشتراكية وبأن ليس في ذلك ما ينافي الغاية الاشتراكية ما دامت تفرض على الايراد المتحصل من غير العمل ضريبة مناسبة تمنع تكديسه وتضيضه . ويقول هؤلاء ان احداً من اشد انصار ملكية الدولة لا ينازع في ان تمتلك المرأة آلة للخياطة أو الرجل معول حديقة ، وان الاشتراكية لا تعارض في استعمال الفرد هذه الآلات لشخصه ولمنفقته ، ولكنها تعارض في استعمالها لتحصيل ثمرة عمل الغير . وتذهب الجمعية الفابية ، وهي جمعية اشتراكية بريطانية ، الى ابعاد من ذلك في تحديد الغاية الاشتراكية ، وتقيد الغاء الملكية فتقتصر على المطالبة بالغاء ملكية الراسمال الصناعي ، ووضعه دون غيره في الملكية القومية

ويترتب على ذلك ، في نظر اصحاب هذا الرأي ، ان حظر الوراثة ليس جوهرياً في النظام الاشتراكي فليس على الاشتراكي ان يعترض على الوصية بالثروة الخاصة اللهم الا اذا حدثت في ظروف تفضي الى استئثار الاقلية بالميراث والثروة وحرمان السواد الاعظم كما هو الشأن اليوم . وعلى اي حال فلا بد ان يخضع الميراث لضرائب مناسبة تحد من فداخته وتحول دون اتخاذ آلة للاستغلال وسلب الغير ولا تراعي الاشتراكية في كل ذلك سوى غايتين جوهريتين ، الاولى معنوية اجتماعية وهي تقرير الحرية الفردية الصحيحة ، وانقاذها من كل الاغلال والقيود التي يفرضها عليها المجتمع الرأسمالي ، والثانية اقتصادية وهي وضع حد للاستغلال ، وهذه الغاية الاخيرة هي التي تستوجب في نظر الاشتراكية الغاء الملكية الشخصية بالمعنى الذي ينناه

٦ - ويختلف دعاة الاشتراكية ايضاً بالنسبة للوسيلة التي يجب الالتجاء اليها لتحقيق الغايات الاشتراكية ، على ان اوجه الخلاف يمكن حصرها في طريقتين : الاولى طريقة التطور ، والثانية طريقة الثورة . والاولى وسيلة المصلحين ومن يحا نحوهم كالفايين . ومؤداها انه يمكن الوصول الى اعادة تنظيم المجتمع على الاسس الاشتراكية بالتعاون السلمي بين الكتلة العاملة والطبقات الاخرى ومؤازرة الاحزاب وتأييد الاجراءات التي ينجح الى تحقيق المثل الاشتراكية ، او بعبارة أخرى

يرى انصار التطور امكان الوصول الى الغايات الاشتراكية من طريق النظم البرلمانية والكفاح الحزبي ، وهذه هي الطريقة الغالبة في بريطانيا العظمى . بيد اننا نستطيع ان نقدر ضعف هذه الوسيلة متى ذكرنا ان حزب العمال الانجليزي استولى في سنة ١٩٢٤ على مقاليد الحكم ولم يستطع ان يحقق ذرة من المثل الاشتراكية التي ينادي بها وهو خارج الحكم . واما طريقة الثورة فهي نظرية ماركس وتلاميذه ، وهي النظرية التي شرحها في البيان الشيوعي في سنة ١٨٤٨ ، ومؤداها ان المثل الاشتراكية لا تتحقق الا بثورة الكتلة العاملة على طبقة البورجوا (اصحاب الاموال) وانزع السلطة من يدها ، وتخطيها بالعنف والقوة وسفك الدماء . وقد اوضحت هذه النظرية هي الغالبة اليوم بين دعاة الاشتراكية حتى ان اصحاب نظرية التطور اصبحوا يرمون بالرجعية والمروق ، ولما يمتدرون من الاشتراكيين الخالص . وسنعود الى شرح هذه النظرية باسهاب في كلامنا عن الشيوعية

هذا وري من واجبا قبل أن نختتم كلمتنا عن الاشتراكية أن نبين الفرق بينهما وبين دعوتين أخرتين من دعوات الهدم الظاهرة هما الشيوعية واللاحكومية (Anarchie)

فأما الشيوعية فتفترض جميع الثروات الاجتماعية مجموعاً يستهلك الفرد منه لا الى ما يناسب خدماته للمجتمع فقط ، ولكن الى ما يبد جميع حاجاته ، وبني بحقه البشري في العول والكفاية . على أن هذا الحق في الاستهلاك يتوقف عند الشيوعيين على واجب العمل للنتاج ، ويجب أن ينفي من المجتمع الشيوعي كل فرد تخلف عن أداء هذا الواجب ، فمن لا يعمل لا يأكل على قولهم . هذه هي النظرية الشيوعية في توزيع الثمرات ، وهي ما يعبر عنه بقولهم « من كل طبقاً لكفايته ، ولكل طبقاً لحاجاته » . أما الاشتراكية فتتفق مع الشيوعية في وجوب انشاء المجموع العام من الثروات ، ولكنها تخالفها في طريقة التوزيع ، فتسمح لكل فرد من الثمرات العامة الى ما يناسب عمله وجهوده لا ما يناسب حاجاته ، واذاً فقاعدة التوزيع عند الاشتراكيين هي الارادة الشخصي ، وعند الشيوعيين هي الحق البشري في الحياة ، وتحيط الاشتراكية قاعدتها بضمانين : الاول هو أن يكون الاراد الشخصي كافياً للاتفاق على معيار لائق من العيش ، والثاني هو أن يمثل الخدمات التي أدبت فحسب ولا يمثل القدرة على استغلال الغير . أما الشيوعية ، فلا تعتبر الا المقدار الذي يلزم لسد حاجات الفرد ، ولا تقيد الاستهلاك الا بالناحية التي ينصرف اليها

ثم ان الاشتراكية والشيوعية كثيراً ما تخلطان بالاحكومية ، وهذا خطأ بين ، فالاحكومية دعوة هدم سياسية تنصب على نظم الحكم وتنظيم الدولة ، وتسكر قيام الدولة وقايف الحكم على أسس النصب والقوة كما هو شأن الدولة الحالية . وغايتها هي اما هدم الدولة أصلاً ، واما انشاء دولة لا تقوم الا على العوامل الاجتماعية والمعنوية وتسيرها العلائق المختارة ، هذا في حين ان الاشتراكية تقر الدولة القائمة على القوة ما دامت تطبق المبادئ الاشتراكية وتقر الشرائع الملزمة . وأخيراً تقوم الاحكومية على اعتقاد في خير الطبيعة البشرية ، ولكن الاشتراكية الحديثة لا تقوم على فكرة الخير البشرية وانما على مدنية الطبيعة البشرية . هذا وسوف نعود الى الافاضة في خواص الاحكومية في فصل قادم

هذه هي خواص الدعوة الاشتراكية وغاياتها أوردناها قاصرة على الشرح ، بعيدة عن التعليق بقدر ما سمح لنا المقام الضيق ، ولعلنا نكون قد استطعنا بهذه الخلاصة ان نقدم الى القارئ فكرة صحيحة واضحة عن الاشتراكية الحديثة وأن نرفع كثيراً من أسباب الغموض التي أحاطت بها .

الفصل الثاني

الشيوعية

Le Communisme

(١) الشيوعية نزعة قديمة . الشيوع غاية الاشتراكية الخالصة . كارل ماركس رسول الشيوعية الحديثة (٢) حياة ماركس . نشأته وجهوده الثورية . مؤتمر العمال الدولي . تحليل ماركس للمجتمع . مذهبه في التحلل الرأسمالية . الصبغة العملية لنظريات ماركس (٣) نظرية ماركس في شرح التاريخ . المجتمع ثمرة لنضال الطوائف . البورجوازي وعسفا . شره الرأسمالية وعدوانها . (٤) شرح ماركس لتطور الرأسمالية . نضال الطوائف . تكديس المال نذير بنكبة الرأسمالية (٥) غايات الشيوعية . إلغاء الملكية البورجوازية . ماركس يدافع عن نظريته . نحو الاسرة الرأسمالية (٦) ماركس يدفع بعض التهم . شيوع النساء . إلغاء الجنسية والوطنية . العامل لا وطن له . اتهامات الدين والفلسفة . (٧) برنامج الشيوعية الانشائي . اتحاد نضال الطوائف . الشيوعية لا تحقق الا بسحق النظم الحاضرة (٨) الشيوعية رمز الثورة العالمية . مدى فوز الشيوعية وقوتها . انضواء الاحزاب الشيوعية تحت لواء الدولة

١ - الشيوعية كاشتراكية دعوة هدامة تستند الى أسس اجتماعية واقتصادية ، وهي قديمة جداً غير انها لم تنتظم الى مذهب ثوري ذي قواعد ونظم معينة الا في فاتحة القرن التاسع عشر . وقد كان الشيوع نظام المجتمعات البشرية في طورها الاول ، وفي مهاده قامت الملكية الشخصية ، ثم كان مثلاً تبشر به بعض المذاهب الفلسفية والدينية ، وغاية يدعو اليها بعض الطوائف الدينية والثورية ، ولعلنا نذكر ان بعض الفرق الاسلامية الثورية كانت تعتق الشيوع وتدعو اليه ، بل تطبقه وتعيش في ظله كما فعل القرامطة اذا صدقنا أقوال مؤرخي السنة . والغاية الشيوعية تكاد تطابق الغاية الاشتراكية ولا تخالفها الا في بعض الاجراءات التفصيلية التي بينها ، بل يمكن أن يقال دون خوف الشطط ان كل اشتراكية خالصة ترمي في النهاية الى الشيوع ، وان الاشتراكية الثورية هي الشيوعية بذاتها . بيد ان الشيوعية ثورية في جوهرها وفي وسائلها وهي أشد امعاناً في الهدم من أية حركة ثورية أخرى ، وأذكي عداوة لكل ما يعتنقه المجتمع من تعاليم سياسية ودينية وأخلاقية . وعناصرها ووسائلها السرية وافرة الجول والنشاط الى جانب عناصرها ووسائلها الظاهرة ، وقد غدت قوة هائلة منذ أن ظفرت بسحق دولة القياصرة في روسيا ، وغداً شبحها يزوع جميع المجتمعات والدول الغربية

وقد بدأ نشاط الشيوعية كدعوة ثورية هدامة في منتصف القرن التاسع عشر ، وجنحت الى الوسائل والجهود السرية بادية بدء ، وكان منظم هذه الجهود رجل من أئمة الثورة وأقطاب الهدم هو هينريخ كارل ماركس ، وهو أعظم دعاة الشيوعية بلا مرء ، بل هو واضع أصولها العلمية الحديثة ، ومنظم أساليبها الثورية ، ومنشيء برامجها الهدامة والانشائية ، وهو المرجع والحجة لكل جدل شيوعي ، حتى أن الشيوعية تمت باسمه فتسمى بالمركية . ولما كانت جهود الدعوة الشيوعية الاولى تقتزن كلها باسم ماركس ، فإنه يجدر بنا أن نبدأ بذكر نحة من سيرته وجهوده ، ثم نعطف بعد ذلك على شرح الدعوة الشيوعية طبقاً لنظرياته وشروحه

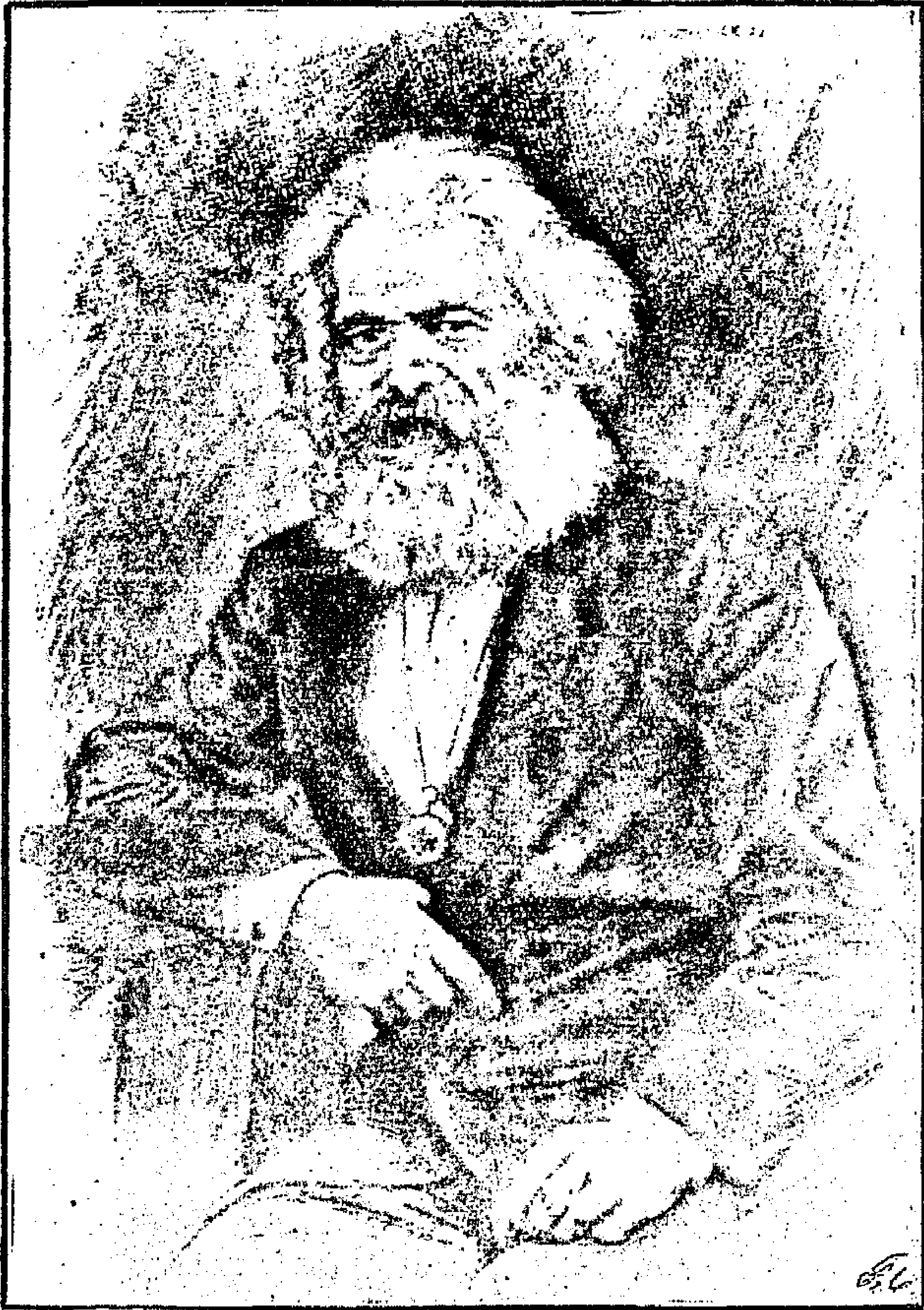
٢ - ماركس يهودي الماني ولد في تريف في مايو سنة ١٨١٨ ، ودرس القانون في بون وبرلين بأرواح والاساليب الهيجلية ، ثم درس الاقتصاد السياسي ومبادئ شيوخته مثل آدم سميث . وبدأ حياته العملية في سنة ١٨٤٢ بالتحرير في غازيتة الرين Die Rheinische Zeitung فافضت شدته وأقواله الثورية الى تعطيلها ، فانتقل الى باريس واتصل بالاشتراكيين الفرنسيين ودرس مبادئهم درساً مستفيضاً ، وصادر منذ اول يناير سنة ١٨٤٤ صحيفة الفورفيرتس Vorwärts (الى الامام !) الاشتراكية ، غير انه ما لبث ان نفي من فرنسا في يناير سنة ١٨٤٥ ، فانتقل الى بروكسل ، وهناك التقى بفردريخ انجلز الذي غدا صديقه وزمياه في بث الدعوة الشيوعية حتى موته . فاخذا يعملان على تأليف جمعية سرية شيوعية ، وفي سنة ١ٸ٤٨ ، نشر اياهما الشهير المعروف ببيان الحزب الشيوعي Manifest der kommunistischen Partei ، وهو متن الشيوعية ومرجعها الى يومنا . ولبث ماركس حيناً في بروكسل يدير شؤون الجماعة السرية التي أنشأها حتى نفي من البلجيك أيضاً ، فعبر الحدود الى المانيا ، وخاض غمار ثورتها التي كانت مستعرة اذ ذاك وتولى زعامة الحركة الثورية في ولايات الرين وأصدر في كلونيا « غازيتة الرين الجديدة » ، ولكنه لم يلبث حتى نفي مرة أخرى ، ففر الى دوقية باد ، ثم الى باريس ، ولكنه أخرج منها ثانية ، فعبر البحر الى انجلترا واستقر بمدينة لوندرة التي كانت كعبة المنفيين والمبعدين السياسيين عندئذ . وهناك اتصل بالمنفيين ودعاة الثورة من جميع الاقطار ، وانقطع الى نشر الدعوة الشيوعية بقلمه ولسانه ، ونشر عدة رسائل فلسفية واقتصادية ، وكتب بين برائن الفاقة والبأساء الطاحنة كتابه الجامع « رأس المال » Das Kapital ، وهو من أجل كتب الاجتماع

والاقتصاد، وأعظم ما كتب في الاشتراكية حتى أنه لينعت بأنجيلها عكف ماركس من ذلك الحين على بث آرائه وإذاعة دعوته، ثم انتقل إلى طور العمل فدعا مندوبي العمال الإنجليز والفرنسيين والبلجيكيين إلى الاجتماع في لوندون سنة ١٨٦٢ سعيًا إلى توحيد حركة العمال الدولية، وقدم لهم بيانًا أسست طبق نصوصه «جماعة العمال الدولية» سنة ١٨٦٤، فكانت نواة الهيئة أو الجمعية التي تعرف اليوم «بالدولية الشيوعية» أو الدولية الثالثة كما سنبين بعد. وتولى ماركس إدارتها حتى سنة ١٨٧٢، ولكن الخلاف ما لبث أن تسرب إليها ولا سيما منذ أن انضم إليها باكونين الداعية للاحتكامي الروسي وتلاميذه، وما لبثت أن استثارت ريب الحكومات المختلفة بما كانت تبذله من الجهود في موازنة الحركات الثورية، فالت عليها السلطات، وأرهقتها المطاردة، ومزقها الزاع بين ماركس وتلاميذه، وبين باكونين وبرودون وأنصارهما فانحلت في سنة ١٨٧٢، غير أنها تركت وراءها أحزابًا اشتراكية سياسية في ألمانيا وفرنسا وبلجيكا وسويسرا، وجماعات ثورية لاحكومية تعتنق آراء باكونين، وكانت تمرر العملية بث المبادئ المركسية بين جماعات العمال والديموقراطيين وفصل الشيوعيين الاحكاميين عن باقي الهيئات الشيوعية

وقد طبعت نظريات كارل ماركس بطابع الفلسفة الهيجلية (نسبة إلى هيجل) ولا سيما ما تعلق منها بسير التاريخ وتكوين المجتمع. ويرى هيجل أنه يجب علينا أن تدبر الضرورات الطبيعية الخفية التي تحرك المعتزك التاريخي وألا تنقد نتائج التاريخ وأحوال المجتمع بروح العواطف الفردية، وأن ميول التطور الاجتماعي صائرة بالتدريج إلى تحقيق مبادئ الحرية، وأن الحرية لم تمنح أصلاً للإنسان بل هي عمل التاريخ وثمره النظام الاجتماعي أو غرس الدولة. وقد أثرت فلسفة هيجل وسيمونندي وسان سيمون في نظريات ماركس تأثيراً عظيماً. دعا ماركس إلى تنظيم السكتلة العاملة إلى حزب سياسي يعمل على تحقيق المبادئ الشيوعية، وبأدى بضرورة اضرام ثورة عالمية. وتلك نظرية الثوار الفرنسيين الذين قالوا كما رأيت بوجوب قيام كل شعب في وجه حكومته وفي وجه كل الطبقات الحاكمة. ونظر ماركس إلى المجتمع باعتباره كلاً لا يتجزأ ورأى أن الانظمة ثمار الحوادث التاريخية، وأن الخير والشر هما من صنع الإنسان، وأن البأساء التي تسحق الجماعات من حوله لا يدرؤهما سوى انقلاب اجتماعي هائل

ويرجع الفضل إلى ماركس في أنه استعرض آراء المتقدمين من فلاسفة

واشتراكين ، وهذهها ودعمها بنظرياته الشخصية ، وأخرج منها مذهباً عملياً منطقياً هو أن النظام الرأسمالي يسير بنفسه الى نكبة نفسه ومن ثم الى تحقيق انظم الشيوعية وهو ما يسمى في الاشتراكية المركسية بقانون البأساء المتراكمة . يسمو غنى الاغنياء ،



كارل ماركس

ويشتد بؤس الفقراء ، وتتكدس الثروة في يد أقلية ضئيلة ، وتتركز رؤوس الاموال فيؤدي ذلك الى أن تفتك البأساء والفاقة بالجماعات العاملة ، فيثب العمال عندئذ ويؤلف الحرمان والبؤس بين قلوبهم ، وتجتمع كلهم على تحطيم نظام يسومهم الخسف والارهاق.

ويبطش بأجسامهم وأرواحهم وعقولهم ، وينشب الصراع الأخير ، ويحل الانقلاب ،
فتنهال أسس المجتمع الحاضر لتقوم على انقاضها صروح المجتمع الشيوعي
وهذه بدعة في المبادئ المركبة تميزها عن كل ما تقدمها من النظريات التي ترمي
الى التوفيق بين الاشتراكية وفكرة التطور . ويقرن ماركس نظريته هذه برأي
طريف في تفسير سير المجتمع ، فيقول : ان كل تطور سياسي أو اجتماعي أو أخلاقي
إنما هو ثمرة التطور الاقتصادي وهو رأي يعارض به أيضاً كل المتقدمين من
دعاة الاشتراكية

وقد أفهم ماركس وانجلز العالم أن الاشتراكية ليست عطفاً على بأساء المجتمع
من ذوي الأقدسة الرقيقة والطبائع البارة بل هي بالعكس انقلاب اجتماعي هائل ، وأنه
لا خلاص للكتلة العاملة ولا فوز إلا بصراع هائل ينشب بينها وبين الطبقات الحاكمة
المستأثرة بالثروة والسيادة . كانت آراء ماركس وانجلز العملية المنطقية ضربة ساحقة
« للمثل العليا » والاماني الخيالية ، فامتعت الاشتراكية واشتد ساعدها منذ أصبحت
صراعاً مادياً واضحاً بين الطبقات ، وارتفع ما حاق بها من الغموض ، وأصبحت
قضية يدركها الفرد العادي ، ويستطيع أن يدعو اليها ويشد أزرها أوضع عامل ،
وتحدث الاشتراكية سلطاناً رأسمالية تحدياً واضحاً في الحركات والفورات العديدة
التي قامت خلال القرن الماضي ف شعر العامل بقوة في التضامن مع رفاقه من أي البلاد
ودوت في أذنه صرخة ماركس وانجلز التي اختتمها بالبيان الشيوعي : « أيها العمال
من أي البلاد اتحدوا ! »

والخلاصة أن ماركس كان يعمل للغايات العملية المحققة لا للخيال البعيد . وقد
أثار بدعونه جيشاً هائلاً من الطبقات العاملة وبعث اليها عزماً للجهاد والنضال ، وأدى
بذلك الى قضية العمل ما لم تؤده الحيلوش الجرارة ، ونظم الكتلة العاملة فاصطبغت
لاول مرة بالصبغة السياسية ، وجمع تحت لوائها كلمة الديموقراطية فصدع بذلك من
صرح الرأسمالية ، وتقوضت منه دعائم شائخة ما لبثت أن أسفرت عن وثوب
روسيا الاشتراكية

٣ - وبعد فما هي الشيوعية كدعوة هدامة ، وما هي غاياتها ووسائلها ؟ هذا
ما فصله ماركس وانجلز في البيان الشيوعي ، متن الشيوعية ، ومرجعها . ونرى نحن أيضاً
أن نرجع في شرحنا الى هذا البيان ، وأن نقدم الى القارئ من فقراته وعباراته
الواضحة القوية ما يترب اليه فهم الفلسفة المركبة وتصويرها للدعوة الشيوعية

يبدأ ماركس ببسط نظريته المادية في شرح التاريخ فيقول :
 « ليس تاريخ أي مجتمع الى عصرنا بأكثر من تاريخ لنضال الطوائف
 » لقد أشهر الأحرار والأرقاء ، والنبل ، والعامه ، والسادة والخدم ، والرؤساء
 والمروءسون ، وبالجملة كل ظالم وكل مظلوم كل على الآخر حرباً مستمرة تارة في
 الجهر وأخرى في الخفاء : حرب كانت تنتهي دائماً إما بثورة تقلب نظام المجتمع
 بأسره وإما بإحلال الطائفتين المتحاربتين
 « ونلاحظ في عصور التاريخ الاولى أن المجتمع كان دائماً ينقسم الى طبقات
 تتدرج في الامتياز والرفعة . ففي رومة القديمة مثلاً كان من طبقات الشعب نبل
 وفرسان وعامة وأرقاء ، وكان منها في القرون الوسطى سادة وأتباع ورؤساء
 وأشباع وعبيد

« ولم تمنح أنظمة البورجوازي (طبقة اصحاب الاموال) الحديثة التي قامت على
 أنقاض الاقطاع أسباب البغضاء من بين الطوائف بل استبدلت الطوائف القديمة
 بأخرى ، وخلقت طبقات جديدة وظروفاً جديدة للاضطهاد ، وضروباً جديدة للنضال
 » على أن عصرنا الحديث يمتاز منذ عهد البورجوازي بتخفيف عوامل البغضاء
 بين الطوائف لان المجتمع البشري قد انقسم الى شطرين عظيمين متخصصين أو الى
 طائفتين عدويتين هما البورجوازي ، والكتلة العاملة »

ففضل الطوائف Klassenkampf ، في رأي ماركس ، هو المحور الحالد الذي
 تدور حوله حوادث التاريخ ، وهو الذي تسبغ نتائجه على المجتمعات أشكالها وأنظمتها
 يقول ماركس : ان طائفة البورجوازي ليست الا ثمرة لسلسلة من الثورات التي
 عصفت بطرق الانتاج والمواصلات ، وان كل تطور في مركز البورجوازي كان
 يقترن به تطور مماثل في أحوال المجتمع ونظمه ، فمن دولة هاضها عصف الاقطاع الى
 جماعة مسلحة تدفع بنفسها الى القضاء على الشيوخ : هنا حكومة جمهورية ، وهناك حكومة
 ملكية . فلما حل عهد الصناعة الكبرى استبدت البورجوازي القوة السياسية وحرب
 منها بقية الطوائف . وهذا ما حدث في الحكومة النيابية الحديثة التي ليست في رأي
 ماركس سوى لجنة ادارية ترعى شؤون الرأسمالين

ثم يقول : ان هذه البورجوازي التي تستأثر بالسلطان والثروة هي التي ترفع المجتمع
 بحورها وأثرها وجشعها ، وهي التي فازت باغتصاب السلطة ، ووطئت بأقدامها الانظمة
 الاقطاعية والتقاليد الاخلاقية ، ومزقت بلا رافة جميع العلائق التي تربط أفراد المجتمع

لتسود مكانها علاقة المصلحة الجامدة، أو العلاقة المالية، وأسدت حجب الاثرة الباردة على الايمان الديني وحماسة الفروسية ورقة المشاعر التي كانت تزدان بها البورجوازي الصغيرة (الطبقة المتوسطة) وحولت الغيرة الشخصية الى مسألة مادية محضة، واحلت محل الحقوق التحريرية العدة التي كالت الشعوب كثيراً من أجلها حرية واحدة هي الحرية التجارية القاسية الباغية، وعلى الجملة فقد ابتدأت الاستغلال المستر بالاساطير الدينية والسياسية باستغلال ظاهر وحشي شائن

«وقد سلبت الرأسمالية بهاء المهن الشريفة المحترمة فحوات الطيب والمثمن والسكاهن والشاعر والعالم الى عمال مأجورين، وانهكت حجب العواطف التي كانت تحيط علائق الاسرة وحولتها الى علائق مالية محضة

» وقد غاضت جميع العلائق البشرية القديمة، واختفت الافكار والعقائد المحترمة فحلت مكانها علائق ومبادئ لا تكاد تبدو حتى تسحق، وأصبح يهتز كل ما هو ثابت وطيد، وشمل الرجس كل ما هو مقدس، وأرغم الانسان على أن يتأمل ظروف الحياة وعلائق المجتمع بأعين ذاهلة

« ان ظمأ الرأسمالية الى الثروة وحاجتها الى افتتاح الاسواق الجديدة يدفعها دائماً الى غزو العالم بأسره » هكذا يحمل ماركس على طبقة البورجوازي، وهكذا يصف عسف النظم الرأسمالية بهيكل المجتمع البشري

٤ - يصف ماركس بعد ذلك التطور الاقتصادي للنظم الرأسمالية، وهو تطور يفضي في رأيه الى هلاك هذه النظم، فيقول ان المجتمع الرأسمالي الحديث يماثل بما ابتدعه من وسائل هائلة للإنتاج والمبادلة ذلك الساحر الذي لم يعد في وسعه أن يسيطر على القوى الجهنمية التي أثارها. ففي وقت ما يجذ المجتمع نفسه قد ارتد فجأة الى حالة من الاضطراب والفوضى، ويحيل للناس أن قحطاً أو ان حرب فناء قد ذهبت بموارد حياته، وتبدو أمارات الخذلان على الصناعة والتجارة. فلم هذا؟ ذلك لان المجتمع قد استسلم الى حضارة وافرة، وبالع في ابتداء أساليب العيش والصناعة والتجارة، وغدت قواه المنتجة لا تتناسب مع اتساع وسائل الملكية الرأسمالية بل غدت هذه الوسائل ذاتها عثرات في وجه الرأسمالية. وكلما اجتاحت القوى الاجتماعية المنتجة هذه العثرات ألقت بالمجتمع في أحضان الفوضى وأندرت بالفناء ملكية البورجوازي، وبعبارة أخرى أصبحت النظم الرأسمالية أضيق من أن تسيطر على الموارد التي خلقت في ظلها

ثم ان نضال الكتلة العاملة للبورجوازي يبدأ منذ نشأتها ، ويتطور من نضال الفرد الى نضال الجماعة ثم الى نضال الكتلة العاملة بأسرها . وكما تقدمت الصناعة كلما ازداد أبناء الكتلة عدداً ، وانتظمت جماعاتهم واشتد ساعدتهم ، وشعروا بقوتهم فاذا ذك نضال الطوائف ودنت الممركة الحاسمة ، فان انحلال الطبقة الغالبة ، أو



فريدريك انجلز

بعبارة أخرى انحلال المجتمع الذي شادته يتخذ شكلاً عنيفاً رائعاً ينتهي بأن تتفصل بعض عناصر الطبقة الغالبة عنها لتتحد مع العناصر الشائرة أو العناصر التي تمثل المستقبل . وكما أن فريقاً من النبلاء انضم من قبل الى الرأسمالية في حروبها للملكية كذلك ينضم اليوم فريق من الرأسمالية الى صف الكتلة العاملة التي هي العنصر الثوري الوحيد دون غيرها من الطبقات

وقد حاولت جميع الطوائف الشائرة التي استأثرت بالسلطان والملك أن تؤيد سيادتها المنصوبة باخضاع المجتمع الى نظم تبتدعها لا كتساب الملك ، فلا يستطيع اخوان العمل أن يملكو شيئاً من قوى الانتاج العامة . ومن ثم كانت جميع النهضات التاريخية الى عصرنا نهضات الاقليات لمصلحة الاقليات . أما نهضة الكتلة العاملة فهي النهضة المختارة للسواد الاعظم ، ولمصلحة السواد الاعظم

« ان قوام حياة الرأسمالية وقوام سيادتها تكديس الثروة في ايد معينة ، وتسمية رأس المال . والاجور صنعة رأس المال ، وهي تتحدد بتزاحم العمال فيما بينهم . على أن تقدم الصناعة الذي تؤيده البورجوازي يعمل دون شعورها على توحيد كلمة العمال تحت لواء الثورة ، وعلى أن يحفر أمام قديمي البورجوازي ، وتحت البسيط الذي شادت فوقه نظم انتاجها وملكيها هاوية سحيقة رائحة

« ان الرأسمالية تعد الاولى بحفرون قبرها قبل كل شيء ، ولا مندوحة من إبادتها وظفر الكتلة العاملة ! »

٥ - وبعد ثما هي غاية الشيوعية ، او بعبارة اخرى ما هو برنامجها في الهدم وبرنامجها في البناء ؟ يجب ماركس عن ذلك في وضوح وجلاء :

« ان غرض الشيوعيين المباشر هو نفس الغرض الذي يرمي اليه كل طائفة عاملة ، وهو تنظيم صفوف العمال وسحق سيادة اصحاب الاموال ، والقبض على زمام السلطة السياسية

« وليس يميز الشيوعية الخاص الغاء الملكية الغاء عاماً مطلقاً ، ولكنه الغاء ملكية المولدين (البورجوا)

« ان الملكية الخاصة او الملكية البورجوازية الحديثة هي آخر وأدق مظهر لوسائل الانتاج والتملك المؤسس على نضال الطوائف واستغلال بعضها لبعض . وعلى ذلك ففي وسع الشيوعيين ان يخلصوا مبادئهم في تلك العبارة : الغاء الملكية الشخصية (الفردية) »

ثم يدفع ماركس اعتراضات المعارضين على النحو الآتي :

« ننعون علينا اننا تنادي بالغاء الملكية الشخصية التي هي ثمرة العمل الشاق ، والتي يزعمون أنها ركن كل حرية وكل نشاط ، وكل استقلال فردي

« الملكية الشخصية ثمرة عمل انسان ! فهل يريدون ملكية الممول الصغير ، او المزارع الصغير ؟ ان هذه ليس علينا الغاؤها وقد الغاها تقدم الصناعة أو كاد . أم يريدون التحدث عن الملكية الخاصة او الملكية البورجوازية الحديثة ؟

« هل يؤدي العمل المأجور الى حيازة الملكية بالنسبة للعامل ؟ كلا ، ولكنه ينتج رأس المال او بالحري ينتج الملك الذي يعمل على استغلال العمل المأجور والذي لا ينمو الا بانتاج عمل مأجور جديد يرمي الى استغلاله من جديد

« ان الممول لا يشغل مركزاً شخصياً فحسب ، بل يشغل كذلك مركزاً اجتماعياً

في نظم الانتاج . ورأس المال ثمرة لجهد مشترك ، ولا يمكن استثماره الا بالجهود المشتركة لكثير من أعضاء المجتمع ، بل يصح القول ايضاً بأنه يسخر جميع افراد الهيئة الاجتماعية

« فرأس المال اذاً ليس قوة شخصية ، بل هو قوة اجتماعية
« وعلى ذلك فاذا صار رأس المال ملكاً شائعاً لجميع افراد المجتمع فلا يقال ان الملكية الشخصية قد حولت الى ملكية اجتماعية ، اذ لم يتغير سوى صفة الملك الاجتماعية التي تفقد عندئذ صفتها كملكية للطوائف
« ولقد يروعك أنا نريد الغاء الملكية الشخصية . بيد أنها ملغاة في مجتمعك بالنسبة لتسعة أعشار البشر . ولا تتمتع بها انت الا لان تلك الاغلبية محرومة منها . فكيف تلومنا اذا اردنا ان نسحق نظاماً للملكية يختم تطبيقه حرمان الاغلبية الساحقة من جميع اصناف الملك ؟

« ان الشيوعية لا تسلب الفرد حق الفوز بنصيبه من الثمرات الاجتماعية ، ولا تقصد بالسحق سوى القوى التي تسترق العمل بموازرة وسائل الملكية
« يقولون ان الغاء الملكية الشخصية يفضي الى قتل النشاط فيسود الخمول العالم بأسره ، ولو كان ذلك حقاً لكان المجتمع الرأسمالي قد ساءه الخمول لان العاملين فيه لا يغمون ، ويعملون فيه من لا يعملون

« وبعد فانا نسعى الى محو الاسرة اذ علام تسند الاسرة الرأسمالية في عصرنا ؟ انها تستند الى الرأسمال ، الى الربح الشخصي . اما الاسرة كاملة فلا توجد في ظل الرأسمالية ، بل انك لتجد عوامل هذا الخو ظاهرة في القضاء على كل أثر للأسرة بالنسبة للعامل ، وفي البغاء والفجور العام

« فهل تمني علينا أنا نريد محو استغلال الآباء للأبناء ؟ انا نقر بذلك الجرم
« تقول انا نمزق اطهر العلائق وأبرها اذا ما استبدلنا التربية العائلية بالتربية الاجتماعية ، ولكن أليست تربيتك الشخصية تخضع لاحكام المجتمع ؟ أليست تخضع للظروف الاجتماعية التي تربي فيها أولادك بوساطة المجتمع وساطة مباشرة او غيرها ، بمحاولة المدارس او غيرها ؟ ان الشيوعيين لا يتدعون ذلك التدخل الاجتماعي في التربية ، ولكنهم يريدون فقط ان يغيروا من وجهته ، وأن يفتزعوا التربية من براثن الطبقة الحاكمة

« ان النظريات الرأسمالية بشأن الاسرة والتربية ، وبشأن تلك العلائق المقدسة

التي تربط الولد بأبويه تفقد عناصرها القلبية كما عصفت الصناعة الكبرى بعلائق الأسرة العاملة وصيرت من اولادها سلعاً تجارية وآلات صماء »

هذا هو برنامج الهدم للدعوة الشيوعية آثرنا ان نورد على لسان امام الدعوة من وثيقة تاريخية يعتبرها تلاميذ المدرسة المركبية مرجعهم الاخير في حسم كل جدل شيوعي ، وفي وضع البرامج والنظم الشيوعية ، وفي رأينا أن في وضوحه وجلالته ما يغني عن كل افاضة واستزادة

٦ - يدفع ماركس بعد ذلك عن الشيوعية تهمة كثيراً ما وجهت اليها ، وما زالت توجه اليها وهي كون الشيوعية تقرر شيوع النساء فيقول :

« ان المرأة في نظر الرأسمالي ليست الا آلة للاتاج ، وهو يريد أن يفهم من وجوب وضع وسائل الاتاج في الشيوع أن النساء بالطبع سيخضعن كذلك لانظمة الشيوع

» فلشد ما يضحكننا هذا بل لشد ما يدعوا الى السلوى حرص الرأسماليين على الفضيلة وخوفهم أن تنهار دولتها بسبب دعوة الشيوعيين المزعومة الى تقرير شيوع النساء بصفة رسمية . على أن الشيوعيين لبسوا في حاجة الى النداء بشيوع المرأة اذ هو أمر وجد تقريباً في جميع العصور

» لم يقنع الرأسماليون بالتصرف في عفاف نسوة العمال وبناتهم فوق ما أنشأوا من أنظمة البغاء الرسمي ، بل تراغم كذلك بأنسون لذة كبرى في تبادل الاقتئات على نساءهم

» وليس الزواج بين الرأسماليين في الواقع الا شيوعاً بين النساء المتزوجات . وأسوأ ما يرمي به الشيوعيون هو أنهم يريدون أن يحلوا محل شيوع النساء بأساليب خبيثة مستترة شيوعاً رسمياً صريحاً . هذا الى أن الغاء وسائل الاتاج الحالية سيفضي بلا ريب الى الغاء شيوع النساء الذي هو نتيجة لازمة له ، ويقضي على الفجور المستتر والبغاء الرسمي .

أما القول بأن الشيوعيين يقصدون الى الغاء الوطنية والجنسية فيجيب عنه ماركس بما يلي :

« ليس للعمال وطن ما ، ليس في الاستطاعة أن نهبهم ما ليس لهم . وما دام انه واجب على الكتلة العاملة في كل بلد من البلاد أن تسعى أولاً في انتزاع السلطة

السياسة وإخضاع الأمة لسلطانها فان في هذا معنى الوطنية بذاتها ولو انه ليس كذلك في عرف الرأسماليين

« ان الخصومات والاحقاد الوطنية بين مختلف الشعوب تذهب بالتدريج كلما ارتقت البورجوازي ، وتقدمت الحرية التجارية والاسواق الوطنية ، ونما التوفيق بين الانتاج الصناعي وظروف العيش المرتبطة به . ثم ان ظفر الكتلة العاملة سيؤدي الى سحقها بسرعة . والعنل المشترك بين الجماعات العاملة المختلفة على الاقل في الامم المتعدنة ، وسيلة من أهم الوسائل التي تؤدي الى تحرير هذه الجماعات

« إسحقوا استغلال الانسان للانسان ، فوصلوا الى سحق استغلال أمة لأمة ، واذا ما ذهب عداء الطبقات داخل الامم ، ذهب عداء أمة لأخرى »
وأخيراً يجيب ماركس عن التهم التي ترمى بها الشيوعية باسم الدين والفلسفة فيقول :

« هل من حاجة لان يفهم النابهون أن الآراء والمعتقدات والنظريات ، أو بعبارة أخرى أن ضمير الانسان يتغير لكل تغير يصيب علائقه الاجتماعية أو حياته الاجتماعية ؟

« وهل تاريخ التفكير الا أن الانتاج العقلي يتطور بتطور الانتاج المادي ؟ ان الافكار السائدة في عصر من العصور لم تكن سوى أفكار الطبقة السائدة
« إنا اذا تحدثنا عن الافكار التي تقلب مجتمعات بأسره فانا لا نذكر سوى أنه في مهاد المجتمع القديم تنشأ عناصر مجتمع جديد وان انحلال النظريات القديمة يتشئ مع انحلال العلائق الاجتماعية القديمة ، فالعالم القديم حينما صار الى الإضمحلال غلبت النصرانية على الاديان القديمة . وفي القرن الثامن عشر حينما غلبت النظريات الفلسفية على النصرانية أشهر المجتمع الاقطاعي آخر حرب له على البورجوازي التي كانت تنزع الى الثورة عندئذ ، ولم تفض نظريات الحرية الدينية وحرية الضمائر الا الى سيادة التنافس الحر في ميدان العلوم والمعارف

« سوف يقولون بلا ريب ان المبادئ الدينية والاخلاقية والفلسفية والسياسية والقضائية تتطور بتطور التاريخ ولكن الدين والاخلاق والفلسفة تحتفظ بثباتها دائماً أثناء ذلك التطور ، وأنه توجد فوق ذلك حقائق خالدة مثل الحرية والعدالة
هذهها تغش حجب الظل وفيه الاحجاءة ، والشمعة تهدم الحقائق الخالدة لانها تهدم

الدين والاخلاق بدلاً من تشييدها على دعائم جديدة ، وهذا مناقض لكل تطور تاريخي سابق

« فما قيمة هذا الاعتراض ؟ ليس تاريخ أي مجتمع سوى تطور نزاع الطبقات ، وهو نزاع كان يتخذ صوراً تختلف باختلاف العصور

» ولكن مهما كان من أمر الصور التي كان يتخذها هذا النزاع ، فإن استغلال جماعة من المجتمع لأخرى حقيقة لم يخل منها عصر من العصور البائدة ، فليس بغريب إذاً أن ضمير المجتمع في كل العصور كان يتخذ رغم كل خلاف ونزاع صوراً عامة معينة لا يمكن ازالتها إلا أن يزول نزاع الطبقات »

٧ - واليك أخيراً برنامج الشيوعية الانشائي ، أو بالحري وسائل التنفيذ التي ترى اتخاذها لقلب المجتمع الحالي الى مجتمع شيوعي

يقول ماركس ، أن أول خطوة في نشوب ثورة العمل هي تنظيم الكتلة العاملة ، وانزعاعها للسلطة ، وسيطرة الديمقراطية على السلطة العامة . ولا ريب أن ذلك لا يمكن تنفيذه في المبدأ دون انتهاك لحقوق الملك وعلائق الانتاج الرأسمالية أو بالحري دون الالتجاء الى وسائل اقتصادية تبدو أولاً ناقصة منحرفة ثم تتقدم أثناء التطور من تلقاء نفسها . ولا مندوحة من تطبيقها لقلب وسائل الانتاج رأساً على عقب

ولا ريب أيضاً أن تلك الوسائل تختلف باختلاف البلدان . على أن الوسائل الآتية يمكن تطبيقها بصفة عامة على البلاد التي سبقت غيرها في ميدان التقدم والحضارة ، وهي :

- (١) نزع الاملاك العقارية ، ومصادرة الإيرادات العقارية لصالح الدولة
- (٢) فرض ضرائب فادحة ، متدرجة في الضخامة
- (٣) إلغاء الوراثة
- (٤) مصادرة أملاك جميع المهاجرين والعصاة
- (٥) حصر الثقة المالية في الدولة بواسطة انشاء بنك أهلي ذي رأسمال أهلي له الاحتكار التام
- (٦) وضع جميع وسائل المواصلات والنقل في يد الدولة
- (٧) زيادة المصانع الوطنية وآلات الانتاج ، واستصلاح الاراضي الجديدة ، وتحسين المزرعة منها طبقاً لمشروع عام

- (٨) فرض العمل الاجباري على جميع الافراد، وتنظيم جيش صناعي وخصوصاً لاداء الزراعة
- (٩) وصل العمل الزراعي بالعمل الصناعي ، واتخاذ الوسائل لازالة الفروق بين الحقل والمدينة .
- (١٠) التعليم المجاني العام لجميع الاطفال ، والغاء عمل الصبية في المصانع ، ووصل التربية بالانتاج المادي ، وغير ذلك
- ثم يقول ماركس ، ومتى زال نزاع الطبقات أثناء التطور ، وحصر الانتاج كله في أيدي الافراد ، فقدت السلطة العامة صفتها السياسية . والقوة السياسية إنما هي في الحقيقة تسلط جماعة لاخطهاد أخرى ، فاذا انتظمت الكتلة العاملة أثناء صراعها للبورجوازي الى طائفة ، وانزعت السلطة بواسطة الثورة فانها ، وقد غدت صاحبة السيادة ، تحطم بالقوة علائق الانتاج القديمة ، وتقضي في نفس الوقت على ظروف الحياة الفياضة بنضال الطوائف وبالجملة فانها تقضي على الطوائف ، ومن ثم تهدم سلطانها كطائفة . وعندئذ ينهض مكان المجتمع الرأسمالي القديم بطوائفه ونضاله مجتمع شعاره أن حرية التقدم لكل فرد شرط لحرية تقدم الجميع
- ويختتم ماركس بيانه بما يأتي : « وعلى الجملة فان الشيوعيين يؤيدون في كل مكان كل ثورة على النظم الاجتماعية والسياسية الحاضرة ، ويضعون في تلك الثورات مسألة الملكية في الطليعة (باعتبار أنها عماد الثورة) (اسي) مهما كان من تقدم الوضع الذي اتخذت أو تأخره
- « ويسمل الشيوعيون أخيراً بالاتحاد والوافق مع كل الاحزاب الديمقراطية في جميع بلاد العالم
- « ولا يحاول الشيوعيون اخفاء مبادئهم وغاياتهم ، بل يجاهرون بمنتهى الصراحة أن غاياتهم لا يمكن تحقيقها دون قلب كل النظم الاجتماعية الحاضرة بطريق العنف والثورة . فويل للطبقات الحاكمة من فكرة الثورة الشيوعية ، فان العمال متى حطمت أصفادهم فلن تفوتهم بادرة من بوادر هذه الثورة ، ولا غرو فعليهم أن يغنموا طامساً بأسره !

« أيها العمال من أي البلاد اتحدوا ! »

٨ - وقد غدت الشيوعية منذ عهد ماركس رمزاً للثورة العالمية ، وانضوت تحت لوائها العناصر الخارجية والناقة في معظم الامم المتعدينة ، فالى اي مدى استطاعت

الشيوعية كدعوة هدامة ان تصدع من صروح النظم التي تقصدها بالهدم والمحو ؟
الواقع ان الشيوعية استطاعت ان تخطو الى الامام خطوات واسعة خصوصاً منذ خاتمة
الحرب الكبرى ، وأن تستغل لفائدها وقوتها كل الازمات الاقتصادية والاجتماعية
وكل ضروب البؤس والفاقة التي عصفت بالمجتمعات الاوربية في الاعوام الاخيرة .
يدان اكبر ظفر نالته الشيوعية بل اعظم فتح في التاريخ فازت به حركة ثورية هدامة
هو سحق الشيوعية لدولة القياصرة ، وإقامتها هناك فوق انقاض النظم القديمة مجتمعاً
جديداً يستند في جوهره الى المبادئ الشيوعية ، وهو ما سنغنى به في كلامنا عن
البلشفية . هذا الى ان الشيوعية أصبحت عاملاً خطيراً الأثر في السياسة الداخلية
لمعظم الدول الكبرى ، وفي السياسة الدولية عامة . ففي بعض الدول الكبرى مثل
فرنسا والمانيا نرى الشيوعية قد انتظمت الى احزاب قوية منظمة ، وبراها ماثلة في
الهيئات النيابية التي تسيطر على مقاليد السياسة والحكم في تلك الدول ، تؤثر آثراً
واضحاً في تشريع هذه الهيئات وتصرفاتها . وكثيراً ما نشهد النضال يستمر بين
الاحزاب الشيوعية والاحزاب الرجعية الخصيمة لها داخل الهيئات النيابية وخارجها
خصوصاً اذا تعلق الامر بما يحس موقف العمال أو حقوقهم ، او بالمسائل الخارجية
التي يرى ان يشربها الشيوعيون اذاعة لدعوتهم ، كما حدث اخيراً (في صيف
سنة ١٩٢٥) في مجلس النواب الفرنسي من وقفة الشيوعيين الفرنسيين في وجه
الحكومة الفرنسية لاشهار الحرب على الشعب الريفي ، ومعارضتهم في اقرار الاعتمادات
المالية التي طلبتها الحكومة للمضي في الحرب المراكشية ، وتشهيرهم بجرائم العسكريين
الفرنسيين في مراكش وأمثال ذلك من المصادمات العنيفة التي كثيراً ما تؤثر في موقف
الحكومات وتصرفاتها الداخلية والخارجية

هذا وقد أصبح انضواء الاحزاب الشيوعية في مختلف الامم تحت لواء الدولية
الشيوعية في موسكو ، على جهود الدعوة الشيوعية قوة عملية ، فوحدت هذه الجهود
اليوم وأصبح نفوذ الدولية الشيوعية يمتد بواسطة الاحزاب الشيوعية الى اقاصي
العالم ، بل ان أمة من الامم المتعدنة لا تكاد تخلو من اثر لهذه الجهود ، وليس من
حكومة منظمة الا وتشعر بأصبع الدولية يحك في الخفاء بعض مشاريع التقويض
والهدم لنظمها ، ويندس من وراء ستار الى اعماق شؤونها . وسترى في ما نكتبه عن
هذه الدولية الشيوعية مدى سيطرتها على شؤون روسيا ، وقبضها على زمام الدعوات
الثورية المختلفة ، ومدى نشاطها في بث دعوة الثورة والهدم في جميع اقاصي العالم

الفصل الثالث

البلشفية — الدولية الشيوعية

(١) أصل التسمية . البلشفيكي والمنشفيكي . انتظام الحركة العاملة الروسية . مؤتمرستوكهام . مطاردة القيصرية لشوار . البلاشفة والحرب (٢) الحرب تمهد لوثوب البلشفية . العوامل التي أدت الى انفجار البلشفية . ثورة مارس سنة ١٩١٧ . عودة الزعماء البلاشفة الى روسيا . هل حرض البلاشفة من قبل ألمانيا . انتشار الثورة . فوز البلاشفة (٣) البرنامج البلشفي . تنفيذ المبادئ الشيوعية . عقد الصلح وانشاء الجيش الاحمر . الحوار ج على الثورة (٤) لينين . نشأته وحياته . انشاء جمهورية السوفيت . نشاطه وبراعته الخارقة . عدول الدول الغربية عن عدائها الظاهر . أقوال لويد جورج . مكسيم جوركي يصف لينين . وفاة لينين (٥) النظم الخالية في روسيا . عنف الوثبة الشيوعية وهبوطها . توالي المصائب على روسيا . تعديل التجربة الشيوعية . عود الى معاملة الرأسمالية . روسيا تطبق نوعاً من اشتراكية الدولة . اخلاف على السياسة الجديدة . روسيا مبعث الروح الثورية (٦) الدولية الشيوعية . نشأتها وتطورها . لينين مؤسس الدولية الثالثة (٧) ماذا تعمل الدولية . الدولية جمعية سرية . غايتها الهدامة . مدى فوزها ونفوذها (٨) الدولية تقود الثورة في أنحاء العالم . الدولية وأمم المشرق . أقوال تسينوفيف رئيس الدولية . أقوال تششرين . الدولية تعمل في الظلام

١- نريد أن نلفت نظر القاريء بادیء بدء الى ان البلشفية ليست دعوة ثورية مستقلة بذاتها أو قائمة على مبادئ خاصة بها ، ولكنها مظهر معين فقط من مظاهر الدعوات الهدامة العلنية ، وزعة من نزعاتها ، ففيها تمثل النهلزم ، والاشتراكية الثورية والشيوعية وكل ما تحتويه من مبادئ تقويض وهدم ، وهي صورة من صور الثورة العالمية ، أما تسميتها بالبلشفية فترجع الى حادث تاريخي في سيرة الحركة الاشتراكية الروسية ، وذلك أن مؤتمراً من حزب العمال الاشتراكي الروسي عقد في لندرة في صيف سنة ١٩٠٣ ، ونوقشت فيه مبادئ الحزب فاقترح واحد من أعلام أعضائه وهو مارتوف تعريفاً للعضو أنه هو الذي يقر برنامج الحزب ، ويساعده بماله ، ويشترك دائماً في اعماله تحت اشراف لجنة من لجانته . وكان لينين من شهود هذا المؤتمر ومن اقطاب هذا الحزب فاقترح تعديلاً لتعريف مارتوف ان العضو فضلاً عن اقرار برنامج الحزب ومساعدته بالمال يجب أن يقوم بدور فعلي في احدى جماعاته فوافقت على هذا التعديل أغلبية من ثلاثة ، وأطلق على هذه الأغلبية كلمة « البلشفيكي » (بالروسية الاغلبية) ، وأطلق على الاقلية « المنشفيكي » (الاقلية)

هكذا كان مولد الكلمة التي طبقت شهرتها انحاء العالم في الاعوام الاخيرة ، وقد غدا اولئك البلاشفة (البلشفيكي) الذين التفوا حول اثنين قادة الثورة الروسية الاخيرة ، وعرفت مبادئهم بالبلشفية ، على انها ليست سوى الشيوعية او الاشتراكية المركبة

وقد رأينا ان النهلزم كانت مهاداً للحركات الثورية الروسية ، وفاتحة لاطوار الثورة الاشتراكية . على ان نشاط الثورة الاشتراكية وتقدمها الحقيقي يبدأ منذ انحلال جماعات النهليست في اواخر القرن التاسع عشر ، فعندئذ نظمت احزاب العمال الروسية ، وبدأت دعوتها وجهودها بنشاط مضاعف ، وبرزت الى قيادتها الشيبة الروسية المتصورة ، ولم تمض على عقد مؤتمر لندرة المذكور اعوام ثلاثة حتى استطاع الزعماء الثوريون ان يضرخوا نار ثورة منظمة لقلب الحكومة القيصرية بيد انها اخفقت . فعقد زعماء الثورة في العام التالي مؤتمراً هاماً في ستوكهلم سعى الى توحيد جهود الجماعات الثورية ووضع برنامج عام موحد تهدي جميعها بمبادئه ، وبحث مسألة الارض في روسيا بحثاً مستفيضاً ، وقرر ان تجتمع كل القوات الثورية الروسية بدأ واحدة على القيصر ، وأن تضرم نار ثورة جديدة . وفي مايو سنة ١٩٠٧ عقد الزعماء مؤتمراً ثالثاً في لوندرة شهدته اكثر من ثلثمائة مندوب ، وصادق فيه على جميع قرارات مؤتمر ستوكهلم

على ان القيصرية لم تكن غافلة عن حركات الثوار الروس ، فنشطت كذلك الى مطاردة الاحزاب والجمعيات الثورية في جميع انحاء روسيا حتى اضطر الزعماء الى نقل مركز الحركة الى الخارج ، واختاروا مدينة جنيف مستقراً لجهودهم ، وهاجر من روسيا عدد جهم من الطلبة والثوار فراراً من نقمة الحكومة واتقاء لغدرها ، وتفرقوا في مختلف العواصم الاوربية وأخذوا يبشون الدعوة ضد القيصرية . وفي جميع هذه الاطوار كان التفريق بين البلشفيكي والمنشفيكي يزداد وضوحاً وقوة ، وان كان الفريقان لم ينقطعوا عن العمل لغاية واحدة ، غير ان نشوب الحرب كان نذيراً باشتداد الخلاف بينهما . ذلك أن المنشفيكي كانوا يرون ان الحرب ظاهرة محتومة وقد وقعت فلا سبيل الى وقفها ، اما البلاشفة (البلشفيكي) فكانوا يرون ان الحرب انما اثارها اصحاب الاموال في جميع الدول سعياً الى انتزاع مغنم وأراضي جديدة فهي حرب رأسمالية لا بد من وقفها

٢ - وكان للبلاشفة منذ نشوب الحرب برنامج عملي وغايات واضحة ، وقد اشار اليها كاتب عن البلشفية بقوله :

« كان البلاشفة يرون أن بث الاخاء بين اخوان العمل من جميع الامم في أعماق الحنادق وسيلة من أنفذ وسائل السلام وقد استخدموا هذه الوسيلة الى أقصاها ، وهي نفس الوسيلة التي أضرمت نار الحركة الثورية في النمسا والمانيا لسحق ما دبره الرأسماليون فيهما للوثوب لاخر رءس بلندن الهادئة . ويقول البلاشفة ان هذا الوثوب انما هو أحد الجهود العصبية الابخيرة الرأسمالية »

وعلى أي حال فقد مهدت الحرب الى وثوب البلشفية وظفرها النهائي . ومن الصعب حتى الآن أن نحدد العوامل والظروف التي استطاع البلاشفة أن يستغلوها للقيام بثورتهم وخلق روسيا السوفيتية . بيد أنه يمكن القول بأن البأساء التي جرتها الحرب على الشعب الروسي ، وسيخطه من جراء ذلك على الزعماء والقادة ، واعتقاده أن المسئولية في كل ما نزل به من هزائم ومصائب ترجع الى القيصرية وأعوانها ، كانت من أهم العوامل التي استطاع الزعماء الثوريون أن يعتمدوا عليها في اضرام نار الحركة الثورية التي انتهت أولا بعزل القيصر واسقاط حكومته وتأليف حكومة مؤقتة في مارس سنة ١٩١٧ ثم بسقوط هذه الحكومة المؤقتة ، وقيام الحكومة البلشفية في اكتوبر سنة ١٩١٧

على أن الثورة الاولى اي ثورة مارس سنة ١٩١٧ لم تكن ثورة بلشفية لا في أصلها ولا تطورها بل كانت ثورة ديموقراطية يقصد بها قبل كل شيء الى التخلص من النفوذ السري الألماني الذي كان يهيمن على حكومة القيصر اذ ذاك ويشل من حركات الجيوش الروسية ، فلما سقطت حكومة القيصر وتألفت الحكومة المؤقتة برئاسة كرنسكي عاد الزعماء البلاشفة من منفاهم الى روسيا . على أن القيصرية ذاتها لم تكن قد سحقت بعد وكان على الشعب أن يسحقها بنفسه ، ولهذا الغاية عاد البلاشفة معتمدين أن ينتهزوا فرصة الثورة العامة ليخرجوا دعوتهم ومبادئهم من حين القول الى حين الفعل وليطبقوا النظم التي لبثوا يعملون لبثها مدى الحياة

وكان أشهر أولئك الزعماء البلاشفة لينين (واسمه فلاديميرالتش أوليانوف) الذي غدا أول رئيس للجمهورية السوفيت ، وتروتسكي (أو براونشتين) الذي غدا روح الجيش الاحمر ، وتسينوفيف (او ابفلباوم) الذي غدا رئيس الدولة الشيوعية . وقد أذيعت عن مقدمهم الى روسيا في ذلك الظرف روايات كثيرة خصوصاً لانهم

قدموا من طريق ألمانيا في قطار حربي ، فقيل ان الحكومة القيصرية الألمانية هي التي استقدمتهم من المنفى وأمدتهم بالمال والتعليمات لبث الثورة واحداث الاضطراب في صفوف الجيش الروسي تسهلاً لهزيمته او بعبارة اخرى أنهم كانوا خونة مأجورين . على أن فيما تلا من الحوادث ما يدحض من مثل هذا الزعم . صحيح ان البلاشفة جازوا ألمانيا الى روسيا في قطار حربي ألماني . ولكن ذلك لأنه لم يك ثمة طريق اخرى توصلهم الى روسيا ، وقد فعلت الحكومة الألمانية ذلك بعد مفاوضات جرت بينها وبين مكتب العمل الدولي في جنيف حيث طلب اليها أن تسمح بمرور الزعماء البلاشفة في ارضها ليصلوا الى وطنهم ، وكذلك لعلمها ان البلاشفة يعارضون في استمرار الحرب ، فاذا استطاعوا ان يبشوا دعوتهم في روسيا فقد تصل الى عقد صلح منفرد مع روسيا يمكنها من الضغط على الحلفاء في الميادين الاخرى . هذا الى ان نفس الظروف التي كانت سائدة وقتئذ في روسيا كانت مما يقوي هذا الامل ، فقد كانت حكومة كرنسكي ضعيفة متخاذلة ، وكان اليأس قد تسرب الى الطبقات المتورة ، ودب الاختلال الى صفوف الجيش ، وعصف الجوع بجميع الطبقات وهبت على الشعب الروسي ريح عاتية من الشقاء والبؤس .

والحقيقة ان الثورة التي أودت بحكومة القيصر وانتهت بقيام الحكومة المؤقتة برياسة كرنسكي كانت احتجاجاً على الحرب ، وكان قوامها العناصر الاشتراكية والديموقراطية ، على ان هذه الحكومة المؤقتة لم تستطع لضعفها ان تحقق شيئاً من الغايات الثورية التي نادى بها عند تولي الحكم ، ولم تعدل سياسة الحرب ولا غاياتها تعديلاً يتفق مع المبادئ الديموقراطية التي نادى بها الثورة ، بل كان من ضعفها ان وافقت اركان حرب الحلفاء على القيام بهجوم يولييه سنة ١٩١٧ وهو الذي انتهى بشبكة تاربنول التي مزقت الجيوش الروسية وقتلت قواها المعنوية . هذا الى أنها لم تفعل شيئاً لتحرير الصناعة الروسية والكتلة العاملة الروسية من عسف أصحاب الاموال والصناعات ، ولم تحدث تغييرات اقتصادية تخفف من ويل الفلاحين والطبقات العاملة . فلما يئس الفلاحون من صدور القوانين الزراعية الجديدة وتحقيق الوعود التي قطعتها الحكومة على نفسها ناروا في أنحاء كثيرة من الاقاليم واستولوا بأنفسهم على الضياع الشاسعة وطردها وقتلوا أصحابها ، فبعث اليهم كرنسكي بشرازم من قوى الحكومة تمنع فيهم تشريداً وقتلاً .

وهكذا خابت كل الآمال التي عقدت على قيام حكومة الثورة ، فلم يعقد الصلح ،

ولم يعمل شيء لتخفيف الآلام والبأساء التي يعاني ويلها الشعب . وهنا تعالت الصيحات من كل ناحية « ان الثورة محتضرة ! ، لقد ماتت الثورة ! » وبرز البلاشفة الى الطليعة ، واشتدت الدعوة في الجيش على الحكومة المؤقتة ، وتفاقم الاضطراب في كل ناحية ، وأرعد شبح الجوع وأبرق ، فلم يمض صيف سنة ١٩١٧ حتى كانت الدعوة البلشفية قد اجتاحت صفوف الجيش ، وذاعت في معظم المدن والضياح ، وانهارت صروح حكومة كرنسكي ونظمها في اكتوبر سنة ١٩١٧ ، وقبض البلاشفة على مقاييد الحكم في أوائل شهر نوفمبر وأخذوا في تشييد الجمهورية الاشتراكية التي يعيش الشعب الروسي في ظلها حتى اليوم

٣ - كان للبلاشفة ، وهم دعاة الشيوعية كما رأيت ، برنامج ضخم . كان عليهم أن يخرجوا من تلك الكتلة البشرية الهائلة - روسيا التي اضناها عسف القياصرة وحكوماتهم مدي القرون ، مجتمعاً جديداً في عقلية يدين بمبادئ جديدة او بعبارة أخرى كان عليهم أن يخرجوا من الشعب الروسي مجتمعاً شيوعياً منظماً هو الاول من نوعه في تاريخ المدينة

وقد نشط البلاشفة الى اجراء هذه التجربة الهائلة بعزم ، فبدأوا عملهم غداة ولايتهم للحكم باصدار قانون هو حجر الزاوية في صرح المبادئ الشيوعية، وهو القاضي « بالغاء الملكية الفردية والضياع الخاصة » ، ونقل ملكية جميع الضياح والاراضي الخاصة والامبراطورية والكنسية بما عليها من عقار وماشية ، وجميع الابنية العامة والخاصة الى اللجان والمجالس المحلية (السوفيت) ، ونزعها جميعاً بلا تعويض لجانب الامة ، ولمصلحة الفلاحين الذين يتولون زرعها واستثمارها اما افراداً او جماعات طبقاً لما تملي به ظروف القرية أو الضيعة وطبقاً لما يقرره المجلس المحلي (السوفيت) ، ونزع المصانع من ايدي اصحابها وتسليمها للعمال لادارتها واستثمارها ، ووضعها تحت ادارة مجلس اقتصادي أعلى ، وتقرير يوم الثمان ساعات ، وتقرير الاجور طبقاً لارتفاع نسبة من الثمرات ، وتأمين العمال ضد المرض والحوادث ، ونقل جميع البنوك الى ملكية الدولة ، وفصل الكنيسة عن الدولة فصلاً تاماً ، وتعميم التعليم المجاني ، والغاء الوراثة ، والغاء جميع الفروق الاجتماعية بين الطبقات ، وجميع الالقاب والرتب المدنية ، الى غير ذلك من القوانين التي تستند جميعها الى الروح الشيوعي وإلى تعاليم ماركس

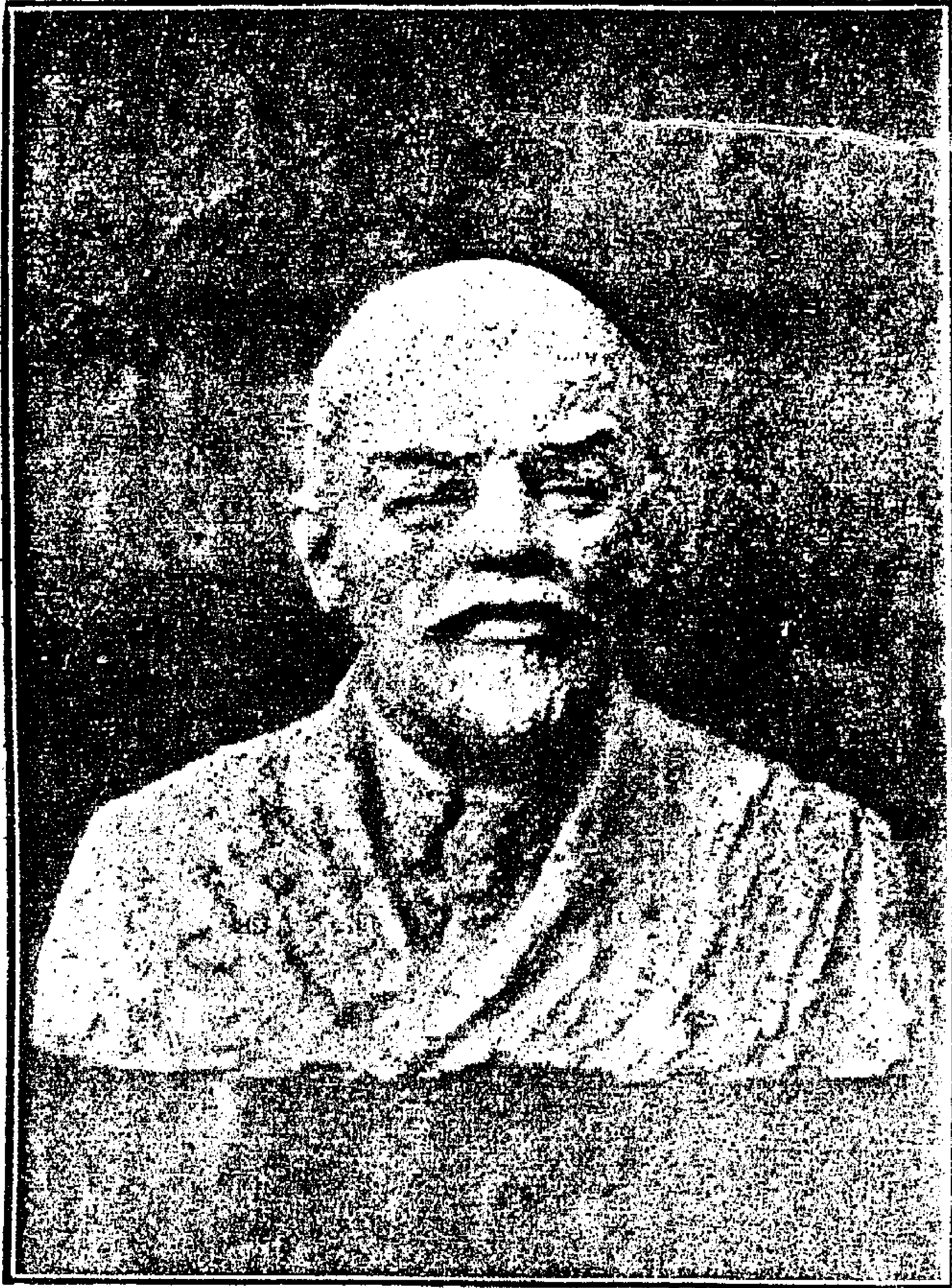
وسر نجاح البلاشفة في اقامة النظم الجديدة على دعائم متينة يرجع بالاختصاص الى اسراعهم في عقد معاهدة برست ليتوفسك مع المانيا وانقاذ روسيا بذلك من شبح

المجاعة الداهية والانحلال الاخير ، والى تأليف جيش لحماية الثورة فوق أنقاض الجيش القيصري ، وهو الجيش الاحمر الذي كان لتروتسكي أكبر فضل في انشائه وتنظيمه ، والذي يعتبر بحق ساجاً منيعاً للثورة ودعامة أولية لصروح البلشفية . هذا الجيش الاحمر هو الذي سحق الخارجين على الثورة بادية بدء ، ومزق جيوش المارقين والمأجورين الذين دفعتهم الدول الغربية للقضاء على الجمهورية الوليدة قبل ان يشتد ساعدها - أولئك امثال كولتشاك ودينكين ويودنتش وفرايجل الذين حاولوا بمؤازرة الحلفاء وأموالهم وذخائرهم ان يسحقوا الثورة الروسية ، وأن يهدموا صرح البلشفية في مهاده ، فحققتهم جيوش الثورة وأبادت فلولهم ، وخابت آمال الحلفاء وأعداء الاشتراكية ، وسما شأن البلشفية واشتد ساعدها ، وقامت صروحها شامخة الذرى فوق دعائم ما زالت الى اليوم ثابتة وطيدة

٤ - لا يسمح لنا المقام بالافاضة في الطرق والاساليب التي سار عليها البلاشفة في تطبيق التجربة الشيوعية ، فلكل مناهج واجراءات ادارية كانت وما زال تتغير وتتطور غير اننا نرى من واجبنا أن نقول كلمة موجزة عن الرجل الذي استطاع بعزمه الفياض وذكائه الخارق أن يجعل من مثل ماركس حقيقة واقعة ، وأن يقيم بمؤازرة زملائه الاعلام أول جمهورية اشتراكية في التاريخ

ذلك الرجل هو لينين ، أعظم تلاميذ المدرسة الماركسية ، وأعظم دعاة الثورة العالمية ، ومنشئ الدولة الشيوعية الثالثة ، وأول رئيس لجمهورية روسيا الاشتراكية وُلد لينين في سميرسك من أعمال الفولجا في ابريل سنة ١٨٧٠ ، وتلقى علومه في جامعة قازان ودرس القانون ونال اجازته فكان له أن يجني ثمار العمل الفني والمهن الحرة وأن ينعم بحياة الترف والرفاهة . على انه نبذ الحياة الهادئة الناعمة ليخوض غمار الحركة العاملة ، وأسس مع نفر من صحبه حزب العمال الاشتراكي الروسي سنة ١٨٩٧ ، ولكن سرعان ما أصابه ما كتب لكل عامل في حركة التحرير الروسية ، اذ قبض عليه وزج الى ظلمات سيبيريا . فلما قضى مدة العقوبة غادر روسيا وبحول خيئاً في لندره وميونخ وجنيف . واستقر في جنيف منذ سنة ١٩٠١ وأسس هنالك عيقتين الاسكرا (الشعلة) وتساريا (الفجر) ، واثبت يعمل بقلمه ولسانه لنصرة حركة التحرير الروسية مع رفاق غدوا من اعلام الثورة فيما بعد منهم تروتسكي وتسينوفيف . وفي سنة ١٩٠٥ عاد الى روسيا حيث خاض غمار الثورة الاشتراكية التي اضطرمت على اثر هزيمة البابين لروسيا ، وأصدر في بتوجراد (لنجراد) أول

صحيفة اشتراكية علنية ، ولكن سرعان ما أخذت الثورة ، ونشطت القيصريّة الى
مطاردة مضميها ، ففر لين الى فنلنده ، ثم غادرها حذراً من عيون القيصري الى



لين

سويسره . ثم تجول حيناً في غاليسيا. ولما نشبت الحرب الكبرى كان مقيماً في سويسره
فنشط مع رفاقه في المنفى الى الدعوة ضد الحرب واستغلال كل مصائبها ونكباتها
لايقاظ الحركة الثورية التي كادت ان تجمد جذوتها أمام الفكرة الوطنية التي طغت في

بدء الحزب على كل دعوة ثورية، وصدعت من صفوف الاشتراكية، وإصابتها بضربة شديدة . وكان هذا الرجل ، ذو الفكر الثاقب ، والنظر البعيد يكاد يستشف من دخان المدافع ، والنحام الصفوف ، مصائر وطنه روسيا التي كانت تتلقى أشد ضربات العدو ، فيرى نجم القيصرية يتضاءل ، ومصائرهما في كفة الميزان ، ويرى المستقبل يذر بخلق روسيا جديدة تنهار فيها صروح من الطغيان ليقوم فوق أنقاضها مجتمع جديد قد تظفر الثورة بأن يحقق مثلها فيه

وهكذا لبث لنين ورفاقه البلاشفة يرقبون تطور الحوادث في منقاهم حتى أذنت الساعة بانحلال القيصرية وسقوط حكومتها في بروجراد على يد الاشتراكيين الوطنيين والبورجوازي الصغيرة ، وقيام الحكومة المؤقتة في مارس سنة ١٩١٧ . عندئذ عاد لنين وصحبه الى روسيا كما قدمنا ، وبنوا دعوتهم في الجيش والضياع ، وسحقوا بدورهم حكومة البورجوازي الصغيرة ، وأقاموا حكومة الثورة ، ونادوا بإعلان جمهورية السوفيت الاشتراكية

وهنا ظهرت مواهب هذا الرجل العبقري رائعة خارقة ، فقد استطاع في غمار هائلة من الصعاب والخطوب أن يسير دفقة المجتمع الجديد ، الفذ في نظمه وغاياته ، بمهارة مدهشة ، واستطاع أن يرعى الثورة الفتية ، وأن يحيطها بسياج منيع من الحماية المادية والمعنوية ، فلم يمض عام حتى كانت الجمهورية الجديدة قد جازت أشواطاً كبيرة في سبيل النظام والاستقرار وكان الجيش الأحمر الناشئ ، على أهبة لان يلتقي أعداء الثورة في ميدان القتال . وكانت الدول الغربية ترقب تطور الثورة باهتمام ، فلما شاهدت عموها وتقدمها بتلك السرعة الفادحة خشيت أن يمتد لحيها الى ما وراء روسيا من الشرق او الغرب او الجنوب ، فجردت لسحقها الحملات المتوالية ، وجهزت الخارجين والطامعين بالاموال والذخائر ، وبعثت الى قلب روسيا بجيوش كولتشاك ودينكين وبودنتش وفرانجل . فلقيت جميعاً حثفها على يد الجيش الأحمر ، ولجأت الدول الغربية وخصوم الثورة الى سلاح الدعوة أيضاً فأشهبوا على البلشفية وزعمائها حملات هائلة وأذاعوا عن مبادئها تهماً رائعة ، ومع ذلك فإن معاقل البلشفية نجت من عدوانهم ، وقوي مركز الحكومة الاشتراكية ، وسارت الى تذليل مصاعبها بقدرة ثابتة ، فاضطرت الدول الغربية أن تغير سياستها ، وان تكف عن عدوانها العلني ، وان تسعى الى مسالمة روسيا ظاهراً صوناً لمصالحها الاقتصادية ، وكانت إنجلترا أول من آمن بمنانة روسيا الجديدة وصولتها فكانت أول من مد يد التفاف

والمواربة لمصاحفة لينين وجمهورية ووقف المستر لويد جورج رئيس حكومتها يومئذ يدافع عن الاتفاق الإنجليزي الروسي في مجلس النواب في مارس سنة ١٩٢١ بقوله: « ان حكومة السوفييت تقبض على زمام الحكم في ارجاء روسيا العظيمة بقدر ما تستطيع أن تفعله أية حكومة أخرى في الظروف الحاضرة ، ولا أستطيع الجزم بما اذا كان النظام الحاضر (البلشفية) سيعمر طويلا او يضمحل فان كل تكهن بذلك قد خيبته الحوادث »

وقد برهن لينين منذ الساعة الاولى على انه رجل العقيدة الذي لا ينزل عن عقيدته ، ورجل المبدأ الذي يتفانى في تطبيقه فلم يقبل مساومة في العدول عن تأييد الثورة داخل روسيا وبثها في أركان العالم الخارجي ، وكانت هذه عقبة كئود في سبيل اتفاق روسيا مع الدول الرأسمالية وتنظيم شؤونها التجارية والاقتصادية، على ان تتابع الحوادث ، وثبات الجمهورية الجديدة واشتداد ساعدها لم تلبث أن حملت باقي الدول الغربية على اقتفاء أثر إنجلترا ومفاوضة روسيا حتى غدت جمهورية السوفييت الآن معترفاً بها من جميع الدول الغربية واستؤنفت بينهما جميع العلائق السياسية والاقتصادية ، وان كانت الحرب الخفية بينهما لم تقطع لحظة كما سئرى

كان لينين روح الجمهورية الجديدة ، رأسها المفكر ، ومعقلها المنيع ، وكان أيضاً روح الثورة داخل روسيا وخارجها ، واليك ما وصفه به مواطنه الفيلسوف مكسيم جوركي شيخ أبطال الادب الروسي اليوم : « ان الدور الذي قام به لينين كمصلح روسيا الاجتماعي يتضاءل أمام عظمتة كمجاهد في بث الثورة العالمية ، فهو ليس فقط بالرجل الذي اصطفاه التاريخ لتحقيق تلك الغاية الهائلة ، وهي أن يسبر غور هذه السكتة البشرية الرائعة المحتاة الواهية التي تسمى روسيا وان ينفذ الى صميم نظمها ، بل ان ارادته فوق ذلك مورد لا ينضب ، وضرباتة القوية تهز أسس الدول الرأسمالية الغربية ذات الابنية الشائخة الى أعماقها ، وتصدع من بنيان تلك الامبراطوريات الشائخة التي قامت بالشرق على أسس الاستبداد والغصب »

وهكذا لبث لينين يعمل لتعزيز أركان الجمهورية الجديدة بكل ما أوتي من ذكاء وعزم حتى توفي في يناير سنة ١٩٢٤ ، وكانت وفاته ضربة مؤلمة للثورة الفتية يخشى أن تودي بحياتها في المهد ، ولكن الثورة الفت في خلفاء لينين أمثال ريكوف، وروتسكي وكامينيف وستالين وتسينوفيف وبوخارين وتشتشيرين دعام راسخة تستطيع أن تركن إليها في سلام وأمن

هـ - والآن فالأمم آلت التجربة البلشفية ، وما هي حقيقة النظم التي تعيش روسيا في ظلها اليوم ؟ لقد رأيت أن البلاشفة بدأوا بتطبيق المبادئ الشيوعية الخاصة وشادوا مجتمعاً جديداً يقوم في جوهره على التعاليم المركسية . وقد نهض هذا المجتمع الفذ في روحه وغايته في غمر من الصعاب الفادحة ، ولبت أقطابه مجاهدون في تأييده وحمايته بكل ما استطاعوا من ضروب التعهد والرعاية . ولكن الوثبة كانت هائلة ، وكانت الظروف التي اقترنت بها غاية في الارهاق والشدة ، وكانت تركة الحرب طافحة بصنوف المصائب والبأساء ، وكانت الطبيعة فوق ذلك قاسية ضئنة حيث نكبت بالشرق والجذب أخصب وديان روسيا الشاسعة التي كانت تفيض عليها بوافر قمحها حتى ألقت الحكومة الفتية نفسها لاعوامها الاول وجهاً لوجه أمام شبح الجوع الهائل ، كل ذلك والدول الغربية تسلط حملاتها على روسيا من كل صوب ، وتمعن في حصر شواطئها وحدودها وقطع مواصلاتها مع الخارج حتى تصبح أكثر تعرضاً لمخاطر الجوع وحتى تضمحل الثورة وتنهار صروح البلشفية

ومع ذلك فقد ناضلت روسيا الحمراء ، واحتملت كل مصائبها بشجاعة وجلد ، وخرجت ظافرة من تلك المعركة الهائلة . على أن لينين وصحبه من أقطاب الثورة رأوا أن لا نهوض لروسيا من الوجهة الاقتصادية وأن لا حياة لصناعتها وزراعتها مع العزلة والتجرد من الوسائل المادية وآلات الانتاج ، بل أن لا حياة للثورة ذاتها الا بالتعاش الشؤون الاقتصادية وضمان قوت الشعب وحاجاته الضرورية ، وان الاستمرار في تطبيق التجربة الشيوعية بصورتها المتطرفة في تلك الظروف خطر على الانتاج الزراعي والصناعي . لذلك قرروا تعديل النظم الجديدة ، والوقوف في تطبيق القواعد الشيوعية عند مرحلة معينة ، وبدأت هذه السياسة الجديدة في حياة لينين ذاته ، وكان تطبيقها مشجعاً لكثير من أصحاب الاموال الاجانب على وضع أموالهم في مشاريع الانتاج الروسية ، والدول الغربية على استئناف علائقها الاقتصادية مع روسيا . ثم ان خلفاء لينين دفعوا هذه السياسة التي تسميها موسكو بالسياسة الاقتصادية الجديدة الى حدود بعيدة كادت في الواقع تجعل من النظم الشيوعية شعباً ليس غير ، ذلك ان حكومة السوفييت قد أعادت نظام الملكية الفردية بصور مخففة وقيود معينة بالنسبة للأراضي والابنية ولم تحتفظ من المرافق العامة للملكية الدولة الا بالمشاريع والاعيان الكبيرة مثل المناجم والغابات والمصانع وبعض الضياع الشاسعة التي تستغلها الدولة لحسابها ، وأجازت الميراث بقيود عديدة ايضاً ، وأجازت التجارة الشخصية الى نسب

ومقادير معينة ، ومنحت كثيراً من الامتيازات للشركات الاجنبية والممولين الاجانب باستثمار مشاريع وأراضي روسية وغير ذلك مما يتنافى مع المبادئ الشيوعية الخالصة . والحقيقة أن روسيا السوفيتية لا تحتفظ اليوم من النظم الشيوعية الا بقسط ضئيل هو أشبه باشتراكية الدولة منه بالشيوعية الخالصة . يد أن هذه السياسة الاقتصادية الجديدة ليست في نظر مؤيديها من اقطاب الشيوعية ودعاة الثورة الا ضرورة مؤقتة ، وخطوة لازمة لحماية الثورة في أعوامها الاول ، فإذا بلغت الثورة أشدها استطاعوا تنفيذ البرنامج الشيوعي الى أقصاه . ومع ان هذه السياسة افضت الى تحسين شؤون روسيا الاقتصادية الى حد كبير وكانت عاملاً في انهاض صناعتها وزراعتها ، فأهانتلى معارضة كبيرة من الدعاة المتطرفين مثل تسينوفيف رئيس الدولية الشيوعية ، والفيلسوف بوخارين وغيرهما ممن يشفقون على مصير الثورة من هذا التقهقر والرجوع الى النظم القديمة ، ويعتبرون المضي في هذه السياسة خيانة لقضية العمل

ومهما يكن مدى تطبيق النظم الشيوعية في روسيا السوفيتية في الآونة الحاضرة ، ومهما تكن مناقضة سياستها الاقتصادية الجديدة للتعالم المركبة الخالصة ، فان هناك حقيقة ثابتة تجثم وراء كل سياسة روسية في الداخل او الخارج هي أن أقطاب الثورة والهدم الذين يقبضون الآن على مصائر روسيا يعملون على بث الروح الثورية في جميع أركان العالم المتمددين بكل ما أوتوا من قوة وموارد ، ولا يغفلون أية فرصة او مجمعون عن أية تضحية في سبيل تحقيق مثلهم الاعلى : ثورة العمل العامة او الثورة العالمية

هذه الجهود الهدامة التي يبذلها دعاة الثورة تنتظم كلها تحت لواء هيئة ثورية هائلة ، لعلها اعظم أداة هدامة عرفها التاريخ : تلك هي الدولية الشيوعية الثالثة

الدولية الشيوعية

٦ - ذاع أمر هذه الدولية الشيوعية ، واعتدنا أن نسمع باسمها ماثلاً في الشؤون الدولية ، واثراً محسوساً في توجيه السياسة العالمية . ومع ذلك فالدولية الشيوعية قوة خفية أكثر منها هيئة ظاهرة ، هي فكرة يحملها جيش هائل من الدعاة يجتاحون أرجاء العالم ، تشهد أعمالهم ولا تراهم ، وهم من أشباحهم المظلمة في أفق كل اضطراب او ثورة ، ويهرع الى لوائهم كل ناظم ويائس ومغامر . هذه هي الدولية الشيوعية التي تقبض موسكو على ناصيتها ، ويسيرها خلفاء لينين وتلاميذه دعاة الثورة العالمية

وأصل هذا النظام فكرة مركبة ، ففي سنة ١٨٦٤ أسس كارل ماركس كما قدمنا جماعة العمل الدولية ولكنه لم يوفق الى جعلها هيئة دولية بمعنى الكلمة اذ طاردها الحكومات المختلفة ومزقها خلاف الزعماء . بيد انها كانت نواة للحزب الاشتراكية السياسية في كثير من الدول الاوربية . وهذه هي الدولية الاولى وقد استمرت الى سنة ١٨٧٢

أما الدولية الثانية فقد انتظمت لأول مرة في سنة ١٨٨٩ واستمرت تعقد مؤتمراتها حتى سنة ١٩١٤ ، وكان يغلب عليها الاعتدال والمسالمة في معاملة أصحاب الاموال فكان ذلك سبباً في اضمحلالها وضعف نفوذها . وكان آخر مؤتمر عقده قبل الحرب في أوائل سنة ١٩١٤ برعاية نقر من زعماء الاشتراكية المعاصرين مثل اهر كارل كاوتسكي ، والمسيو فاندرفلد ، والمستر ماكدونالد . ثم جاءت الحرب فغاضت النزعة الدولية ، وغلبت النزعة القومية على جميع الاحزاب الاشتراكية . ولكن الثورة البلشفية التي سحقت القيصرية والديموقراطية الرجعية في سنة ١٩١٧ بعثت الى النزعة الدولية روحاً جديداً

أما الدولية الثالثة فقد بدأ البلاشفة بوضع أسسها في اوائل سنة ١٩١٨ ، واجتمع مؤتمرها الاول في مارس من هذه السنة

وضع لينين وصحبه أسس هذه الدولية الثالثة ، وسميت بالدولية الشيوعية تمييزاً لها من الدولية الثانية التي يعتبرها لينين وأنصاره مروقاً على قضية الشيوعية ، ويعتبر زعماءها خونة نقيبين ، وانتخب لرياسة مجلسها التنفيذي داعية من أعظم دعاة الثورة العالمية هو تسينوفيف رفيق لينين في المنفى وساعده الايمن في تنفيذ مشاريعه ومبادئه يقول لينين في كلامه عن الدولية الشيوعية : « ان هذه الدولية الثالثة هي خليفة الدولية الثانية ، ولسكنها قد طهرت نفسها من تلك الادران التي لوئت لمثل الدولية الثانية من أفكار البورجوازي الصغيرة ، والمشاريع الرجعية النفعية . وأهميتها في التاريخ ترجع بالاختصاص الى أنها قد شرعت في تطبيق نظرية ماركس التاريخية على الكتلة العاملة أعني أن نضال الطوائف ينتهي بنتيجة محققة هي فوز العمال واستئثارهم بالسلطة . وقد انقضى عهد ديموقراطية البورجوازي الصغيرة كما انقضى عهد الدولية الثانية بعد ان أدت كل منهما وظيفتها في ربط حركات الكتلة العاملة ومراحل تقدمها نحو الفوز النهائي »

٧- وقد مضت أعوام ودولية لينين تعمل في الظلام والحفاء . فماذا تعمل الدولية

والام توجه جهودها الفادحة ؟ ان أحداً لا يستطيع ان يزعم ان الدولية الشيوعية التي أنشئت تروّع دول الاستعمار وحكومات العالم بأسره بجهودها وغاياتها هي فقط تلك الهيئة التي تراها تعقد مؤتمراتها السنوية في موسكو في علانية وجهر ، او يزعم انه يستطيع ان يحصي بالضبط ماذا تقرره الدولية وراء جدران الكرملين ، او ماذا تقوم به في مختلف الميادين السياسية والاجتماعية . وهذا القصور في الالمام بأسرار الدولية طبيعي ، فالدولية جمعية سرية هائلة ، وما كان لاحد ان ينفذ الى اسرار جمعية سرية معاصرة لا ينفذ اليها الا من كان من دعايتها في مرتبة الزعامة والقيادة . بيد أنا مع ذلك نستطيع ان نستشف طرفاً من نظم الدولية وغاياتها الخفية مما نشهده من جهود دعايتها المادية

أما ان الدولية الشيوعية جمعية ثورية هدامة فهذا مما لا ريب فيه . فهي تقصد الى هدم جميع النظم السياسية والاجتماعية الحاضرة من أساسها وسحق جميع التعاليم الدينية والمبادئ الاخلاقية وتزعم الى تحقيق ذلك بالثورة والعنف . وهي تعبر عن ذلك في تصريحاتها العلنية بأنها ترمي الى تحرير الكتلة العاملة والجماعات المهيضة من حكم الارستقراطية وأصحاب الاموال ، والى تحرير الامم المغلوبة والمغتصبة من يدي الاستعمار ، وتسند كل غاية لها الى استخلاص الحقوق والحريات من أيدي الغاصبين والظلمة ، وأن تقيم مكان الحكومات والمجتمعات الحاضرة حكومات ومجتمعات شيوعية تكون السيادة فيها للكتلة العاملة . هذا هو برنامج الدولية الذي تصرح به على السنة قادتها وزعمائها ، بل هذا برنامج لئين نفسه . وهو في الواقع برنامج خلاب تثير به الدولية مشاعر السواد الاعظم في كل مجتمع ، وتحفز به كوامن الشعوب المهيضة والامم المغصوبة ، ولكن الدولية لا تستطيع رغم جهودها واضطرام دعوتها أن تقنع هذا السواد باعتناق مثلها الخلاب ، ومثل روسيا قائم يشهد بأن التجربة الشيوعية كانت خيبة ، وان تعاليم ماركس ما زالت حلاً وحشياً لم تحقق منه الا لحاحات ضئيلة

بيد انه اذا كانت الدولية لم تفز حتى اليوم بتحقيق برنامجها الانشائي حيثما تبسط سلطانها وحيثما تخضع اصولاتها أمماً بأسرها ، فليس من ريب في انها قد فازت بتحقيق كثير من مشاريعها الهدامة . ففي روسيا وفي اواسط آسيا أبادت الدولية نظم المجتمع القديم بأسره ، وسحقت مبادئه وتقاليده الدينية والاخلاقية ، وبنت فيه عقلية جديدة . وما زالت الدولية تبث روح الثورة في جميع الجماعات العاملة على يد الاحزاب الشيوعية والاشتراكية المنتمية اليها . ولا تكاد توجد اليوم هيئة شيوعية او

اشتراكية هامة لا تنتمي الى دولية موسكو الا حزب العمال البريطاني الذي أبى أن
يعتق برنامجها منذ اللحظة الاولى ، والذي ينتمي الى دولية فينا الثانية



سينوف

٨ - الدولية الشيوعية اذن هي التي تسير حركة الثورة والهدم في جميع أنحاء
العالم ، وهي التي تغذيها بالنصح والمال . وقد شهدت اوربا منذ قيام الدولية الشيوعية
عدة فورات ثورية هائلة . ففي وقت ما سقطت الحجر صرعى الدعوة الشيوعية وقامت
فيها حكومة شيوعية خالصة ، ولبثت المانيا تصارع الثورة الشيوعية أشهراً ولم تطفئها
الا بسيل من الدماء ، وكادت ايطاليا قيل قيام الفاشست تذهب فريسة الحركة
الشيوعية ، وما زالت هذه الحركة تضطرم حتى اليوم في بلغاريا واستونيا واليونان
وتتذر كل آونة باقتلاع حكوماتها الحاضرة

وقد وجدت الدولية في أمم الشرق التي ييسط عليها الاستعمار حكمة المفروض
ويستثير سخطها ويأسها بعسفه مهاداً خصيبة لبث دعوة الثورة والهدم . وثنا في
حوادث الصين دليل ساطع فقد اضرم دعاة الدولية في جنوب الصين ثورة
اكتسحت سلطان الاستعمار ، وحطمت مشاريع التجارة الاجنبية والبريطانية بنوع
خاص ، وقضت هنالك على كل نظام وحكم

تشب هذه الفورات بتدبير الدولية وتعريضها وتأبى الدولية أن تعترف بانارتها ،

غير ان زعماءها لا يحجمون في تصريحاتهم وأحاديثهم عن تجميع هذه الحركات واعتبارها نذيراً بانفجار الثورة العالمية ، وهذا آخر ما صرح به تسينوفيف رئيس الدولة ، وخطيبها المتهب حيث قال « ان نذير الثورة العالمية يبدو واضحاً في الاضطرابات التي تجتاح اليوم الصين والهند وسوريا وتونس ومراكش وغيرها من الامم التي سلبها الاستعمار حرياتها وحقوقها »

وذكر تششرين وكيل الشؤون الخارجية الروسية في احد تقاريره ما يأتي : « نلاحظ ايها سرحنا البصر ، في اعم الشرق ، في فارس والصين وكوريا وتركيا ومصر اضطراباً عميقاً يتخذ من يوم الى يوم شكل ثورة منظمة على نير الرأسمالية الاوربية والاميركية . وهذه الحركة ترمي في النهاية الى تحقيق مثلنا العليا »

والخطر كل الخطر في ان الامم التي نخشى على كيانها ونظمها من نشاط الدولة ودعوتها الهادمة تحارب في الواقع اشباحاً غير منظورة ، وجنوداً يعملون في الظلام بأسلحة خفية ووسائل تهزم أية رقابة . ومن ثم كانت الدولة الشيوعية جمعية سرية هائلة . وكانت لها مراتبها السرية متدرجة في المعرفة والرياسة ، فالسواد الذين يعملون لتحقيق مشاريعها الهادمة لا يتصلون بالمديرين والقادة ، وكلما يحيط بأسرارها الدفينة انسان سوى الخاصة من زعمائها . فالتاريخ وحده ان يهتك ذلك الحجاب الذي يضرب فوق وسائلها وغاياتها الحقيقية ظلمات كثيفة

الفصل الرابع

اللا الحكومية

L'Anarchie

(١) معنى اللا الحكومية. اللا الحكومية والاشتراكية. بدء الحركة اللا الحكومية. برودون وباكونين .
أنتشار اللا الحكومية. الارهاب اللاكومي (٢) الشيوعية اللا الحكومية . أقوال البرنس كروبوتكين .
ختم اللا الحكومية

١ - اللا الحكومية من دعوات الهدم الظاهرة أيضاً ، بيد أنها تذهب في مُثلها الى أبعد حدود الهدم . ومن الصعب تعريف اللا الحكومية تعريفاً صحيحاً فليس لها من آداب مستفيضة كغيرها من دعوات الهدم الأخرى . ومعظم دعائها من زعماء العمال الذين لم يتفقوا في المباحث الاقتصادية والاجتماعية . والكلمة أصلها يوناني ومعناها « لا حكم » ، وإذاً فيمكن تعريف اللا الحكومية بأنها انكار للحكومة ، وحالة المجتمع ليست له حكومة مركزية ، يتمتع فيه الفرد بأقصى حدود الحرية الذاتية . ومن الخطأ أن نعتقد أن اللا الحكومية تعني مجتمعاً لا قانون له ، تسوده الفوضى وتنتهك فيه الحرمات ، بيد أنها لما كانت تصر على انكار كل سلطة بشرية كانت أوساوية ، سواء في حين التفكير أو حين العمل ، فكثيراً ما ينسب اليها الخوارج على المجتمع ولو كانت آراؤهم وأفعالهم جرائم يعاقب عليها القانون . وقد حاول انصار هذه الدعوة في العهد الأخير أن يحددوا نظرياتهم بواسطة المؤتمرات الدولية التي كان أهمها مؤتمر امستردام الذي عقد سنة ١٩٠٧ . أما خصومتهم للاشتركية فقد بدت واضحة بفصل باكونين وطائفته اللا الحكومية من الدولية الأولى في مؤتمر لاهاي سنة ١٨٧٢ . على أنه مهما كان بين المذاهب الاشتراكية المتطرفة وبين اللا الحكومية من تباين فإن صورهما المختلفة تبرز بأساليب غير محسوسة ، وتكون جميعها دعوة واحدة هي مخاصمة النظام الحاضر ولا سيما فيما يتعلق بالملكية الفردية ، والواقع أنه لا فرق بين الاشتراكية الثورية واللا الحكومية الشيوعية في الغايات والوسائل ، فكلاهما يرمي الى سحق المجتمع الحاضر بجميع نظمته ، وكلاهما ترى أن تحقق مُثلها بالقوة والعنف . ويرى كل من الاشتراكي واللاكومي ان استئثار البورجوازي بالملكية يقيد من حرية الفرد ويرغب كلاهما في تحطيم هذا الاستئثار ، ولكنهما يختلفان اختلافاً جوهرياً في تعيين من تؤول اليه

هذه الملكية ، وفي بناء المجتمع الجديد . أما الاشتراكي فيرى العلاج في قيام حكومة اشتراكية تستثمر أرزاق المجتمع لحساب افراده ، وأما اللاهكومي فيرى أن كل حكومة مهما كانت من الخير والكفاية إنما هي أداة شريرة تنجح الى الأثرة والارهاق ، وان الفرد يغدو عبداً اذا اضطر الى طاعة الاغلبية كما هو عبد في ظل الحكم الابدقراطي ويمكن القول ان حركة اللاهكومية الحديثة قد بدأت بالفيلسوف الاجتماعي الفرنسي بير برودون (١٨٠٩ - ١٨٦٥) . وأعم ما كتب برودون كتابه « ما هي الملكية » وهو سؤال يجيب عنه بأن الملكية هي السرقة الصريحة ، ويقدر أن المجتمع الكامل



يمكن أن يقوم النظام فيه على ضبط الفرد الحر لاهوائه وعواطفه ضبطاً معقولاً . ولكن لعل اكبر داعية في الحركة اللاهكومية هو ميخائيل باكونين الروسي (١٨١٤ - ٧٦) الذي يسمى نبي اللاهكومية . وقد كتب باكونين عدة مؤلفات أشهرها « الله والدولة » وعرف بالاختصاص بنضاله الطويل لكارل ماركس ، ومع أن ماركس خرج من هذه المعركة ظافراً كما رأينا فقد خلف باكونين وراءه طائفة كبيرة من الانصار والدعاة خصوصاً في الامم اللاتينية . وأعم ملجأ لانصار الدعوة في عصرنا هو ولاية كاتالونيا الاسبانية وعاصمتها برشلونة أكبر مدن اسبانيا الصناعية وأهل القاري . يذكر ما تحمله البنا أبناء الخارج من وقت لآخر من فورات اللاهكوميين في تلك المدينة وهي فورات لا نحمد دائماً الا بسيل من الدماء

وقد اعتنق اللاهكومية في العصر الاخير ودعا اليها طائفة من الاعلام مثل البرنس

كرويتكين الروسي ، وأتريكو مالانسا الايطالي . ولاولها كتابات كثيرة عن النهيزم واللاخومية . كذلك دعا اليها تولستوي فيلسوف روسيا الاكبر في كتاباته وقصصه . وأهم دعاة اللاخومية في الاعوام الاخيرة هم في فرنسا الزه ركوس ، وسبستان



برودون

فور ، وشارل مالاتو ، ولوين ميشيل . وفي ايطاليا اسكاري شرياني ، وفي أميركا إماجوليدمان وبنجامين تروكر . والصحافة اللاخومية ضعيفة ضئيلة وأهمها صحيفة « الحرية » Freedom البريطانية

وقد ارتكب اللاخوميون في العهد الاخير طائفة كبيرة من أعمال العنف والسفك وهلك على يدهم جماعة من الحكام والزعماء منهم كارنو رئيس الجمهورية الفرنسية

(سنة ١٨٩٤) ، والامبراطورة اليزابيث النموية (سنة ١٨٩٨) وأومبرتو ملك إيطاليا (سنة ١٩٠٠) وما كلفى رئيس الولايات المتحدة (سنة ١٩٠١) وهلك من الاحكاميين كثيرون على نطح الجلاد بين سنة ٩٢ و ٩٤ منهم رافاشول ومايان وهنري ، أعدموا لاثامهم القنابل على الجماهير ، وهلك بوردين في لندرة (سنة ١٨٩٤) بانفجار الآلة المدمرة التي وضعها لنفسه مرصد جرينوتش . وقتل الاحكاميون في برشلونة في العامين الماضيين نقرأ من الحكام والضباط وهلك منهم جماعة بيد الجلاد ايضاً ، وكانت لهم في ايطاليا قبل انتصار الفاشزم حوادث ومحاولات عنيفة جمّة

٢ - ويمكننا أن نأخص غايات الشيوعية الاحكومية في ثلاث : الاولى تحرير المنتج من نير الممول ، والاتاج العام ، والاستهلاك الحر لثمرات العمل المشترك . والثانية تحرير المجتمع من النير الحكومي ، وتقدم الافراد الحر في شكل جماعات ووحدات تنظم انتظاماً باهراً يبدأ من البسيط الى المركب طبقاً للاحتياجات والميول المشتركة . والثالثة التحرر من الخلق الديني واعتناق خلق حر لا اكراه فيه ينمو في ظل الحياة الاجتماعية ويغدو عادة للشرد

يقول البرنس كروبتكين : « هذه الغايات ليست حاماً ، وانما هي نتائج مستخلصة من تحليل ميول المجتمع الحديث ، ذلك أن الشيوعية الاحكومية هي مزيج من عاطفتين اساسيتين في مجتمعاتنا ، الاولى ميل نحو المساواة الاقتصادية والثانية ميل نحو الحرية السياسية » ان مثل الاحكومية تنادي بألا حرية للمجتمع ما دام الفرد ايس حراً ، وتقول لا تحاولوا أن تعدلوا المجتمع بأن تفرضوا عليه سلطة تصلح من كل الامور ، فاذا فقام فسوف تفشلون كما فشل البابوات والامبراطورة . ولكن نظموا المجتمع بحيث لا يصبح اخوانكم بعد أعداء لكم بحكم الظروف ، وألغوا النظم التي تسمح لنفر من الناس أن يحتكروا ثمرة عمل الغير ، وبدلاً من أن تحاولوا بناء المجتمع من القمة الى أسفل اتركوه ينمو بذاته حراً من البسيط الى المركب بتضافر الجماعات الحرة . ان هذه الطريق التي تفص اليوم بالعثرات هي ، السبيل السوي لسير المجتمع ، فلا تحاولوا اعتراضه ، ولا ترتدوا بظهوركم نحو التقدم بل سيروا معه »

ثم يقول بعد : « وما دامت الشيوعية الاحكومية هي نتيجة محتومة للميول القائمة ، فيجب أن نتوجه بخطواتنا نحو هذه الغاية . فاذا لم تفز الثورة القادمة بتحقيق هذه الغاية كلها فان كل ما يحقق في هذا السبيل سيبقى قائماً خالداً ، أما ما يحقق في وجهة مناقضة فيسقط عليه بالعدم . ومن القواعد العامة أن الثورة العامة

قد يمكن قمعها ، على أنها تغدو شعاراً للتطور في القرن الذي يلي . . ان الشيوعية
الاحكومية هي خلاصة أجمل وأتقى عناصر التقدم في الانسانية أعني عاطفة العدالة ،
وعاطفة الحرية ، والتضامن او وحدة المصلحة ، وهي ضمان بالتطور الحر سواء بالنسبة
للفرد او المجتمع . واذاً فلا بد لها من الفوز »

على ان الدعوة الاحكومية لم تتقدم كثيراً منذ عهد البرنس كروبتكين ، وليس
لها اليوم دعاة أقوياء أو كثيرون ، وليست لها أحزاب قوية تؤيدها

خاتمة

الثورة العالمية

ليس لمؤرخ الحركات الهدامة والدعوات الخفية أن يتسم اليوم لما يسمى « بالثورة العالمية » وقد كان يتسم منذ قرن أو بعضه للدعوات الاشتراكية والشيوعية واللاحكومية ، ويسخر من نظريات ماركس ، وباكونين ، وبرودون . أما اليوم وقد حطمت البلشفية دولة القيصرية ، ودست تعاليم ماركس الى كثير من نواحي الحياة الروسية العامة ، وغدت الاشتراكية والشيوعية قوتين سياسيتين عظيمتين في معظم الدول الغربية ، فليس على متلمس آثار الثورة العالمية في المجتمع الحاضر إلا أن يستعرض في جد وخطورة كل القرائن والمظاهر التي قد يستشفها من غمار الحوادث السياسية والاجتماعية التي تميز أسس المجتمع الحاضر الى الاعماق ، وتبعث الجزع الى أولئك الذين لا يقتنعون بالمظاهر الهادئة ، ويؤمنون بما يدهم النظم الحاضرة من عوامل التقويض والهدم .

وكل عوامل التقويض والهدم التي تهدد بالفناء كل المجتمعات والنظم الحاضرة تجتمع في الدعوة الى الثورة العالمية ، فالبلشفية ، والدولية الشيوعية ، والاشتراكية ، واللاحكومية وغيرها من الدعوات والمصادر الثورية كلها قوات هائلة تعمل لغاية واحدة ، وترجع كلها في الاسترشاد والنصح الى وحي واحد .

ان الثورة الفرنسية التي هي وثبة من أعظم وثبات الهدم في العصر الحديث ترجع الى نشاط هذه القوات الخفية ومهارتها في استغلال سيخط الجماعات أكثر مما ترجع الى الاسباب والحوادث المادية التي ينسب انفجارها اليها عادة . وقد كانت الثورة الفرنسية ثورة عالمية في معنى من المعاني ، ذلك انها قصدت بالهدم والتجديد كل النظم القديمة من أساسها ، وقصدت الى تغيير الحياة العامة في جميع مظاهرها . وقد رأيت ما كتبناه عن تأثير الدعوات الخفية في إثارة الثورة الفرنسية ، ان العقوبيين أعظم دعاة الهدم في الثورة كانوا جميعاً ينتمون الى جمعيات سرية كانت تعمل في الخفاء لسحق الملكية الفرنسية ، واتخاذ المجتمع الفرنسي مسرحاً لانفجار هائل ينفذ ضرامه الى أبعد مدى .

لوقد قطعت الثورة الفرنسية مرحلة كبيرة في هدم المجتمع القديم ، فأبادت نظم لآقطاع ، وحطمت الملكية وأقامت النظم الجمهورية وسحقت سلطان الكنيسة ، وقررت ضروباً شتى من الحريات السياسية والاجتماعية ، وكانت مبعث الوحي لطائفة كبيرة من الثورات السياسية والاجتماعية التي اضطرت بها معظم الدول الاوربية في القرن الماضي

هذه الروح الهادمة تجلت بأشكال رائعة في الثورة الروسية الاخيرة ، فقد حل سيل البلشفية كل ما صدره من تعاليم ونظم ، وامعن البلاشفة في الهدم والتدمير فأبادوا معالم المجتمع القديم بأسرها ، ودكوا كل صروح السياسة والاجتماعية والدينية ولم يقصدوا بالحو والتخريب كل مظاهر الحياة العامة فقط ، بل قصدوا فوق ذلك الى تغيير عقلية الافراد ، والى استبدال التعاليم والتقاليد الاخلاقية القديمة بتعاليم وتقاليـد جديدة ، وقد فاز البلاشفة من تلك الناحية ايما فوز وان اخفقوا في تطبيق النظم الاقتصادية الشيوعية ، فشادوا في بضعة أعوام مجتمعاً غريباً في تفكيره ، اباحياً في اعتباراته وتقديراته ، ثورياً في عقليته وغاياته ، وهذا المجتمع هو الذي يبرز اليوم الى الطليعة رافعاً لواء الثورة العالمية

فهل تكون البلشفية والثورة العالمية اسمين لمسمى واحد ؟ ان عبارة « الثورة العالمية » كثيراً ما تجري على لسان أقطاب موسكو وزعماء البلشفية ، بل قلما نسمع لاحدهم حديثاً أو نقرأ له مقالاً يخلو من الاشارة الى الثورة العالمية ، وثورة الكتلة العاملة وغيرها ، وما زلنا نذكر آخر تصريح لتسينوفيف رئيس الدولية الشيوعية فاه به في مؤتمر الدولية الاخير اذ قال : ان « بؤادر الجزع والاضطراب تحتاج العالم من أقصاه الى أقصاه ، وان في الاضطرابات التي تعصف اليوم بالصين والهند وسوريا وفلسطين ومصر وتونس ومراكش لدليل على ان الجماعات المهيضة تقطع مرحلة جديدة في سبيل اضرام نار الثورة العالمية واستخلاص الاكثية الهائلة لحرياتها من قبضة الاقلية الطاغية »

غير ان ما يقوله رئيس الدولية أو غيره من زعماء البلشفية ، وما يقوله على الاخص لبنين في كتبه عن ثورة الكتلة العاملة ، لا يعني ان الجمعية السرية التي تقبض على مصائر روسيا تعمل دون وحي يلتقي اليها من وراء ستار ، وتسير في جهودها الهادمة مستقلة

دون توجيه ، فما هو هذا المصدر الخفي الذي يغذي جهود البلشفية ؟ وما هي غاياته
الآخيرة التي يدفع الحركات الثورية المختلفة الى رعايتها والعمل على تحقيقها ؟ ان البناء
الحزبي ، والمالية الدولية ، والجامعة الجرمانية كلها قوات حقيقية لا مريبة في وجودها
تؤثر في شؤون العالم ايما تأثير ، وفي وسعنا ان نعين منها اسماء الزعماء وطرق العمل
ومراكز الوحي والارشاد ، ولكننا لا نستطيع ان نقول المثل في مسألة الثورة
العالمية ، ومع ذلك فالثورة العالمية حقيقة يشعر العالم بوجودها وبغالب جهودها

أليس مما يلفت النظر أن تختلف الدعوات الشيوعية والاشتراكية واللااحكومية
جميعها في برامج الانشاء السياسي وتتفق جميعاً في غايات التقويض والهدم ؟ ان ثورة
الكتلة العاملة ، وتحريرها من نير البرجوازي ، وتخطيم النظم الرأسمالية واضرابها
من العبارات الشيوعية كلها ستار لغاية واحدة ، هي غاية هدم شاملة ، فتخطيم المجتمع
الرأسمالي معناه تخطيم المدنية الحاضرة وكل ما احتوت من أديان وتعاليم وتقالييد .
وهدم المدنية غاية عملت لها جميع القوات الحفوية والجمعيات السرية خلال القرون ،
ولكن الحرص على تنفيذ هذه الغاية والدقة في تنظيم القوى التي تعمل لتحقيقها ،
واستمداد المجتمع الحاضر لتلقي تعاليمها كأنها ظواهر جديدة لم تظهر من قبل بمثل
ما تظهر به اليوم من جلاء ووضوح . ذلك لان عقلية المجتمع الحاضر قد تأثرت
بمؤثرات جديدة عميقة ، وقد بعثت البأساء الطاحنة وآلام الحياة ، ومصاعب العيش
في كثير من البيئات روحاً من اليأس والنقمة لم تعرفها من قبل . وهذه الروح هي
التي يستغلها دعاة الثورة العالمية ، وهي التي مهدت السبيل لروسيا القيصرية لفوز البلشفية ،
وتعهد اليوم سبلا شتى لنشاط الدعوة الشيوعية

إذا فالدعوات الشيوعية والاشتراكية واللااحكومية نواح من نواحي الثورة العالمية
تعمل كلها من سبل مختلفة الى نفس الغاية

يقولون ان الثورة العالمية والخطر اليهودي اسمان لمسمى واحد ، وان دعاة الثورة
العالمية هم دعاة السيادة اليهودية العالمية ، وان الفكرة اليهودية القديمة في سحق
المدنية الحاضرة هي التي تجثم وراء الثورة العالمية . فأما كون اليهودية تقصد بالهدم
والحوكل النظم الحاضرة ، وتقصد بالاختصاص الى هدم التعاليم الدينية والاخلاقية
نصرانية كانت او اسلامية فأمر لا ريب فيه . ولكن ليس ثمة ما يؤيد أن اليهودية
تحتج وراء البلشفية والشيوعية والاشتراكية وما إليها من دعوات الهدم ، وكل
ما هنالك أن اليهودية تعمل لنفس الغاية . والظاهر أن اليهودية ما هي الا إحدى

للقوى التي تعمل للهدم الى جانب الحركات الاخرى وانها تدفن بنفس التعاليم الحرة الهادمة ، وان هذه القوى ترى جميعاً مثلاً واحدة هي الجامعة بينها ، وهي التي توجه نشاطها وتوحد بين غاياتها . واذا كان من المستحيل أن نعين ذلك المصدر أو المصادر الخفية التي تغذي دعوة الثورة العالمية بالنصح والارشاد وتمدها بالدعاة والاموال ، فقد لا نذهب بعيداً اذا قلنا ان البلشفية هي أقوى وأمنع عناصر الثورة العالمية وانها هي التي تبرز من دونها الى الطليعة بالقول والفعل ، وانها واسطة الوحي في تغذية العناصر الاخرى التي تحرص جميعاً على تحقيق غاية موحدة شاملة ، هي هدم المجتمع الحاضر من الاساس ، واستبداله بمجتمع يقوم على مبادئ الشيوع والاباحة وبحقوق أعظم ما يستطيع من مثل ماركس ولنين

﴿ تم الكتاب ﴾

فهرس

صفحة		صفحة	
٨٧	١ - أصل البناء الحر	٥	كلمة المؤلف
٩٤	٢ - عهد الخلفاء الأكر	٧	مقدمة
١٠٠	٣ - البناء آخر الحديث		الكتاب الأول
	الفصل الثاني - تمديدك الكبير		الثورة على الإسلام
١٠٨	والجميات السرية	١٣	تمهيد
	الفصل الثالث - مدرسة الكابلا	١٥	الفصل الأول - ثورة أخوارج
١١٦	اليهودية	٢٢	مذهب أخوارج
	الفصل الرابع - جمعية الشعلة النافرة	٢٦	الفصل الثاني - ثورة الشيعة
١٢٨	الفصل الخامس - تأثير الدعوات		الفصل الثالث - الحركات الهدامة التي
١٣٩	السرية في الثورة الفرنسية	٣١	قامت لهدم الإسلام
	الكتاب الرابع		الفصل الرابع - الجمعيات السرية التي
	الجمعيات السرية في عصر التحرير	٤٠	أنشئت لهدم الإسلام
١٥١	تمهيد		الكتاب الثاني
١٥٣	الفصل الأول - جمعية الكربوناري		الثورة على النصرانية
١٦١	الفصل الثاني - النهائزم والتبليست	٥٩	الفصل الأول - جمعية فرسان المعبد
١٦٨	الفصل الثالث - التوجندبند		الفصل الثاني - عصور السحر والحفاء
	الكتاب الخامس	٦٥	(القسم الأول)
	حركات الهدم الظاهرة	٦٥	١ - القداس الاسود
١٧٣	تمهيد		٢ - عبادة الشيطان أو السحر
١٧٥	الفصل الأول - الاشتراكية	٦٧	الاسود
١٨٦	الفصل الثاني - الشيوعية		٣ - جمعية الصليب الوردي أو
٢٠٠	الفصل الثالث - الباشقية	٧٢	صليب الندى
٢١٠	الدولية الشيوعية		الفصل الثالث - عصور السحر والحفاء
٢١٥	الفصل الرابع - الاحكومية	٧٧	(القسم الثاني)
٢٢٠	خاتمة - الثورة العالمية	٧٧	١ - عصر السموم
		٨٠	٢ - ذروة الحفاء
		٨٤	٣ - أحدث أطوار الحفاء
			الكتاب الثالث
			في الجمعيات السرية المعينة
		٨٧	الفصل الأول - جمعية البناء الحر

009
9

Bibliotheca Alexandrina



0614850

٢١